اللغة العربية

مجلة نصف سنوية محكمة تعنى بالقضايا الثقافية والعلمية للغة العربية

المجلس الأعلى للغة العربية
اللغة العربية
العدد التاسع عشر - شتاء 2007
19



العدد التاسع عشر - شتاء 2007

اللغة العربية

مجلة نصف سنوية محكمة تعنى بالقضايا الثقافية والعلمية للّغة العربية.

مجلة اللغة العربية

دورية تعنى بقضايا اللغة العربية وترقيتها يصدرها المجلس الأعلى للغة العربية.

المجلة منبر حر، وليس كل ما ينشر فيها معبرا بالضرورة عن موقف المجلس

قواعد النشر

- التقيد بالمعايير العلمية والأكاديمية المتعارف عليها:كالتوثيق..
- أن تكون الأعمال أصيلة لم يسبق نشرها من قبل.
- ترسل النصوص مرفقة بقرص مسجل باسم رئيس المجلس أو رئيس التحرير على العنوان المذكور أدناه.
- أن توضع الهوامش والمراجع في آخر المقالة.
- المقالات التي ترد إلى المجلة لا ترد إلى أصحابها نشرت أم لم تنشر.

التحرير والمراسلة : المجلس الأعلى للغة العربية

شارع فرنكلين روزفلت – الجزائر العاصمة

ص.ب. 575 ديدوش مراد – الجزائر

الهاتف: 24/25 07 23 21 (00213)

الناسوخ: 07 07 23 21 (00213)

الترقيم الدولي الموحّد للمجلاّت (ر.د.م.م) : 1112 - 3575

الإيداع القانوني: 02 7/20

محتويات العدد

كلمة رئيس التحرير

أ.د.مختار نويوات

لفت نظري في المقالات المنشورة في هذا العدد من "مجلّة اللّغة العربيّة" مقالة للفاضلة فريدة بن فضّة، من تيزي وزّو، تنقض فيها ما ورد في كتاب "لتحيا اللّغة العربيّة : يسقط سيبويه" (هكذا رُسِمَ العنوان) لشريف الشوباشي، الط. الرابعة، 2004، مصر.

لا أعرف الكتاب ولا أريد أن أبدي رأيا مفصّلا فيما لم أطالع لأنّ ذلك مناف للمناهج العلميّة، إنّما أعالج ما أوردتْ من القضايا المنسوبة إلى الشوباشي وما أعلم علم اليقين أنّ بعض معاصرينا، لئلاّ أقول الكثير منهم، يتبنّاه.

يظهر من نماذج الكتاب المثبتة في المقالة بين علامات التنصيص أو المشار إلى صفحات الكتاب المتضمّنة لها أنّ الشوباشي ينعى على المترمّتين من العلماء والأدباء غلوّهم في الدعوة إلى الحفاظ على اللغة العربيّة كما وردت في المعاجم العربيّة القديمة وكما قعّد قواعدها سيبويه ومَن نهجَ نهجَه، وإلى تنقيتها من الشوائب الطارئة عليها المنافية لعبقريّتها ومعاييرها. ويبيّن أنّ العربيّة كما عرفها سيبويه ودعّم أركانها وكما نجدها عند الجوهريّ والأزهريّ وابن سيده وابن منظور وأضرابهم لم يعد يعرف منها المثقّفون

المبرّزون إلاّ القليل القليل ولم تعد تستعمل إلاّ كتابة. فهي لسان ميت أو في حكم الميت على أكثر تقدير؛ شأنها في ذلك شأن اللاتينيّة في أوائل النهضة الأوروبيّة: ضاقت رقعتها شيئا فشيئا فأصبحت حكْرا على العلوم والفنون ولم تلبث أن استعصت حتّى على نخب المثقفين المجيدين لها فاستبدلوا بها لهجاتهم المحلّيّة وطوّروها إلى أن صارت لغةُ العامّة ولغةُ المثقّفين لسانا واحدا مُوَحّدا يفهمه الصغير والكبير، لسانَ التواصل اليوميّ والإبداع في الميادين الفنّيّة والعلميّة والتكنولوجيّة. وفاقونا بلغات ثريّة طيّعة ينوطون بها المستحيلَ فلا يُعجزُها المستحيلُ. واللّغة أداة الرقيّ والتحضّر. بها تتطوّر الحضارات وبها تتفوّق الأمم لأنّ اللّغة هي التي تُطوِّر الإنسان (؟ !). وآية ذلك أنّ الإنجليزيّة أنتجت همنجواي (E. Hemingway) و(John.Steinbeck) وأمثالهما. وأظنّه أراد أنّ اللّغة تساعد الإنسان على التطوّر بما توفّر له من المعارف التي نقلت إليها وبوسائل التعبير التي اكتسبتها بجهود أهلها، أوْ لا فلا معنى لما يقول، لأنّ اللّغة نتاج الفكر وأداة إنتاجه. والعكس غير صحيح.

وراح يقارن – فيما يُفْهَمُ من مقالة الزميلة الفاضلة – بين العربيّة القديمة، "لغة سيبويه"، لغة البدو والبداوة، المثقلة بالمترادفات التي تفوق الحصر ولا تغني عن أهلها شيئا بل ترهقهم وتثقل معاجمهم؛ لغة لم تعد تصلح للعصر ولا أمل لها في أن تكون من لغاته؛ لغة لم تتغيّر قواعدها منذ خمسةَ عشرَ قرنا وأنّى لها أن تتغيّر وهي عند أصحابها من المقدّسات وبها نزل قرآنُهم ! وهل في اللغة من قداسة ؟ لغة يتبرّم بها العربيّ بَلْهَ الأعجميّ ويدرسها الدّارس المجِدُّ الدؤوب عشرات السنين فلا يكاد ينال منها شيئا، بينما تنقاد له الإنجليزيّة في مدّة لا تتجاوز الستّة أشهر؛ لغة يصدق في تعلّمها قول شاعرهم الأعشى:

ناطحٍ صخرةً يوما لِيوهنها   فلمْ يَضِرْها وأوْهى قرنَه الْوَعِلُ

ولعلّ الشوباشي لا يرمي إلاّ إلى تبصير المتزمّتين من اللغويّين المبالغين في الحفاظ على ما يسمّيه لغة سيبويه ومعاييرها كما وردت في "الكتاب" وكما كانت في"القرن الخامس" والقرون الأولى من ظهور الإسلام، وإلى الدعوة الصادقة إلى تطوير العربيّة تطويرا جذريّا سريعا، كلّف ذلك ما كلّف، لتساير العربيّة عصرها مسايرة حقيقيّة وإلاّ أدركها الاضمحلال والزوال وأنه لا يقصد إحلال اللّهجات العربيّة أو إحداها محلّها. وأرجو أن أكون مصيبا فيما ظننت لأنّ من الداعين إلى التخلّي عن الفصحى ولو في الرسميّات والعلوم والفنون من سبقه إلى ذلك ودُحض رأيُه بمختلف الحُجَج وبالواقع الراهن. فهل يدعو الشوباشي كذلك إلى الاستغناء عن الفصحى؟ وهل يراها "محنّطة لا يمكن النهوض بها" كما يُستشفّ من كلامه؟

نعم! كانت العربيّة لغة بدويّة لم تبلغ مستوى اللّغة الإغريقيّة أو الفارسيّة أو الهنديّة وكانت لهجات متباينة متقاربة في آن واحد كلهجاتنا العربيّة المعاصرة فتوحّدت في ما دُعِيَ باللّغة المثاليّة وزادها القرآن توحُّدا وأثراها. ودُرستْ دراسة لم يسبق لها مثيل وقُعِّدَتْ قواعدها تقعيدا محكما ذاع صيته واخترق الأزمنة والآفاق حتّى قال المستعرب ريجيس بلاشير مترجم القرآن وأستاذ اللغة العربيّة بجامعة السوربون:" لم أجد في العالم أمّة درست لغتها كما درس العرب لغتهم" وفي العربيّة نفسها:"هي لغة يضرب المثل بثرائها". وقال في النحو العربيّ: "إنّه نحو مثاليّ". وكان لسيبويه في ذلك الفضل الأكبر. وهل درس سيبويه إلاّ لغة عصره من العرب الخُلَّص؟ وهل يفعل الغربيّون نحاة كانوا أم لغويّين أم لسانيّين غير

ذلك في لغاتهم؟ هل زعم سيبويه، وهو يرى لسان معاصريه يتطوّر يوما بعد يوم، أنّ اللغة ثابتة أو مقدّسة؟

العربيّة من أثرى لغات العالم التي نعرفها. يشهد بذلك القاصي والداني. هي ثريّة بمفرداتها التي تبلغ 180.000 مادّة أوردها ابن منظور في "لسان العرب" وبما لم يورده ممّا استدرك عليه أو لم يستدرك لعدم تدوينه أصلا، وبكثرة دلالات اللّفظ الواحد وهو أمر طبيعيّ شائع في لغات العالم المزدهرة آدابها لطغيان المجاز على الأدب؛ والأدب العربيّ،كغيره من الآداب، طافح بالتعبير المجازيّ والكنايات والصفات التي لا تلبث أن تصير أسماءً بكثرة الاستعمال وتصبح مترادفات أوكالمترادفات، وما إلى ذلك ممّا يجعل اللغة خصبة متعدّدةً دلالاتُ ألفاظها في صيغة الجذر الواحدة. ولعلّ المعاجم العربيّة من أبرز المعاجم التي تعتمد الأدب لاسيّما الشعر وللشعر أسلوبه. فلا تكاد تجد في القديم منها لفظا غير مشفوع بما يوضّح معناه من المنثور والمنظوم والمنثور. ألم يقل لاروس صاحب المعجم الفرنسيّ الشهير : "معجم خالٍ من الشواهد هيكل عظمي"؟ بَيْدَ أنّ في المعاجم العربيّة عيبا لا يمكن إنكاره. وهو العدد الهائل من المترادفات التي لا تزيد في اللّغة "إلاّ ما تزيد الباشَوِيّة في طه حسين" كما قال الشيخ البشير الإبراهيميّ، لعدم الفرق بينها ولأنّ أصلها لهجات حُشِيَتْ بها المعاجم الكبرى. وهو، آنذاك، شرّ لا بدّ منه وإلاّ بقي الكثير من النصوص غامضا في بعض أجزائه. ومن الشرور التي لا مفرّ منها في تلك العهود كثرة الجموع وفَيْضُ الصّيَغ في المادّة الواحدة؛ لكنها لهجات أيضا وكلّها عربيّ لا يمكن الاستغناء عنه. ومن الجموع ما هو لهجة. ومنها ما يؤدّي معنى لم نعد نهتدي إلى سياقاته ولطائف أسراره. فعامّيّتنا مثلا، وفي الرقعة الواحدة

من البلاد، مقتصدة في الجموع. فإن تعدّدت صيغ الجمع في اللّفظ الواحد أدركنا الفروق بينها. ف" النساء والنِّسْوَة والنسْوان والنساوين" تختلف على مستوَيات القلّة والكثرة والعاطفة. يدرك ذلك من مارس اللّغة وخبر الأداء والسياق. وأنا واثق من أنّ **بعض الجموع** في الفصحى وفي غير اختلاف اللهجات، كانت تتجاوز القلّة والكثرة إلى التعبير عن العاطفة أو عن شيء آخر ممّا نجهله اليوم لعدم وسائل إدراكه.

لكنّ المعاجم المعاصرة أصبحت في حِلّ من اللهجات القديمة فلا تجدها مرهقة بالغريب وكثرة الصيغ والجموع في اللفظ الواحد. تخلّصت ممّا ضعفت صلتنا به أو انقطعت، وثرِيَت بالمستحدثات وستزيد ثراء على مَرّ السنين. ولا ينكر الجهودَ المبذولة منذ النهضة الحديثة إلاّ مكابر.

ومن عيوب أصحاب المعاجم العربيّة القديمة، التي **لا تغتفر** اعتماد اللاحق على السابق اعتمادا يكاد يكون كلّيّا وقصر المادّة اللغويّة على الأدب وما يخدمه ممّا يُدْعى العلومَ الآليّة، وعلى العلوم الشرعيّة وما إليها، وإهمال الكثير ممّا سمّوه باللغة المحدثة ومن مصطلحات الفلسفة والرياضيّات والفلك والطبّ والعلوم التجريبيّة والطبيعيّة التي عرفوها. ولا نريد مثالا على ذلك إلاّ ابن منظور (ت. 711 /1311) في كتابه "لسان العرب" الخالي من المصطلحات التي ذكرناها مع وجودها قبله بقرون. لكنّ المعاجم المتخصّصة موجودة في التراث، وفي شتّى المعارف، مثبتة في "كشف الظنون" وتكملته "إيضاح المكنون" وما شاكلهما، مطبوعة أو مخطوطة. وما ضاع منها جِدٌّ كثيرٍ.

وللغة جانبان : لفظيّ يخضع بسهولة للتطوّر في الدلالة بالتوسّع والمجاز وغيرهما. وقد يضمحل اللّفظ ويزول لقلّة استعماله أو للجهل به أو ليحلّ محلّه لفظ آخر يفرضه تغيّرُ البيئة وما يستجدّ من أسباب التطوّر

والحضارة. حدث للعربيّة في هذا الجانب ما يحدث لغيرها من اللغات. فلا تجد مثلا وعلى سبيل الافتراض جاهليّا أو إسلاميّا أو أمويّا أو عبّاسيّا يفهم مقالة صحفيّة أو تعليمة وزاريّة أو تعليقا سياسيّا في وسائلنا السمعيّة البصريّة لاستغلاق دلالات معظم الألفاظ عليه ولو كانت من لغته. لا يفهم منها إلاّ ما نفهم من قول الشنفرى في لاميّته " سُعارٌ وإرْزيزٌ ووجْرٌ وأفْكُلُ". **أيقال بعد هذا إنّ العربيّة لم تتطوّر؟**

أمّا الجانب الآخر فتركيبيّ ثبّت دعائمه سيبويه ومن حذا حذوه من فطاحل العلماء. والتركيب بطيئ التحوّل في جميع اللّغات وهو أهمّ مساعد على حفظها. ومع ذلك طوّع العرب لغتهم لترجمة الفلسفة اليونانية والسياسة الفارسيّة والحكمة الهنديّة. لم يتحرّجوا من إدخال أداة التعريف على الضمائر والجمل ومن اختراع المصدر الصناعيّ فقالوا "الأنا والهُوَ والأنانيّة والهويّة واللاّأدريّة والشخصيّة والإنسانيّة". وضّحوا لنا طرائق نتّبعها اليوم في نقل العلوم الدقيقة والتكنولوجيا ونبيح لأنفسنا الزيادة عليها والتصرّف في لغتنا كما نشاء، مع المحافظة على أصالتها، وكما تشاء لنا مقتضيات العصر وتحدّياته. وقد أنجزت مؤسّساتنا العلميّة والعاملون من علمائنا الكثير ممّا سبقنا إليه غيرنا من أسباب الحضارة، وفي مقدّمتها مصطلحاتها. **أيقال بعد هذا إنّ العربيّة "جسد ما فيه روح"** ؟ لقد كان الأطبّاء الغربيّون في القرن الرابع عشر الميلاديّ يفخرون بانتسابهم إلى ابن سينا وطبّه. وكانوا يشترطون في تعلّم الطبّ والإجادة فيه تعلّم العربيّة وإجادتها. فَلِمَ يُراد أن تُدالَ اللغاتُ الأجنبيّة اليوم من لغتنا؟ لستُ أستجيب لداعي العاطفة، فالعلم والمنطق لا يعبآن بالعاطفة. إنّما أحاول جاهدا أن أتبيّن الحقيقة ما استطعت

إلى ذلك سبيلا وأذكّرَ مُعاصرِيَّ ممّن رموا العربية بالجمود، أذكّرهم بقول عزيز أباظة، في إحدى مسرحيّاته، وعلى لسان بعض الرّهبان:

أنتمُ المسلمين حمّلتمُ الإسـ لامَ أثقالكمْ وأنتمْ نِيَامُ

أمّا كتاب سيبويه فلم يوضع للقرن العشرين أو الواحد والعشرين. فَلِمَ نحمّل صاحبه أوزارنا؟ والحقيقة التي لا مِراء فيها أنّ الشوباشي يقصد بسيبويه الفصحى التي يرى قواعدها "من قبيل اللوغاريتمات" ويعدّها السبب الرئيس لصعوبة العربيّة بالنسبة إلى اللغات الغربيّة. وما هي بالصعبة لأنّ اللغة ممارسة يوميّة دائمة لا مجرّد قواعد نحويّة. ومن ظنّ الأمر كذلك صدق فيه المثلُ الشعبيّ: "رمى الشجرة فأخطأ الغابة". وقد بيّنتُ في عدد سابق من هذه المجلّة دور أهلها في العجز عن جعلها كالإنجليزية أو الفرنسيّة أو غيرهما من اللغات المتقدّمة اليوم، وحاولت رسم المعالم التي تعبّد مسالكها. فلا داعيَ إلى التكرار.

Blanche

من يتحدّى سيبويه؟!

أ.فريدة بن فضة

جامعة تيزي وزو

تعد اللّغة ركنا أساسا من أركان الأمن الثقافي والحضاري والفكري للأمة في حاضرها ومستقبلها، فهي القاعدة المتينة للسيادة الوطنية والقومية وهي ليست وسيلة للتبليغ والتواصل فحسب بل هي عنوان لهذه السيادة التي تحرص عليها كل دولة من دول العا لم.

وإذا سلمنا بأنّ قضية اللّغة العربية قضية استراتيجيه تمس الأمن الثقافي والحضاري والفكري للأمة، فإنّ المسألة في عمقها وجوهرها، تتطلب يقظة أشمل وأعمق وحركة أكبر وأنشط، وعملا أكثر جدية وفعالية، من أجل أن تكون اللّغة العربية هي اللّغة التي يتعامل بها المواطن العربي مع التقنيات الحديثة بمختلف أنواعها، خصوصا وأن الحياة اليوم في حركة سريعة مع الزمن فهي لا تريد التوقف ولا ترضى بالتخلف، وهذا التطور السريع يضع اللّغة العربية أمام تحد من الطراز الأول.

وعلى هذا الأساس أخذت أقلام الكتاب تنثر حبرها هنا وهناك محاولة بذلك تشخيص الوضع الراهن لهذه اللّغة مما أدى ببعض الكتاب إلى وصم العربية بالتخلف والعجز والتقهقر والحكم عليها بالصعوبة والتعقيد.

وفي هذا الصدد أفتح بين أيديكم كتابا يبدو من عنوانه مثيرا للغاية وهو:"لتحيا اللّغة العربية: يسقط سيبويه" لمؤلفه شريف الشوباشي متبعة في دراسته وتحليله الخطوات الآتية:

أولا: تقديم الكتاب

ثانيا: تحليل مضمونه وأهم ما جاء فيه.

ثالثا: قراءة نقدية له.

أولا – تقديم الكتاب

الكتاب بعنوان "لتحيا* اللّغة العربية: يسقط سيبوبه" لصاحبه شريف الشوباشي، طبع أربع مرات، وهذه هي الطبعة الثالثة الصادرة عن ديوان الصغير للطباعة والنشر 7-10 شارع السلام أرض اللواء المهندسين مصر: 2004.

ينقسم عنوان الكتاب إلى شطرين. فالشطر الأول منه "لتحيا اللّغة العربية" الملون باللون الأصفر والذي يحمل دلالة الغيرة لإيهامنا بأنه يغار على هذه اللّغة المجيدة، ويتمنى حياتها ونموها وانتشارها ويخشى من موتها واندثارها، أمّا الشطر الثاني من العنوان "يسقط سيبوية" الملون بالأزرق والذي يحمل دلالات عدة فقد يرمز إلى التفتح وإلى السماء، وكذا البحر، وما هذا إلاّ دليل قاطع على شساعة قواعد اللّغة العربية شساعة البحر. وهذا ما جعل شريف الشوباشي يصف تلك القواعد النحوية التي أسس بنيانها سبيويه (ت 180هـ) بالتعقيد، ويدعو على سيبويه ويتمنى له السقوط، مما قد يفهم منه أن الشوباشي يريد إسقاط العربية، بإسقاط سيبويه لكونه العماد الأول لوضع القواعد النحوية.

كما أدرج شريف الشوباشي في غلاف العنوان لوحة. هي عبارة عن مخطوطة من المخطوطات العربية والتي قصدها المؤلف قصدا، وكأنّه يعرّض بالحضارة العربية الإسلامية. المعتمدة على التراث والنص القديم. فحضارتنا حضارة نص على عكس الحضارات الأخرى الأوروبية الّتي تعتمد على المادة، فهي حضارة مادية محضة. وقد يرى بعض الكتاب أنّ هذا من الأسباب التي أدت إلى تخلف العرب، أو كأنه يقول: إنّ العالم اليوم في أوج الحضارة لذلك لا يمكننا أن نعتمد على المخطوط أو نستند إليه لمسايرة العصر، واللحاق بالركب الحضاري.

وخلف الكتاب أدرج المؤلف بعض كتبه التي نذكر منها: لن تسقط اوروشليم، الداء العربي، نهاية التفكير، هل فرنسا عنصرية؟

جاء الكتاب في 239 صفحة بخط واضح متوسط، مقسم إلى عشرة فصول وهي:

برج بابل

هل هناك لغة عالمية؟

رسالة إلى حراس الضاد

هل العربية لغة مقدسة

المسيحيون والعربية

المتنبي يخاف من الإعراب

شيزوفرينيا لغوية

غاية اللغة

ضد تحنيط العربية

الاستثناء العرب

أضيفت هذه الفصول إلى مقدمتي الطبعة الثانية والثالثة. وكانت خاتمة الكتاب مجموعة من الآراء المثمنة له.

ثانيا – تحليل المضمون**

انطلاقا من مطبوعة "ألماك" التي تصدر سنويا وتحمل عدة عناوين ومواضيع من بينها أهم اللغات المتداولة في العالم، يتبين أن العربية قد فقدت حقيقة مكانتها أو منزلتها التي كانت تحظى بها في بدء طفولتها وأيام شبابها.

وتشير صفحات المجلة إلى أنّ اللّغة العربية هي أداة تفاهم بين الناس وليست أداة الدرس والعلم، وباختصار فإن المجلة تعتبر اللّغة العربية من بين اللّغات الميتة والتي لا يمكن النهوض بها[1] .

أمام هذا الواقع المرّ يرد الشوباشي على هؤلاء الذين لم يعطوا للعربية حقها. ولهذا نجده يقدم وجهة نظر جديدة تعيد للعربية روحها وحيويتها، فاللّغة اليوم لم تعد تفي بكل حاجات الإنسان. "واللّغة الفصحى التي يرمز إليها أحيانا بلغة سيبويه لم تكن في يوم من الأيام لغة تفاهم وتعامل يومي، اللهم إلاّ في فترة وجيزة جدا وفي رقعة جغرافية محدودة بالجزيرة العربية".[2]

أضف إلى هذا أننا نعيش في عصر العولمة. وأيا كان موقفنا منها فإن لها بالتأكيد آثارا سلبية على الثقافات لاسيما اللّغات.

والجديد أيضا هو وسائل الإعلام الحديثة التي أثرت في اللّغة المكتوبة، وأمام هذه التحديات الخطيرة تمر اللّغة العربية بمفترق طرق حيوي فهي:

إما أن تجدد نفسها وبالتالي تتخلى عن أصالتها وتراثها.

وإما: تتقوقع على نفسها فتواجه بالفعل خطر الزوال لحساب اللهجات كما حدث للغة اللاتينية في القرون الوسطى وهذا الاحتمال ليس بالبعيد حسب زعم الشوباشي[3].

يرى الكاتب أنّ مشكلة اللّغة العربية لا تكمن في الناطقين بها بقدر ما تكمن في اللّغة نفسها، لأنها لم تطلها سنة التطوير. ويرجع المؤلف سبب عدم امتلاك العربي ناصية لغته إلى تعقيداتها المختلفة، وأن نبوغ تلاميذ العالم الغربي وتخلف طلاب العالم العربي الذي يرجع أساسا إلى اللّغة العربية التي لا تبتعد تعقيداتها المختلفة –على حد تعبيره– عن مرتبة اللوغارتمات المنغلقة على عقول غير المختصين.

ويضيف الشوباشي أن اللّغة العربية اليوم أصبحت قيدا يكبل العقل البشري ويغل طاقاتنا الخلاقة فهي تسهم، وللأسف، في حرماننا من الانطلاق إلى الآفاق الرحبة التي يفتحها العالم الحديث بكل الوسائل المواكبة للتطور العلمي الحضاري.

إن العربية هي الوحيدة في العالم اليوم التي لم تتغير قواعدها الأساسية منذ 1500سنة، وقد يرى البعض في ذلك رسوخا واستمرارية ودليلا على رصانة اللّغة، لكن الشوباشي يرى في ذلك جمودا وتحجرا ينعكس سلبا على العقل العربي وأن الجمود في اللّغة يؤدي حتما إلى الجمود في العقل وتيبس في الذهن[4].

إن اللّغة الانجليزية شهدت تطورا مذهلا، حيث نجح الأمريكيون في غربلة هذه اللّغة وإزالة شوائبها، مما بوأها أن تحتل مرتبة الصدارة في العالم. أضف إلى ذلك سهولتها التي سهلت للعديد من الكتاب أمثال **"همنجواي"** و**"جون شتاينبك"** الإبداع في المجال الأدبي البليغ إذ لا صعوبة تذكر بين البلاغة وتعقيد اللّغة وكثرة مترادفاتها[5].

إن بساطة قواعد هذه اللغة دفعت أيضا شرائح واسعة من سكان العالم إلى تعلم هذه اللّغة فهي لا تستغرق وقتا طويلا ولا جهدا كبيرا. فاللّغة الانجليزية طيعة سهلة على عكس اللغات الأخرى الموسومة بالصعوبة والتعقيد كما هو الحال في العربية.

وفي هذا الصدد يرى الشوباشي أن لغتنا بحاجة إلى انتفاضة تحديثية عاجلة وإلا تعرضت لخطر التقوقع أو الاختفاء والضياع. ولن يفهمها آنذاك إلا العلماء المتخصصون، بل ولا يتعلمها الناس إلا لقراءة القرآن.

"إن من يرقب تطور اللّغة عندنا يشعر أنها مهددة بالضياع لحساب اللهجات، كما أن هناك نفورا واضحا متزايدا لدى الشباب من تعلم قواعد اللّغة المعقدة والتراكيب التي عفى عليها الزمان ولم تعد تفي بحاجات الإنسان الحديث في التعبير عن نفسه"[6].

ويصرح الشوباشي بأن اللّغة العربية التي أبدعت أعظم وأرقى ما كتب في تاريخ البشرية صارت اليوم عجوزا منحطة في حاجة إلى عمليات عاجلة لإحيائها، إذ لا يمكن للإنسان اليوم أن يفكر كالبدوي في القرن الخامس الميلادي والذي لا يعرف عن العالم شيئا.

ولأن اللّغة هي مرآة أمينة لتطور العقل فإن عدم تطور قواعدها يحمل دلالات خطيرة "ولو التزمنا بكلام حراس الماضي، لظلت مجتمعاتنا العربية في حالة من التخلف المرعب، ولكانت حياتنا اليوم جحيما لا يطاق ويتعارض مع المبادئ الحقيقية لديننا الحنيف الذي يدعو إلى طلب العلم ولو في الصين"[7].

فمن واجبنا إذن ألا نستمع إلى دعاوى حراس الماضي الباطلة ومحاولتهم تخويف كل من يطالب بالتغيير والتطور للحاق بما وصل إليه العالم

المتقدم، فاللّغة كائن حي وبالتالي هي بحاجة إلى التجديد والتحديث. أما من يطالب بتحنيطها وعدم المساس بها فهو يطالب بموتها" [8].

لقد كان العرب يتلاعبون بالألفاظ ويبحثون عن الغريب في الشكل أكثر منه في الجوهر وقد بلغ استظهارهم لمهاراتهم واستعراضهم لعضلاتهم اللّغوية إلى قراءة الجمل من اليمين إلى اليسار ومن اليسار إلى اليمين دون تغير في المعنى ونجد ذلك في رسائل القاضي الفاضل والعماد الأصفهاني[9].

إنّ العربية اليوم لا تلائم العصر ومقتضياته فهي عاجزة عن نقل المعلومات وتفسير حقائق العالم الذي نعيشه، وعلى هذا ظهرت اللهجات كبديل لصعوبة استخدام العربية في حيز التعامل اليومي، وصعوبتها قديمة قدم اللّغة فمن ينكر أو يجادل قول المتنبي (بسيط) :

وكلمة في طريق خفت أعربها فيهتدى لي قلم أقدر على اللحن[10]

والأمر لم يتوقف عند هذا الحد، لأنّ رفاعة الطهطاوي قد أدرك صعوبة اللّغة العربية عندما بدأ يتعلم الفرنسية خلال بعثته حيث يقول : "كان لسانهم من أشبع الألسن وأوسعها بالنسبة إلى كثرة الكلمات غير المترادفة وإلى خلوها من المحسنات البديعية الخالية منها[11].

إنّ العربية اليوم تعاني بما أسماه الشوباشي شيزوفرينيا اللغوية (الانفصام اللغوي) وهذه الظاهرة جعلت عقل العربي مرهقا وذهنه مشتتا، فنجده أحيانا يفكر بالفصحى وأحيانا أخرى بالعامية وهذا ما يزيد من بلبلة الذهن وتشتت الفكر، على عكس اللّغات الأخرى إذ نجد الأمريكي مثلا يكتفي بلغة واحدة ليصل إلى ما يريد.

فحالة الانفصام اللغوي التي يعيشها العالم العربي هي ما يعوق تطور اللغة ويعرقل ازدهارها.

لقد أثبتت المفارقات بين اللّغات أن العربية معناها يفهم من شكلها ومن علامات إعرابها وهذا من بين معضلاتها، كما أن هناك كلمات تكتب بنفس الصيغة الشكلية يؤدي في كثير من الأحيان إلى اللبس والتأويل[12]، ومن بين المشكلات التي تنفّر دارس العربية أيضا جمع المؤنث السالم وتصريف الفعل الناتج عنه، فالجمع في اللّغات الأخرى واحد سواء كان مذكرا أم مؤنثا ولماذا لا يكون هذا في العربية ؟

كما أنّ الترادف والاشتراك اللفظي يعرقلان تطور اللّغة العربية، وما هو مطلوب من اللّغة اليوم هو التعبير المباشر وليس الفذلكة والاستعراض الغريب الذي لا يخدم اللّغة.

إنّ تخلف العالم العربي–حسب زعم الشوباشي– يرجع أساسا إلى الفكر العربي القبلي المتعصب وحضارتهم اليقينية، إذ يرون أن كل اللغات يمكنها أن تتطور إلا العربية بحكم أنها لغة القرآن ولغة الكتاب المقدس.

وعلى هذا الأساس نجد الشوباشي يثور على هذه الأفكار المتحجرة إذ لا قداسة في اللّغة فتطوير اللّغة وتحديثها أمر لا بد منه كي نلحق بالركب العلمي الحضاري، ويدعو إلى ضرورة تطوير شامل للمنظومة العربية، فقد آن الأوان لإعادة النظر في مسلمات طالما آذتنا، وأوضاع ثقافية متحجرة هي السبب الحقيقي وراء تعطيل مسيرة التقدم في العالم العربي بأسره.

ثالثا– قراءة نقدية للكتاب

إن أكبر خطإ منهجي –في اعتقادي– وقع فيه شريف الشوباشي هو تحميل النحو العربي مسؤولية تردي مستوى الأداء اللغوي الذي نعاني منه، وكذا عدم مسايرة العربية لعصرها، ومن الظلم الفادح للنحو- مهما

كانت صعوبته– أن نحمله مسؤولية ضعفنا اللغوي لسبب بسيط وهو أنّ اللّغة لا تُتَعلم بالنحو وحده "فهو علم بكيفية ولا نفس الكيفية" [13] على حد تعبير ابن خلدون (ت 808 ه) فاللغة سماعية تقوم على محاكاة العبارات والنصوص السليمة الفصيحة، كما أنّها ممارسة وترويض اللسان على الأداء الجيد عن طريق الحفظ والاستظهار.

أضف إلى هذا أن علم النحو لم يقم إلا بعد أن بدأت سلائق الناس تفسد أملا في وضع ضوابط وقوانين يحتكم إليها عند المنازعة في عبارة ما بغرض تصحيحها أو تخطيئها.

إنّ النحو قانون كغيره من القوانين الجزائية التي لا تستطيع وحدها حماية المجتمع، ما لم يتوافق ذلك مع تربية أخلاقية واجتماعية، فالنحو ليس إلاّ وسيلة من وسائل عدة لتحسين الأداء اللغوي ويصرح بذلك الجاحظ فيقول: "أما النحو فلا تشغل قلبه (الصبي) إلا بقدر ما يؤديه إلى السلامة من فاحش اللحن ومن مقدار جهل العوام في كتاب إن كتبه، وشعر إن انشده وشيء إن وضعه وما زاد عن ذلك فهو مشغلة عما هو أولي"[14].

إنّ الوقوف على القوانين أو القواعد النحوية لا يكفي في عملية تعليم اللّغة وتعلمها، لأن العربية ليست نحوا وحده، وإنما هي جملة من المستويات المتلاحمة والمتكاملة عمودها الصوت، وذروتها البلاغة. فالنحو كاستعمال أولي قاعدي للغة العربية وحده لا يكفي للتمكن من ناصية اللّغة، والوقوف عند هذا الحد يجعل من العملية التعليمية ناقصة. هذا ما نحصد مرارته اليوم حتى أصبح تحليل الخطاب العربي قائما على المقياس النحوي البحت، وكأن الذي يبرع في تحليل الجملة نحويا

هو الأفصح والأدرى باللّغة، وذلك غلط. وبعبارة أوضح إن منظومتنا التربوية علمتنا كيف نحلل عناصر الجملة ولم تعلمنا كيفية استعمالها.

إن صعوبة النحو ظاهرة عالمية وليست خاصة بالعربية. وإذا قصدنا بتيسير النحو حسب ما يعتقده الشوباشي الاختصار في مجموعة من القواعد دون المس بالأصول، فلماذا لا تختصر الأزمنة المتعددة في اللّغة الفرنسية، "فالنحو كأي علم ولاسيما العلوم البحتة له صعوباته وتعقيداته وليس مما يدرك للوهلة الأولي، فالرياضيات ليست سهلة ولا الفيزياء ولا غيرها فهل صعوبة الرياضيات مدعاة لمهاجمتها وقد قدمت للبشرية ما قدمت وهل صعوبة الفيزياء مدعاة لهجرها وقد أنعمت للبشرية بما لا يحصى من المنافع"[15].

لم يفرق شريف الشوباشي بين النحو العلمي والنحو التعليمي. كتاب سيبويه نحو علمي. أما الكتب التي تلته فتفسيرية، فشارحة له هي تعليمية. والنقص من قيمة الكتاب أمر جزافي تعسفي.

قيمة هذا الكتاب هي التي جعلت العلامة ابن خلدون يشيد به فيقول: "وقد نجد بعض المهرة في صناعة الإعراب بصيرا بحال هذه الملكة وهو قليل واتفاقي وأكثر ما يقع للمخالطين لكتاب سيبويه فإنه لم يقتصر على قوانين الإعراب فقط، بل ملأ كتابه من أمثال العرب وشواهد أشعارهم وعباراتهم فكان فيه جزء صالح من تعليم هذه الملكة... وأما المخالطون لكتب المتأخرين العارية من ذلك إلاّ من القوانين النحوية مجردة عن أشعار العرب وكلامهم، فقلما يشعرون لذلك بأمر هذه الملكة أو ينتبهون لشأنها فتجدهم يحسبون أنهم قد حصلوا على رتبة في لسان العرب، وهم أبعد الناس عنهم"[16].

إن التيسير إذن في القواعد لن يعلم اللّغة بقدر ما يهدمها ويضعف من قواها فلقد أجرى الشيخ محمد البشير الإبراهيمي موازنة بين علماء السلف وبين طلابه قبل خمسين (50) سنة من الآن، فوصف أهوال الرحلة لملاقاة العلماء والتزود بالعلم ثم خطب في طلابه الحاضرين معه قائلا: "فتعالوا نقارن سيرتكم بسيرتهم وتحصيلهم ثم نتحاسب على النتيجة! كانوا يقيدون وأنتم لا تقيدون، وكانوا ينسخون الأصول بأيديهم ويضبطوها بالعرض والمقابلة حرفا حرفا، وكلمة كلمة، وأنتم أراحتكم المطابع، ويسرت لكم الكتب، ورب تيسير جلب التعسير، فإن هذا التيسير رمى العقول بالكسل والأيدي بالشلل حتى لا تجري في إصلاح الأغلاط المتفشية في تلك الكتب. وكانوا يرجعون بالرواية الواسعة والمحفوظ الغزير، وينقلون الجديد من العلم، والطريف من الآراء والمفيد من الكتب من الشرق إلى الغرب ومن الغرب إلى الشرق فانظروا بماذا ترجعون أنتم اليوم؟" [17].

إن الأمر الذي يجب أن لا يغفل عنه هو"أن العربية الفصحى ذات واقع لغوي حديث هو استمرار لواقع لغوي سابق، مع وجود أوجه اختلاف بين كلا الواقعين شأن الكائن الحي المتطور يفيد من تقدم الزمن به ومن صلاته بالآخرين" [18]، إذ استطاعت العربية اليوم أن تستقطب معظم المصطلحات العلمية والتقنية، وبفضل هذه الطاقة اللغوية الكامنة فيها، وحريتها في التوليد والاشتقاق ويكفي أن خطها تم استيعابه بثلاث محاولات فقط من قبل الآلة الالكترونية مقارنة باللغات الأخرى وذلك على حد تعبير أحد خبراء الخط[19].

يعتبر شريف الشوباشي الشكل أو العلامات الإعرابية من المعضلات الكبرى التي تعرقل تطور اللّغة، وهو اعتبار خاطئ ليس فيه شيء من اليقين،

لأن تلك العلامات أو الحركات الإعرابية هي التي تفصح عن المعاني وتكشفها وتعبر عن تغير الدلالات. ويقرر ابن يعيش (ت 643 هـ) هذا المعني موضحا أن "الإعراب هو الإبانة عن المعاني باختلاف أواخر الكلم، لتعاقب العوامل في أولها. ألا ترى أنك لو قلت ضرب زيد عمرو" بالسكون من غير إعراب لم يعلم الفاعل من المفعول. ولو اقتصر في البيان على حفظ المرتبة فيعلم الفاعل بتقدمه والمفعول بتأخره لضاق المذهب، ولم يوجد الاتساع بالتقديم والتأخير ما يوجد بوجود الإعراب"[20].

إن علامة الإعراب هو ما يكسب التركيب قيمة دلالية لا تتم إلا بوجودها. ويبين خليل عمايرة قيمة علامة الإعراب بقوله "إن الحركة الإعرابية شأنها شأن أي مقطع صوتي في الكلمة له قيمة وأثر في الإفصاح والإبانة عما في النفس من معنى، فإذا قال المتكلم مثلا: الأسد بالضمة، فإن السامع يدرك أنه قد أراد نقل الخبر ليس غيره، ولكنه إذا قال "الأسدَ" بالفتحة فإن المعنى يتغير إلى معنى التحذير الذي هو في ذهن المتكلم ويريد أن يفصح عنه "[21] وبذلك تكون علامة الإعراب عنصرا بنائيا يؤثر في التشكيل الدلالي ويؤسس على المعني.

والجدير بالملاحظة أن نظام اللّغة العربية كل متماسك يخضع علاوة على ذلك لمنطق لغوي، وعلامات الإعراب جزء هام من هذا النظام فلا يمكن بأي حال من الأحوال فصلها عنه.

وبهذا يلتقي ابن جني (ت 392 هـ) في تبيين مرونة النظام اللغوي مع النظر اللساني الحديث. يقول فندرس "فترتيب اللّغة العربية فيه مرونة من حيث الحرية في ترتيب الكلمات فتقول العربية (يضرب زيد عمرا) أو(يضرب عمرا زيد) أو(عمرا يضرب زيد) دون أن يؤدي ذلك في معرفة الفاعل والفعل والمفعول"[22] ويتأثر النظام اللغوي بوجود علامة الإعراب التي تسمح لتحولاته

الكبرى أن تحدث، دون لبس في درجات الدلالة ويستثمر المتكلم هذه العلامة في تعيين مستويات الدلالة ضمن قواعد تنتج حرية التحول داخل الدائرة النحوية. فدلالة التركيب تقام على مجموعة القرائن التي تنتظمه ضمن سياق مرن يستوعب التحولات ويعين ما يترتب عليها من تغيير على مستوى الدلالة الكلية.

ويقال إنّ العرب سموا كذلك لكثرة تحركاتهم وتنقلاتهم ومنها جاءت العربة والإعراب، فبمجرد أن أحرك وأعرب الكلمات على مستواها الشكلي أحرك في الوقت نفسه الدلالات على مستواها التركيبي.

يعتبر الشوباشي الترادف من سلبيات اللّغة التي تجعلها غير متطورة، لكن الذي أثبتته الدراسات الحديثة هو عكس ذلك، لأن ذهن الإنسان دائما ميال لاستحضار الأشياء المتشابهة في ذهنه ليسد تلك الثغرات والعثرات التي يتلقاها في طريقه، فسوسير أكد ذلك في ثنائية التركيب والاستبدال، إذ تتميز الأولي بالصفة الغيابية التي تحدث على مستوي الذهن وهنا يستحضر الإنسان تلك الأشياء المشابهة ومثال ذلك (Apprentissage, Enseignement).

وتتميز الثانية بالصفة الحضورية، وفي هذه الحالة يتم استحضار كلمة واحدة من تلك الكلمات أو المفردات المتشابهة لربطها في تركيب معين أو إدراجها ضمن سياق ما.

ولا أنسى أيضا أن الترادف يعد ثروة لغوية هامة فلا يمكننا أن ننكره أو نستأصله من الوجود اللغوي.

لقد هاجم الشوباشي القدماء بتلاعبهم بالألفاظ التي لا طائل من ورائها سوى الفذلكة والاستعراض الغريب، وهذا ليس صحيحا، وإلا فكيف نفسر تلك الأبيات الشعرية التي إذا قرأت من اليمين إلى اليسار فهي مدح، أما إذا

قرأت من اليسار إلى اليمين فهجاء! فأكيد أن المعنى هنا مقصود ولكم أن تحكموا على ذلك من خلال هذا الشاهد:

باهي المراحم، لا بس	كرما ،قدير، مسند
ياب لكل مؤمل	غنم لعمرك مرفد[23]

وبقراءتها عكسا:

دنس، مريد، قامر	كسب المحارم لا يهاب
دفر، مكر معلم	نغل مؤمل كل باب

فالمتأمل في فحوى هذه الأبيات يستشف المعاني الخفية من ورائها والمعبرة من خلال ألفاظها عن وسط يعرف بالخارج عن نطاق اللّغة.

يقول رولان بارت «Roland Barthes» إن الخطاب اللّغوي لعب، وبعبارة أخرى إن اللّغة في حد ذاتها لعب، كما أن ظاهرة التلاعب بالألفاظ ليست مقتصرة على اللّغة العربية بل نجدها في اللغات الأوروبية كالفرنسية مثلا حيث نجد الشاعر الفرنسي "Rimbaud Arthur" كثيرا ما يتلاعب بالألفاظ في شعره، ولم يمنع النقاد من اعتبار ذلك من أعلى مراتب الكلام.

إلى جانب هذا نجد ظاهرة تدعى بالفرنسية «Pelindrome»، تقرأ فيها الكلمات والتراكيب يمينا ويسارا، ويسارا ويمينا دون أن يؤدي ذلك إلى تغيير في المعنى. ومثال ذلك كلمة «Ressasser».

فبدل أن نطلق أحكاما جزافية وتعسفية على اللّغة العربية لماذا لا نرجع إلى خصائص اللغات واكتشاف أوجه التشابه والاختلاف بين اللغات واستخلاص ما هو جوهري وما هو ثانوي.

ومما لا جدال فيه أن اللّغة العربية تحتل حتى الآن مكانة مرموقة بين اللغات الأخرى باعتبارها أضخم هذه اللغات ثروة وأدقها أصواتا وأغناها في المقاطع والحروف والتعبيرات.

وصفوة القول أنّ اللّغة ليست كيانا منفصلا ينمو وحده نموا ذاتيا ويحمل مسؤولية نفسه بنفسه ولكنها ظاهرة اجتماعية ترتبط بالإنسان وتتفاعل مع كل مظاهر حياته، فالعربية لا تحتاج إلى أن نمدحها ونبالغ في إطرائها، ولكنها ظاهرة ترقى بجهود أبنائها في العلم والحضارة والإنتاج، فقيمة اللّغة تستمد في المقام الأول من قيمة أبنائها فهل نصل إلى هذا الوعي اللغوي من المعاصرة ونحن في القرن الواحد والعشرين؟ هذه هي القضية اللغوية وذلك هو التحدي الحضاري.

الهوامش

* تحيا: من حيي يحيا حياة وهو فعل معتل الأخير، وعند إدخال لام الأمر فإنه يجزم بحذف حرف العلة (لتحي)، أمّا ورود هذا اللحن فإننا نجهل أسبابه؟

** سأكتفي في تحليل محتويات هذا الكتاب بالإشارة إلى أهم الأفكار التي وردت في كل فصل، منه دون ذكر عناوين الفصول.

1. شريف الشوباشي، "لتحيا اللّغة العربية: يسقط سيبويه"، ط3. مصر: 2004، ديوان الصغير عربية للطباعة والنشر شارع السلام أرض اللواء المهندسين، ص7 (بتصرف).
2. المرجع نفسه، ص9.
3. المرجع نفسه، ص 11 (بتصرف).
4. المرجع نفسه، ص13(بتصرف).
5. المرجع نفسه، ص13(بتصرف).
6. المرجع نفسه، ص 60.
7. المرجع نفسه، ص 67-71 (بتصرف).
8. المرجع نفسه ، ص80.
9. المرجع نفسه، ص 98 (بتصرف).
10. المرجع نفسه، ص138.
11. المرجع نفسه، ص 202.
12. شريف الشوباشي،"لتحيا اللّغة العربية: يسقط سيبويه"، ص 202.
13. ابن خلدون، عبد الرحمن ابن خلدون، "المقدمة"، ط3. بيروت : 1967، مكتبة المدرسة ودار الكتاب اللبنانية للطباعة والنشر ، المجلد1، ص 1041.
14. عن: ممدوح محمد خسارة "مبادئ عامة في تيسير النحو" مجلة اللسانيات، الجزائر: 2003، العدد: 8، مركز البحوث العلمية والتقنية لترقية اللّغة العربية، ص 15.

15. المرجع نفسه، ص 14-15.

16. ابن خلدون، المقدمة، ص 1083.

17. محمد البشر الإبراهيمي، "عيون البصائر"، د.ت ، الجزائر: د .ت الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، ج 2، ص 217.

18. هنري فليش اليسوعي، تح: عبد الصبور شاهين، د.ت "العربية الفصحى نحو بناء لغوى جديد"، بيروت: 1966، المكتبة الكاثوليكية، ص10.

19. ينظر: أحمد بن نعمان، "التعريب بين المبدإ والتطبيق"، ط 2. الجزائر: 1998، شركة دار الأمة للطباعة والنشر والتوزيع، ص 125 (بتصرف).

20. ابن يعيش، "شرح المفصل للزمخشري"، ط 1. بيروت: ، دار الكتب العلمية، ج 1، ص192.

21. عبد الله عنبر "علامة الإعراب مقاربة بنائية بين تحولات المعنى وتشكيل النص"، مجلة الدراسات، الأردن:1998، العدد:1، المجلد 25، عمادة البحث العلمي، ص 43.

22. المرجع نفسه، ص41-42.

23. رفاييل نخلة اليسوعي، "غرائب اللغة العربية"، ط :2. بيروت، لبنان: 1960،المطبعة الكاثوليكية، ص113-114.

بيضاء

اللسانيات وتطبيقاتها بين العلم والأدب
- الواقع والطموح -
في حوار مع الباحث الدكتور مازن الوعر

حاورته نجاح حلاّس

توطئة

يعد علم اللسانيات من العلوم الحديثة والمهمة التي تبحث في اللغات البشرية بأصواتها وتراكيبها ودلالاتها، وتدرسها دراسة صوتية ونحوية ودلالية، ومعجمية، وصرفية صارمة، كما تدرس علاقتها بالعلوم المعرفية الأخرى كعلم الاجتماع، وعلم النفس، وعلم الانثروبولوجيا وعلم البيولوجيا، والفلسفة، والجغرافية، والرياضيات والهندسة... الخ. ولإلقاء الضوء على علم اللسانيات آثرنا أن نلتقي الباحث الدكتور مازن الوعر أستاذ اللسانيات والدراسات العربية الأجنبية في جامعة دمشق وأجرينا معه الحوار التالي في مركز الدراسات والبحوث اللغوية الحديثة الذي يشرف عليه.

النشأة والبداية

عندما ألتقي باحثاً أو مبدعاً في أي جنس أدبي أحاول أن أتغلغل قليلاً في أعماق حياته، وأن أتعرف نشأته، لأرسم صورة عن طفولته، وعن مدارج الصبا، وكيف نمت تلك الموهبة لتشكل البنية الفكرية عنده... فماذا عن نشأة الباحث الدكتور مازن الوعر؟

نشأت في بيئة فقيرة ومتواضعة، وعشت طفولة لم تكن طبيعية... كنت أعمل في الصيف وأدرس في الشتاء، وبكلمة مختصرة كانت طفولتي شقية ومترعة بالعذابات والحرمان والمرارة. أبي وأمي كانا أميين، وقد عانا من الفقر الكثير. وقد توفي الوالد وكان عمري ثلاث سنوات فأرادت أمي أن تدخلني مدرسة داخلية، ودخلت المدرسة الابتدائية في الميتم الإسلامي التي كان لها الفضل الأول عليّ... وفي ظل نظام مدرسي دقيق ومنضبط وصارم تشكلت شخصيتي وكان همي الأول الدراسة الجدية ... بعد ذلك انتقلت إلى مدرسة الحسن بن الهيثم الإعدادية ثم ثانوية عبد الحميد الزهراوي والفارابي التي حصلت على شهادتها بعلامات ممتازة وفرت لي منحة إلى روسيا لدراسة الإخراج السينمائي ولكنني فضلت أن ألج أبواب جامعة دمشق لأدرس الأدب الإنكليزي ، إلاّ أنه و لظروف معينة انتقلت لدراسة الأدب العربي وفي المراحل الأولى من الدراسة الجامعية بدأت الكتابة في جريدة العروبة حول الأدب ودراسته ونقده، ومن أهم الدراسات التي نشرتها آنذاك (أوروبة الثانية) و(نحو معرفة جديدة في الدراسة الأدبية) و(أبو حيّان التوحيدي) و(ودراسة تحليلية لقصيدة الشاعر بشار بن برد)، إضافة إلى

وتطبيقاتها...

دراسات أخرى. ومازلت حتى الآن أتابع النشر في هذه الجريدة التي تهتم بالأدب والدراسات الأدبية والنقدية.

اختيار اللسانيات كاختصاص

لماذا اخترت دراسة اللسانيات تحديداً وأين كانت دراستك الأكاديمية؟

عندما كنت طالباً في جامعة دمشق شغفت كثيراً بالدراسات النقدية والأدبية وتفوقت بها، و أتذكر أنّ رئيس القسم الدكتور حسام الخطيب كان يدعو كل سنة عالماً من علماء العربية ليلقي محاضرات على طلاب الدراسات العليا، وقد لفت نظري هذا الاختصاص الذي اسمه اللسانيات من باحث عربي جزائري يُعدّ أباً للسانيات في الوطن العربي، فهو حاصل على دكتوراه دولة في اللسانيات من فرنسا ودكتوراه في اللغة العربية من جامعة الأزهر فامتزجت الثقافتان
في بوتقة واحدة وجاء يومها ليعطينا هذا المزيج من الثقافتين وقد كان اهتمامه منصباً على جهود عالم اللسانيات تشومسكي مما حفزني لمتابعة هذا الاختصاص"اللسانيات".وهنا أذكر جميلاً كبيراً للقائد التاريخي الراحل حافظ الأسد الذي أتاح لي ولكل أبناء الفقراء الفرصة للدراسة في الجامعات والالتحاق بالبعثات العلمية، وبهذا غيّر مجرى حياة الكثيرين منا ممن عشقوا العلم وتفانوا في الحصول عليه. وقد استفدت من منحة أمريكية مقدمة من جامعة جورج تاون ضمن برنامج التبادل الثقافي للطلاب المتفوقين في العالم لدراسة اللسانيات.

المصطلح

ثمة خلاف حول التسمية فهل نقول "اللسانيات" أو "الألسنية" أو "الدراسات اللغوية الحديثة" وبأي شكل استقر المصطلح أخيراً ؟

الخلاف حول التسمية "اللسانيات" هو خلاف ناتج عن فوضى المصطلح العلمي العربي ومنه مصطلح اللسانيات ولكن بعد تجربة ثلاثين عاماً استقر المصطلح حول "اللسانيات" مع أنّ آخر معقل كان يستخدم مصطلح "علم اللغة" وأقصد بهذا المعقل مصر بدأ يستخدم مصطلح "اللسانيات".

اللسانيات: تعريفاً وموضوعاً وهدفاً

في أي المجالات يبحث علم اللسانيات وما الموضوعات التي يتناولها والأهداف التي يسعى إليها ؟

بادئ ذي بدء اللسانيات هي الدراسة العلمية الصارمة للغات البشرية من خلال استخدام المعايير والمقاييس الموجودة في العلوم الطبيعية ومنها وضع الفرضية... استخدام النموذج الرياضي... وضع المنهج واختياره... وضع النظرية المتعددة المناهج ... الدقة والشمولية والموضوعية ... الخ. حتى أصبحت هذه المقاييس المستخدمة في العلوم الطبيعية جزءاً لا يتجزأ من علم اللسانيات.

أما الموضوعات التي يبحثها فهي اللغات البشرية بأصواتها وتراكيبها ودلالاتها وبدل أن تبحث اللسانيات في المختلفات في اللغات البشرية كما فعلت الدراسات الماضية أصبحت تركز على المؤتلفات أو الكليات من أجل الوصول إلى صيغة صوتية ونحوية ودلالية يمكن برمجتها وفق

وتطبيقاتها...

برنامج معلوماتي معين وإدخالها الحوسبة اللغوية

من أجل أن تخدم أهدافاً أخرى مثل الترجمات الآلية ،والإحصاء اللغوي، والبحث اللغوي الدقيق والسريع. إنّ امتزاج اللسانيات بالعلوم الأخرى ولّد علوماً فرعية منها:

ـ اللسانيات التطبيقية (علاقة اللغة بتعليم اللغات القومية والأجنبية).

ـ اللسانيات والتخطيط اللغوي (المحلي والقومي والإقليمي والدولي).

ـ اللسانيات البيولوجية (تطوراللغة في الدماغ ـاكتساب اللغةـ الأمراض اللغوية...)

ـ اللسانيات الرياضية والحاسوبية والمعلوماتية(وضع اللغات في صيغ رياضيـ برمجتها في الحاسوب).

ـ اللسانيات الاجتماعية والأنثروبولوجية (علاقة اللغة بالمجتمع والأجناس).

ـ اللسانيات الأدبية (علاقة اللغة بالأدبـ الأسلوبية ـ تحليل الخطاب الشعري والروائي والقصصي والمسرحي)... الخ.

ـ اللسانيات والترجمة (الإنسانية ـ الآلية).

أما هدف اللسانيات فهو بسيط جداً كان قد عبّر عنه الجاحظ في كتابه "البيان والتبيين" إذا قال : إنّ الهدف هو"معرفة سر آلة اللغة" أي كيف تعمل اللغة وبعبارة:" تشومسكي" الأمريكي هو معرفة "المعرفة اللغوية الموجودة في الدماغ البشري" وعلاقتها بالمعارف الأخرى الموجودة أيضاً في الدماغ وهنا يريد تشومسكي أن يقول هل اللغة عضو بيولوجي كبقية الأعضاء البيولوجية في الإنسان

أم أنها موضوع خارجي يتلقفه الإنسان من المجتمع... ويقول إن كل طفل عنده جهاز بيولوجي عبارة عن صفحة بيضاء مهيأة لتلقف النظام

اللغوي.... فاللغة ليست شيئاً خارجياً عند الإنسان والدليل على ذلك أنّ أذكى الأطفال وأغباهم يتعلم اللغة بمجرد أن يصبح في الرابعة من عمره.

اللسانيات والأدب

ما مدى الاستفادة من علم اللسانيات في مجالي الأدب والنقد؟

النظريات والمناهج النقدية والأدبية كانت تخضع للمقاييس الإنسانية والفلسفية. لكن عندما جاءت اللسانيات بهذه المنهجية العلمية الموضوعية الصارمة فقد تمت الاستفادة من نتائج هذا العلم واستثمر استثماراً كبيراً في مجال النقد والأدب، والدليل على ذلك أنّ مفهوم الأدب قد تغيرّ فنحن لا نعرف عن الأدب إلاّ هذا الذي يمكن أن يكون مكتوباً،ولا يمكننا تصنيفه إلاّ ضمن الأجناس الأدبية المعروفة ... أما اللسانيات فإنها تقول إنّ الأدب يمكن أن يكون منطوقاً أو مكتوباً، وتقول أيضاً إنّ هناك نصوصاً أدبية تأتي من التراث الشفهي المنقول. فالحكاية الشعبية هي "نص" والزجل هو نص بل إنّ حديثاً بين أصدقاء هو نص . إنّ النصوص المكتوبة مثل النص الشرعي والقانوني والطبي والديني والسياسي تُحلل لسانيًا كما يُحلل "الأدب" بمفهومه المتداول. وبعبارة أخرى إنّ أي نص منطوق، أو مكتوب يخضع للدراسة اللسانية الصارمة ، ونقصد بالصارمة أنّ هناك مثلاً منهجاً اسمه "منهج الإحصاء اللغوي" ومهمته دراسة النص سواء أكان منطوقاً أم مكتوباً ومعرفة نسبة الجملة الفعلية إلى الجملة الاسمية، ونسبة الفعل إلى الاسم ونسبة الاسم إلى الصفة ونسبة تداخل الجمل فيما بينها وكثافة هذا التداخل وكل هذا سوف يعزز نتائج ضرورية للناقد للحكم على العمل الإبداعي. مثلاً هناك ما يسمى بالمنهج الأسلوبي الجغرافي "جغرافية المكان" الذي يضيف إلى

التحليل اللساني للنصوص بعداً آخر لم يكن في السابق. ويمثل هذا الاتجاه الباحث العربي سعد مصلوح في كتابه "في البلاغة العربية والأسلوبيات اللسانية آفاق جديدة". والخلاصة أنّ هناك مناهج لسانية جديدة لتحليل الأدب وغير الأدب يمكن من خلالها أن ننصف الكاتب المبدع ونقومه بما يستحق. و يمكن تلخيص هذه الأمور بما يلي:

بدأ التحليل اللساني مع "بلومفيلد" الأمريكي في كتابه "اللغة" عام1933 بتحليل الكلمة والصوت وما أشبه ذلك ، وفي عام 1957 عندما جاء تشومسكي بدأ التحليل بالجملة وعدّها أكبر وحدة لسانية في النص، وفي عام 1970 انشقّ فريق عن تشومسكي وبدأ بتحليل اللغة اجتماعياً... أي تحليل اللغة ضمن بوتقتها الاجتماعية، وقد طور هذا الفريق نفسه عن طريق تحليل الخطاب المنطوق والخطاب المكتوب... وبعد ذلك جاءت الأمريكية "ديبورا تانن" وربطت المنطوق والمكتوب بالتراث الثقافي... إذ لا يمكننا تحليل أي نص دون الرجوع إلى الثقافة التي نشأ فيها. وهذا ما تلقفه عبدالله الغذامي وكتبه في كتاب سماه "النقد الثقافي" الذي هو ليس إلاّ ترجمة لأفكار" تانن" وهذا ما ولد علماً اسمه "تحليل الخطاب".

بلاغة الخطاب وعلم النص

بمناسبة تناول "علم تحليل الخطاب" فإنّ هناك كتاباً للدكتور صلاح فضل حول "بلاغة الخطاب وعلم النص" وما ذكرته سابقاً يعكس فوضى المصطلح النقدي وإشكالية تداخل المعرفة... وأذكر أنك تناولت هذا الموضوع في الندوة العلمية حول "صوغ المصطلح العلمي وتوحيده" التي أقامها مجمع اللغة العربية في طرابلس الغرب ما

بين 22 و24 تشرين الأول 2007. حبذا لو تعطينا بعض التفصيلات في هذا الشأن؟

يبقى السر الكامن من خلف أي عمل علمي، استطاعته اكتشاف ما لم يستطع الآخرون اكتشافه، وذلك من خلال مصطلحات علمية ثابتة ومدلولات دقيقة وواضحة لتلك المصطلحات . وبذلك يتم تحريك الحياة العقلية لتكون أكثر حركية لدراسة الظاهرة الفيزيائية التي تحيط بالكون والإنسان. من هذا المنظور النقدي الموضوعي فإنّ الدراسة تعرض لإشكالية تداخل المعارف وفوضى المصطلح العربي من خلال كتاب "بلاغة الخطاب وعلم النص" لصلاح فضل منطلقة من البعد الفلسفي الآني (التزامني) في دراسة الظاهرة..

وقد توصلت الدراسة إلى نتيجة خطيرة وهي أنّ أغلب الباحثين العرب يخلطون بين شيئين:

الأول: عدم ثبوتية المصطلح الذي ظلّ يتأرجح بين الترجمة أو التعريب أو النقل الحرفي عن المصطلح الأجنبي ، الأمر الذي يخل بالمنهج أولاً وبالنتائج التي يريد الباحث التوصل إليها ثانياً.

الثاني: عدم وضوح المعرفة التي يدرسونها، فهم يخلطونها بمعارف عدة ، الأمر الذي يؤدي إلى الغموض في دراسة الظاهرة ... وكتاب "بلاغة الخطاب وعلم النص" شاهد على هاتين الإشكاليتين.

اللسانيات والشعر

هل قدّم علم اللسانيات خدمة للشعر على اعتبار أنّ الشعر يمثل لحظة توهج حقيقية عند الشاعر؟ وما رأيك، باختصار، بالحركة الشعرية العربية الحديثة ؟

ما قلناه حول النص المنطوق والمكتوب يقع ضمن إطاره الشعر ذلك أنّ الشاعر عندما تأتيه لحظة الوهج فلا بدّ أن تنقلب إلى كتابة... وهذه الكتابة ليست مجانية بل كتابة مقدّرة. لذلك فإنّ اللسانيات عندما تتناول النص الشعري فإنها تبين الخصائص الموضوعية التي يتميز بها هذا النص. ولكي أكون واضحاً في هذه المسألة سأعطي مثالاً على ذلك: هو قول الشاعر كُثيّر عزة :

ولما قضينا من منىً كل حاجة ومسَّح بالأركان من هو ماسح
أخذنا بأطراف الأحاديث بيننا وسالت بأعناق المطيّ الأباطح

لاحظي هنا أنّ اللسانيات تأخذ بشيء اسمه:"جغرافية المكان والزمان" الذي يشع دلالات محفورة في ذاكرة الإنسان العربي غير الدلالات التي تولدها الكلمات والجمل التي أتى بها الشاعر.

جغرافية المكان والزمان هي الآن من مباحث اللسانيات في الأدب.

وبكلمة أخرى إنّ شاعرية هذه الأبيات تأتي من جغرافية المكان والزمان المشعة بالدلالات المحفورة في ذاكرة الإنسان العربي. أي لما فرغنا من الحج ركبنا الطريق راجعين وتحدثنا على ظهور الإبل كما يقول ابن جني في خصائصه(ج ،ص 218). فهنا لا بدّ من نظرة ثاقبة لإدراك أسرار المعاني ومعاقد الأغراض وربما تأتي اللسانيات الأدبية بمناهجها المختلفة لتكشف ذلك.

ومثال آخر على ذلك هو أن العرب كانوا يمجدون ما يسمى بالرمح الرُديني ودليلنا على ذلك قول الشاعر مالك بن الريب:

تذكرت من يبكي عليّ فلم أجد   سوى السيف والرمح الرديني باكيا

ولكن بعد أربعمائة سنة نرى أنّ المتنبي غيّر القيمة الدلالية للرمح الرديني عندما مدح سيف الدولة بقوله:

حقرت الردينيات حتى طرحتها   فكأن السيف للرمح شاتم

الحقيقة هي أنّ التناص يأخذ بعداً آخر هنا. إنه تناص شعري بين لحظة تاريخية لها منظومتها الثقافية ولحظة معاصرة للمتنبي لها منظومتها الثقافية المختلفة. ويمكن أن نسمي هذا النوع من التناص بـ التناص المتطور".

يتقدم السيف على الرمح... لأنه أقصر من الرمح وفي هذا دلالة على شجاعة سيف الدولة. حتى إن الشجاعة نفسها قد تغير مفهومها. فهي عند المتنبي حالة معينة تجاوزها سيف الدولة إلى ما بعد الشجاعة:

تجاوزت مقدار الشجاعة والنهى   إلى قول قوم أنت بالغيب عالم

وآخر مثال عن جغرافية المكان هو ذلك التعالق والتناص مابين قصة الشاعر نسيب عريضة التي حملت عنوان "قصة ديك الجن الحمصي ... حكاية غرام شاعر عربي قديم"وقصة "الأثر" لدريد يحيى الخواجة في مجموعته "وحوش الغابة". فالتناص واضح بين الكاتبين في وصف الطبيعة... طبيعة العاصي وطريق الخراب وزقزقات العصافير وصوت خرير المياه والشمس الساطعة، إنه تناص في المكان والزمان... أتى من شاعرية مبدعة سكبت شيئاً في وصف جغرافية الدوير والعاصي والشجر والمياه والسماء الزرقاء وأشعة الشمس. وأتى أيضاً من مبدع قصصي يتميز بحرفة متناهية فيما يسميه اللسانيون بـ "التفصيلية" و"التخييلية". هذا التناص يمكن أن نسميه بـ"التناص الشعري ـ القصصي".

وتطبيقاتها...

فاللسانيات عندما تتناول الشعر والقصة والرواية فإنها تنصف الكاتب بدقة متناهية وتعلمه في الوقت نفسه تقنيات الكتابة واستراتيجياتها صوتياً ونحوياً ودلالياً.

وفيما يتعلق بالشق الثاني من السؤال حول الحركة الشعرية المعاصرة، نستطيع أن نقول هناك قصائد تتفاوت في قيمتها الإبداعية بين شاعر وآخر ولكن الخط العام للحركة الشعرية المعاصرة لا يشجع المتلقي لقراءة مثل هذه القصائد . لذلك أتمنى على الشعراء المعاصرين الاستفادة ما أمكن من العلوم المعرفية المتنوعة ومنها اللسانيات كي يسكبوا وهجهم الشعري في لغة متماسكة وجذابة وجميلة تشدّ القارئ وتنقله إلى عالمهم.

استفادة الأدب من اللسانيات

هناك مقولة متكررة تؤكد أنّ الأدب العربي عامة، والأدب في سورية خاصة لم يستفد كثيراً من تطبيقات اللسانيات... فهل تؤيد صحة هذا الطرح ؟

نعم أنا أؤيد صحة هذا الطرح ذلك لأنّ الأدب العربي عامة، والأدب في سورية خاصة لم يستفد كثيراً من تقنيات اللسانيات، والسبب في ذلك بسيط جداً وهو أنّ اللسانيات كعلم لها فروع كثيرة جداً، ومنها اللسانيات الأدبية التي لم توضع في مكانها الصحيح في الوطن العربي وفي سورية بالتحديد، ذلك أنّ الذين يفهمون اللسانيات أقلاء جداً، والذين يطبقون اللسانيات الأدبية على الأجناس الأدبية وغيرها أقلاء في الوطن العربي، بل يعدون على الأصابع ومنهم الباحث سعد مصلوح من مصر، والباحث عبد السلام المسدي من تونس... ثمّ إنّ هناك صعوبة

في تطبيق اللسانيات الأدبية على الأدب العربي تتمثل في أنّ المترجمين الذين يترجمون المناهج النقدية اللسانية غير مطلعين على المناهج النقدية اللسانية الحديثة، ثم إنّ تطبيقاتهم تكتنفها إشكالية تداخل المعارف، وإشكالية فوضى المصطلح اللساني العربي... يضاف إلى ذلك عدم وجود تعاون جماعي بين الأدباء والشعراء والروائيين والقاصيّن وبين المختصين باللسانيات الأدبية.

ولا أخفيك سراً أن أقول إنّ تطبيق اللسانيات الصارمة على اللغة العربية إنما هو قليل جداً واقصد بالتطبيقات النحوية والصوتية والدلالية والمعجمية والحاسوبية والاجتماعية والبيولوجية والانثروبولوجية والتقنية ...الخ. فما بالك من تطبيقات اللسانيات الأدبية على الأدب؟! وبكلمة أخرى هناك مهتمون باللسانيات وهم كثر وهناك أخصائيون باللسانيات وهم قلة.

إلاّ أنّ هناك بعض التطبيقات التي ظهرت مؤخراً في دراسات بعض الباحثين ولاسيما عند الباحث سعد مصلوح الذي استخدم المنهج الأسلوبي وقارنه مع المنهج البلاغي عند العرب ليخرج بآفاق جديدة ويطبقها على بعض الأجناس الأدبية من خلال كتابه "البلاغة العربية والأسلوبيات: نحو آفاق جديدة". وأذكر في هذا المجال أيضاً الدراسة الجادة التي طرحها الباحث عبد السلام المسدي في كتابه "السياسة وسلطة اللغة" مستفيداً من تطور البلاغة الغربية لتصبح في إطار الأسلوبيات ومن تطور الأسلوبيات لتصبح في إطار علم جديد هو علم تحليل الخطاب. وبكل تواضع أقول لي بعض الدراسات التي استفدت فيها من اللسانيات الأدبية وطبقتها على أجناس أدبية مختلفة مستخدماً المنهج الإحصائي والرياضي والأسلوبي منها "مقاييس تعقد الأسلوب: رواية" "قارب الزمن الثقيل أنموذجاً" . فقد درست هذه الرواية لعبد النبي حجازي دراسة تحليلية خطابية من وجهة

وتطبيقاتها...

نظر رياضية تنبئ بتداخل الجمل فيما بينها (طولها- قصرها- كثافتها- عمق التداخل... الخ) واستخدمت أيضاً منهج عالم اللسانيات الأمريكي "وولتركوك" الذي طبقه على رواية "العجوز والبحر" لآرنست همنغواي. وهناك أيضا دراسة بعنوان "اللسانيات وتحليل الخطاب السياسي" تناولت فيها بعض النصوص الخطابية للرئيس الراحل حافظ الأسد التي أفرزت نتائج جيدة في علم تحليل الخطاب. كما قمت بدراسة حول البنية القصصية عند القاص **دريد يحيى الخواجة** تناولت فيها مجموعته القصصية **"وحوش الغابة"** وقد طبقت علم تحليل الخطاب على هذه القصص التي خرجت منها بنتائج باهرة.

الطموح نحو المستقبل

هل لديك منجزات راهنة لم تنشر في مجال اللسانيات وتطبيقاتها ؟

نعم هناك منجزات لم تنشر بعد وهي قيد الدرس والبحث منها مثلاً: مشروع كتاب حول "اللسانيات وتحليل الخطاب المنطوق والمكتوب" ومنها أيضاً مشروع كتاب "التفكير اللغوي عند الجغرافيين والرحالة العرب في ضوء اللسانيات الجغرافية المعاصرة"، وهناك مشروع لكتاب آخر يدور حول "التفكير اللغوي عند الموسيقيين والملحنين العرب في ضوء الصوتيات المعاصرة". أما المشروع الأخير فهو يدور حول التفكير اللغوي عند الفلاسفة العرب في ضوء العلاقة القائمة بين اللسانيات والمنطق في العصر الحديث.

اللسانيات والسياسة

للسانيات دور مهم في الجانب السياسي مثّله الرائد اللساني تشومسكي... فهل تعتقد بعمق تأثير هذا الدور في المعرفة البشرية واتجاهاتها في الوقت الحاضر،وهل لدينا في الوطن العربي من قام بهذا الدور؟

إذا كان هناك كما قال تشومسكي علاقة بين اللسانيات والسياسة فهي تتجلى في المستوى التجريدي تقريباً إنّ المعرفة اللسانية الخاصة والمتعلقة باللغة ليس لها أي تأثير على المسائل السياسية والاجتماعية، فكل شئ مثلاً كتبه اللساني والسياسي تشومسكي حول الموضوعات السياسية والاجتماعية كان يمكن أن يكتبه شخص آخر. فليس هناك ارتباط مباشر بين النشاط السياسي والنشاط اللساني على الرغم من أنّ اللغة إلى حد ما ربما تقتبس من افتراضات ومواقف فيما يخص الملامح الأساسية للطبيعة الإنسانية... ويبدو لي أنّ التحليل النقدي في الساحة الإيديولوجية مسألة عادلة عند مقارنته بتحليل يتطلب درجة من التجريد الفكري بشكل عام.

السيميائية وحضورها في النقد

السيميائية فرع من إنتاج اللسانيات هل تذكر لنا بعض الإنجازات العربية التطبيقية في هذا المجال، وهل كان للسيميائية حضور في النقد العربي القديم ؟

سأحاول أن أقلب الصورة التي تتحدثين عنها... بعض الباحثين القدامى في الغرب؟ أمثال فرديناند دي سوسو يعد اللسانيات فرعاً من علم كبير اسمه "السيميائية". ولكن بعد تطور علم اللسانيات وعلاقته مع العلوم الأخرى، وبعد أن أصبح علماً قائماً بذاته يتميز بالاستقلالية

وتطبيقاتها...

عن العلوم الأخرى، وبالعلمية الصارمة أيضاً لم يعد الحديث عن اللسانيات على أنها فرع من السيميائية.

ومن الكتب المهمة التي طبقت المنهج السيميائي هو كتاب: "تخامر الواقع والحلم في القصة القصيرة العربية".

وبالمناسبة فإنّ الباحث دريد الخواجة له دراسات مهمة في تطبيق المنهج البنيوي التكويني كما أشار إلى ذلك مؤخراً الباحث نذير العظمة.

أما حول الإنجازات العربية التطبيقية في هذا المجال فنستطيع أن نقول بأنّ هناك دراسات عربية تطبيقية في هذا المجال استفادت من علم السيميائية وطبقته على أجناس أدبية كثيرة ولا سيما المسرح... وهذا يذكرنا بالنقد العربي القديم، إذ كان للسيميائية حضور متميز فيه ولاسيما عند ابن جني في كتابه "الخصائص" وكتابه "الفسر".

بيضاء

التعريب اللفظي وجماليات النظام الصوتي العربي
"المعرّبات القرآنية أنموذجا"

د. ممدوح محمد خسارة

سورية

1- جمالية الكلمة العربية

الجمال هو الحسن، وهو من مدركات حاسة البصر أصلا، ولكن دلالة هذه الكلمة تطورت كنظيراتها من مدركات الحواس الأخرى، فكما أن الحلاوة والملاحة هي أصلا من مدركات إحساس الذوق، وتطورت إلى مدركات البصر، كذلك تطورت دلالة الجمال من مدرك البصر في قولنا "منظر جميل وامرأة جميلة"، إلى مدرك إحساس السمع في قولنا (لحن جميل) وتجاوزت إدراك الحواس إلى إدراك العقل في قولنا (صبر جميل، وعرفان الجميل)، وعلى هذا فقد صار الجمال جمالات.

وبالنظر لتوسع دلالة كلمة (الجمال) وتمددها، بعد أن صارت من أكثر الكلمات المعاصرة تداولا وشيوعا، فقد صار أنسب ما تعرف به هو أنه (كل مبهج ومرغوب فيه)[1].

فلا غرابة – والحال هذه – أن يقال جمال اللغة، الذي يتشعب الحديث فيه إلى جمال التركيب والنظم، وجمال الكلمة المفردة موضوع بحثنا.

وإذا كان الذين يتحدثون عن جمال التركيب يعتمدون على جماليات النظم والأساليب، فإننا عندما نتحدث عن جمال الكلمة نعتمد على جماليات نظامنا الصوتي العربي، لأن الكلمة هي وحدة هذا النظام "فهي مجموعة من الوحدات الصوتية المؤلفة بطريقة معينة لكي ترمز إلى الأشياء الحسية أو الأفكار المجردة"[2].

قد يعترض علينا بأن الكلمة المفردة لا يمكن الحكم عليها بالجمال، لأنها متأثرة سلبا وإيجابا بنسق التركيب الذي هي جزء منه، بل أنكر بعض العلماء القدماء وعلى رأسهم الجرجاني (471 هـ) أن يكون للكلمة المفردة جمال إلا في سياق النظم، فالكلمة المفردة عنده من حيث هي لفظة لا وزن لها ولا قيمة في فصاحة أو بيان[3]. وتابعه على ذلك أحد المحدثين[4] الذي ينقل عبارة ابن منظور في اللسان "بأن الكلمة الواحدة لا تشجي ولا تحزن ولا تتملك قلب السامع".

أما ما نذهب إليه فهو أن الكلمة المفردة تستمد جماليتها من ذاتها المفردة أولا ثم يأتي التركيب أو النظم الذي قد يزيد جمالها أو ينقصه، فثمة جمال للكلمة المفردة أو اللفظة حتى ولو لم تدخل التركيب، ورائدنا في هذه المقولة ابن سنان الخفاجي (466هـ) صاحب كتاب (سر الفصاحة) الذي يؤكد أن للكلمة المفردة جمالا ينبع من مجموعة شروط يحددها بدقة[5] وتابعه على ذلك باحثون معاصرون أفاضل منهم د. منير سلطان الذي يتبنى آراء الخفاجي ويدافع عنها ولعل هذا ما كان يرمي إليه ميخائيل نعيمة في قوله: "إن لمفردات اللغة التي نصوغ منها منثوراتنا ومنظوماتنا صفات عجيبة وميزات غريبة، فلكل كلمة معنى أو روح، ولكل كلمة رنّة، ولكل كلمة صبغة أو لون"[6].

إننا نؤكد أن للكلمة المفردة جمالا بذاتها ولا حاجة لانتظار نظمها حتى نحكم على جماليتها ولنأخذ أمثلة من أزواج من الكلمات متحدة المعنى مختلفة الأصوات:

أيها أجمل: منبسط أم مسحنطر
حسناء أم مرودكة
ناعمة أم برخداة
سراب أم خيتصور
رهام أم شجذة

أبعد من ذلك، فثمة مفردات قاسية الدلالة، ولكنها من أ شيع المفردات في الشعر والنثر لا لشيء إلا لجمالها الصوتي أو جرسها الموسيقى على حد عبارة البلاغيين والنقاد، مثال ذلك كلمة (الصبّا) وهي الريح الشرقية، وهي ريح باردة جدا شتاء وحارة جدا صيفا، وليس من الواقعية وحسن الدلالة في شيء أن يقال (سلام أرق من الصبا) فالصبا ليست رقيقة، بل هي أقصى ما يكون من الريح على الإنسان ومع ذلك فما أكثر تواردها في النظم والنثر! ومن بين أسماء مئات النجوم في العربية لم يشع ألا نحو ثلاثة أسماء هي السهى وسهيل والثريا في حين لم يستعمل واحد منهم (الشجج) وهو اسم النجم عندهم، ولا تغيب الجمالية الصوتية عن أذن سامع العربية في سهيل والسهى وفي هذين الحرفين المهموسين، في حين لا يفيد الثقل والسر في تتابع الحرفين الشجريين متقاربي المخرج في (الشجج).

2- جمال الكلمة وفصاحتها

لابد من الإشارة إلى العلاقة بين فصاحة الكلمة وجمالها، ذلك أن بعضهم يقرن الجمال بالفصاحة، وهي علاقة قائمة ولكنها ليست مطلقة، ذلك أن بين الجمال والفصاحة عموما وخصوصا كما يقول المناطقة، الجمال أعمّ من الفصاحة، والأخيرة متضمنة منه، يجمع بينهما (الحسن في اللفظ أو الصوت)، ويفرق بينهما أن فصاحة الكلمة مرتبطة بعصر الاحتجاج وبالسلامة اللغوية في حين أن جمال الكلمة يتأثر بعصر دون عصر، ولا يكتفي بالسلامة اللغوية التي هي شرط لازم ولكنه غير كاف، الفصاحة ذات صلة بالجمال حتما إذ يجدها البلاغيون بأنها "خلو الكلمة من تنافر الحروف والغرابة ومخالفة القياس"[7] وعدم التنافر يعني الانسجام والتناسق، وهو يلتقي بهذا مع الجمال الذي من أظهر معانيه تناسق التكوين، ولكن الجمال لا يلتقي مع الفصاحة في اشتراط عدم الغرابة أي عدم الإبهام في المعنى، فقد تكون الكلمة غريبة مبهمة الدلالة ولكنها جميلة، هل هناك كلمة أكثر إبهاما من كلمة (ممن) التي نسمي لها. ونستجملها، مع أنها من أكثر الكلمات إبهاما من حيث الدلالة فهي تعني: الطويل والقصير والقليل والكثير والهين واليسير والإقرار بالذل، والجحود والكفر للنعم والماء الظليل.

إننا نرى أن مردّ الجمال من كل ما هو جميل من المفردات العربية هو انسجامها مع ما أسميه بالنظام الصوتي العربي، فالكلمة تستمد جماليتها من جمالية ذلك النظام.

3- جمالية النظام الصوتي العربي

قلنا أن الكلمة العربية تستمد جماليتها من جمالية النظام الصوتي العربي القائم على مجموعة من الأسس، مدارها على السهولة في النطق والخفة على السمع.

1. عدد أحرف الكلمة العربية

من أبرز عناصر الجمال في الكلمة العربية قلة عدد أحرفها، لأنها أسرع في النطق وأخف على السمع، فالكلمة العربية على ثلاثة أحرف أصلية أو أربعة أو خمسة، وتبلغ بالزيادة سبعة أحرف ما عدا ملحقاتها من التعريف أو أحرف النسبة أو التأنيث وقلة عدد الأحرف في الكلمة مجلبة للخفة والسهولة في النطق أو ما يسمى بالاقتصاد اللغوي بخلاف كثرة الأحرف التي هي مدعاة للثقل والصعوبة إن في النطق أو في السمع[8].

وبسبب من هذا كانت الجذور الثلاثية في العربية نحو أربعة أصناف الجذور الرباعية والخماسية، ففي العربية (5035) جذرا ثلاثيا في مقابل(1368) جذرا رباعيا[9]. أما على مستوى لغة الاستعمال والنص الفني فتمثل الكلمات الثلاثية النسبة العظمى من مفردات النص، ففي قصيدة المتنبي ــمثلاــ التي مطلعها: "أرق على أرق ومثلي بأرق" نجد نحو اثنين وتسعين اسما منها نحو(46) اسما ثلاثيا، ونحو (35) اسما رباعيا، وأحد عشرا سما بين خماسي وسداسي، ولا يوجد أي اسم سباعي، لا أريد أن يفهم من كلامنا أن عدد أحرف الكلمة هو المقياس الأهم من مقياس جمالياتها، بل أن يفهم أن قلّة عدد أحرف الكلمة العربية هو واحد من مقاييس جمالها وأسسه، وإلا فأين جمال كلمات من مثل: عيون ومواجد، وسلسبيل، وهو ما أشار إليه

(ابن جني – 359 هـ) من "استكراه العرب ذوات الأحرف الخمسة لإفراط طولها فأوجبت الإقلال منها وقبض اللسان بها إلا فيما قل وندر"[10] ويذكر بعض الباحثين المحدثين بما ذهب إليه بعض النقاد القدامى من استقباحهم كلمة (سويداواتها) في شعر المتنبي، وكلمة (صوباواتها) في شعر أبي تمام.[11]

2- ائتلاف أحرف الكلمة العربية

ائتلاف أحرف الكلمة العربية أهم خصائص بنيتها الصوتية وجماليتها، وقد كان البحث في ائتلاف الحروف وتنافرها موضع دراسات للقدماء والمحدثين، بل قلما خلا فيه كتاب لغوي، ذلك أن "من خصائص اللسان العربي ــ على حد عبارة الفارابي في ديوان الأدب ــ أنه لم يلاق بين حرفين لا يأتلفان ولا يعذب النطق بهما، أو يشفع ذلك منهما في جرس الفخمة وحسن السمع كالعين مع الخاء، والقاف مع الكاف، والحرف المطبق مع غير المطبق مثل تاء الانتقال مع الصاد والضاد في أخوات لها[12] وتلحظ عبارة (لا يعذب النطق بهما أو يشفع ذلك منهما في جرس (النغمة وحسن السمع).

ولعل من أهم أساب ائتلاف الحروف في الكلمة العربية تباعد مخارجها، فذلك أمهل للنطق وأيسر. وتصب هذه الخاصية أيضا في قانون الاقتصاد اللغوي، لأن "توفير الجهد اللغوي، لا يعني قلة أحرف الكلمة، بل يعني قبل ذلك خلوها من التنافر[13] الذي من أهم أسبابه تقارب مخارج الأحرف في جهاز النطق، كالهاء والعين الحلقيتين.

ومما يلحق بالتنافر الثقل، ولو كان خفيفا، فقد قال العرب (صبية) وكان قيامها (صبوة)[14] وما ذلك لتنافر بين الباء والواو، لكنهم أحسّوا ثقلا فاستحسنوا الهرب إلى الياء تخفيفا. ومن الثقل التضعيف، لهذا أبدلوا

أحد أحرفي المضعف ياء من قولهم (تظنيت) وأصلها (تظننت) و(أمليت) وأصلها (أمللت) [15].

وأهم دراسة حول تنافر الحروف وائتلافها دراسة للعالم اللغوي (ابراهيم بن محمد بن دنينير– 635 هـ)، الذي وضع جدولا تفصيليا يغني عما سواه[16] فمثلا لا تأتلف الثاء مع الذال والزاي والصاد والضاد والظاء والسين لا بتقديم ولا تأخير ولا تأتلف الغين مع الجيم والخاء والحاء والعين بتقديم ولا تأخير ولا تأتلف الجيم مع القاف والطاء والظاء والغين بتقديم ولا تأخير ... الخ

ومن دلائل السهولة والخفة في الحرف كثرة دورانه في النصوص العربية والكلام العربي.

3- ائتلاف الحركات في الكلمة العربية

الحركة جزء من بنية الكلمة العربية، وهي ذات قيمتين تعبيريّة وصوتية فالقيمة التعبيرية التفريق بين المعاني نحو (عَبَدَ وعًبدَ) والقيمة الصوتية تسهيل النطق بالأحرف الساكنة، إذ يتعذر نطق حرفين ساكنين متصلين إلا أن هذه الحركات التي وجدت لتسهيل النطق وخفته قد تبدو مدعاة ثقل إذا تنافرت، وحالات التنافر بينها هي:

أــ الضمة قبل الواو في الاسم : فليس في العربية اسم أخره واو قبلها ضمة فما ورد منها في كلام العرب فهو دخيل نحو (ملكو– مندو).

بــ الحركتان المتضادتان، ونعني بهما الكسرة والضمة، إذ لم يرد الانتقال من الكسر إلى الضم في العربية لثقله لذا ا نعدم بناء (فعل) في الثلاثي.

جــ الواو الساكنة المكسور ما قبلها، والياء الساكنة المضموم ما قبلها[17] وقريب من هذا الثقل تحريك الواو والياء وقبلهما الفتحة إذ هو مكروه إلا

عند الضرورة، لذا جمعوا (سري)على أ سرياء و(غني)، وكان القياس (سرداء. وغنياء)، لأنهم يكرهون تحريك الياء والواو وقبلها الفتحة، إلا أن يخافوا التباسا كما في الأفعال نحو (رميا وغزوا..) فيبقونها.

د- اجتماع أربعة متحركات: لأن في ذلك استثقالا على اللسان والنطق.قال سيبويه :(ألا ترى أنه ليس في كلامهم اسم على أربعة أحرف متحرك كله)[18] فإذا وجد ذلك فهو ثقيل مستكره نحو (علبط) للقطيع و(عرس) لبنات وحول هذا يقول بن خالويه: (لا يجمع أربع متحركات في اسم واحد استثقالا، حتى يحجز بين المتحركات بالسكون)[19].

هـ – التقاء الساكنين في الكلمة: إلا أن يكون الساكن أول حرفي تصنيف وقبلهما حرف مد، نحو (شابة ودويبة)، لأن حرف المد شبيه بالحركة.

و – البدء بساكن في الكلمة: فليس في العربية كلمة مبدوءة به.

م – انتهاء الكلمة المعربة بحرف صائت غير قابل لتحمل الحركة الإعرابية، لأن الإعراب من أبرز خصائص العربية [20].

والواقع أن معظم هذه القواعد الصوتية هي مما أشار إليه ابن سنان الخفاجي ومتابعوه من المحدثين، وإن كنا لا نوافقهم على الشروط الثمانية كلها التي اشترطها لجمال الكلمة العربية، كأن تكون الكلمة مصغرة، وألا تكون وحشية غريبة، وألا تكون قد عبر بها عن أمر يكره[21].

كما أثبت هذه القواعد الصوتية دارسو البيان القرآني، الذين أكدوا أن النظم القرآني قد (تجنب الأصوات المتماثلة أو المتقاربة، وتكرار حروف الحلق، والحركات الثقيلة)[22].

4- التزام الحروف أو الأصوات العربية

ونعني بذلك التزام الأبجدية العربية أو حروف الهجاء العربي إن كلمة تضم خليطا من أصوات بعضها عربي وآخر أجنبي لن تكون جميلة، لأنها سوف تكون نشازا على الأذن العربية وناشزة على جهاز النطق لدى العربي.

إن من يدخلون أصواتا مثل (V) أو(تش: V) أو (eu) إنما يهجنون الكلمة العربية واللسان العربي بما لا ينسجم ومدرجه الصوتي.

وأكثر ما يقع هذا التهجين في المفردات المعربة عن لغات من فصائل لغوية مغايرة.

لقد كان العرب في مزاولة التعريب حريصين كل الحرص على الأبجدية العربية، ولذا "جعلوا إبدال الحروف غير العربية لازما، وهم يصدرون في هذا الحكم عن بعد نظر وتفطن، وحرص على عدم إفساد اللغة وأساسها بحروف أعجمية [23].

وكان اللغويون القدماء قد أشاروا إلى أن العرب يبدلون بالأحرف الأعجمية أقرب الأحرف العربية إليها، فالتبدل عندهم مطرد من كل حرف ليس من حروفهم، يبدلون منه ما قرب منه من حروف العربية"، على حد تعبير سيبويه[24].

إن مسألة إدخال أحرف أجنبية إلى لغتنا خلق إشكالية حقيقية فانقسم اللغويون والمعربون بين متساهل يهوّن من أثر إدخال هذه الأصوات إلى الأبجدية العربية، وبين حازم متبصر بعواقب الأمور ــوالباحث منهم ــ يرى أن أهم خصائص أي لغة هي أصواتها وحروفها، وأنها إذا فقدت هذه الخاصية فسوف يؤثر ذلك على طبيعة اللغة وأحكامها الصرفية

وقواعدها المعجمية، وأنه يحمل مخاطر قاتلة على العربية [25]، ومع أن بعض المجامع اللغوية قد أقرت إدخال هذه الأحرف، إلا أن بعضها الآخر عارضها بشدة، كما تراجع عنها أكثرية اللغويين.

4- التعريب وجمالية الكلمة العربية

قد يقال: ما الفائدة من ذكر أسس وشروط هي من صميم قواعد الصرف العربي والبلاغة العربية، فمعظم الكلم العربي تراعى فيه – طبعا وسليقة – هذه الأسس، فالعربية لم تجمع بين حروف متنافرة في كلامها، ولا بين حركات متنافرة لتلك الحروف، ولم تبدأ بساكن، ولم تجمع بين ساكنين، فما كلامك إلا كحامل التمر على هجر أو حامل الخس إلى حمص!

أقول: إن الذي يسوغ هذا البحث وأمثاله أن ظاهرة التعريب اللفظي أو الصوتي من اللغات الأجنبية تفشّوا فشوا سريعا ومقلقا، فبدلا من أن يولد العرب كلمات عربية جديدة لما يستجد من المفاهيم والأدوات والآلات سواء أكانت من ألفاظ الحضارة أم المصطلحات العلمية، نجدهم يلجؤون إلى التعريب اللفظي لتلك المسميات، أي نقل الكلمة الأجنبية إلى العربية نقلا صوتيا، وذلك استسهالا لوضع المسميات وهروبا من توليد أسماء لها من صميم لغتنا، فدخلت لغتنا كلمات لا تتفق وجمالية الكلمة العربية مثل /موبايل –ستالايت–سلايد – فاكس..

ولابد من الإشارة إلى أن التعريب اللفظي أو الصوتي كان دائما وسيلة من وسائل التنمية اللغوية وزيادة الثروة اللفظية في كل اللغات، ومنها لغتنا العربية، فليس من لغة تستغني عن غيرها تماما، فاللغات تتفاعل فيما بينها أخذا وعطاء،

وهذه الظاهرة من مستلزمات الاحتكاك الحضاري ونتائجه، فمفردات العربية مبثوثة في العديد من مستلزمات الاحتكاك الحضاري ونتائجه، فمفردات العربية مبثوثة في العديد من لغات العالم كالفارسية والتركية والانجليزية والفرنسية والاسبانية، كما أن لغتنا العربية فيها الكثير من المفردات الأجنبية أصلا، والتي دخلت العربية وخضعت لقوانينها الصوتية، فعربت وصارت جزءا لا يتجزأ منها، دخلت شعرها ونثرها ومعجماتها، والأهم من ذلك أنها وردت في أعظم نص عقائدي لغوي أدبي وهو القرآن الكريم، وورودها فيه لم يمنع أبدا من أن يوصف بأنه (بلسان عربي مبين، وأن الله أنزله قرآنا عربيا)، وهذا دليل على أن اللسان العربي لا يعني الكلمات العربية الأصيلة ذات الجذور العربية فحسب، بل ويعني ما دخل هذه العربية من الكلمات المعربة، التي هي أعجمية الماضي عربية الحاضر ـ فاللسان العربي يضم العربي والمعرب من الكلم.

وجود المعربات في القرآن الكريم أعطانا درسا لغويا هاما مفاده أن الاقتراض اللغوي والتعريب اللفظي لا يضر اللسان العربي حتما، بل هو عون لهذا اللسان على أداء وظيفته التعبيرية والتواصلية، ولكن بشرط التزام المنهج الصحيح في تقريب المفردات الأجنبية، وما هذا المنهج الصحيح إلا منهج القرآن الكريم في التعريب، وما منهج القرآن الكريم في التعريب إلا التزام أسس الجمالية اللغوية التي هي مزيج متجانس من أركان الفصاحة العربية وقواعد الصرف العربي. إنّ جمالية الكلمة العربيّة تنبع من فصاحتها المستمدّة من مفاهيم البلاغة العربية، ومن خفتها وسهولة نطقها وعذوبة سمعها المستمدّة من قواعد الصرف العربي.

5- المعربات القرآنية أنموذجا

"المعرب هو كل كلمة دخلت اللغة العربية قديما أو حديثا على أن تكون خاضعة لمقاييس العربية وأبنيتها وحروفها[26]. "والتعريب هو أن تتفوه العرب بالاسم الأعجمي على منهاجها[27]".

أثار وجود بعض الكلمات المعربة في القرآن الكريم جدلا كبيرا بين الفقهاء القائلين بوجود المعرب في القرآن الكريم، وبين اللغوين المنكرين لوجود المعرب فيه، وينسب إلى أبي منصور الجواليقي (561هـ) صاحب كتاب (المعرب على حروف المعجم)، فذهب توفيقي يقول فيه: "والصواب عندي مذهب فيه تصديق القولين جميعا، ذلك أن هذه الحروف أصولها أعجمية كما قال الفقهاء، إلا أنها سقطت إلى العرب فأعربتها بألسنتها وحولتها من ألفاظ العجم إلى ألفاظها، فصارت عربية، ثم نزل القرآن الكريم وقد اختلطت هذه الأحرف بكلام العرب، فمن قال أنها عربية فهو صادق، ومن قال أعجمية، فهو صادق[28].

ومن المعربات التي وردت في القرآن الكريم: (درهم، دينار، فردوس، كافور، سجيل، سفر، حواري، استبرق، صراط، مشكاة، محراب، قنطار، سندس...). وقد اختلف العلماء القدامى في تأصيل هذه الكلمات وردها إلى لغاتها الأصلية، فما نسبه بعضهم إلى الروسية نسبه آخر إلى الفارسية، وما نسبه بعضهم إلى السريانية نسبه أخر إلى الحبشية وهكذا [29].

لا أهمية في بحثنا لمعرفة أصل الكلمة المعربة، ومن أي لغة هي، بقدر ما يهمنا معرفة التغييرات التي طرأت على لفظها وأصواتها لمعرفة المنهج القرآني في تقريب الكلمات الأعجمية، ولنأخذ نماذج من هذه

المعربات ونرصد التغييرات التي أدخلت عليها لإخضاعها لما سميناه النظام الصوتي العربي.

أ– **دِرْهَم**: أصلها في اليونانية – كما يذهب بعضهم (دراخما) وعربت إلى دِرْهَم ودِرْهِم، فماذا أدخل عليها من تغيير؟

1- تجنب التقاء الساكنين في حرفي الألف والخاء.
2- حذف بعض الأحرف لتصبح الكلمة رباعية بدلا من سداسية.
3- إبدال الخاء هاء.
4- صوغها على إيقاع عربي هو (فعلل) نحو هجرع وهو الطويل، أو (فعللِ) نحو (حفرد) وهو نبات.
5- حذف الألف من آخر الكلمة ليصبح الحرف الأخير صامتا يقبل الحركة الإعرابية التي هي من خصائص العربية.

أما لماذا أبدلوا الخاء هاء، مع أن الخاء حرف عربي، وكان يمكن إبقاؤه، فلأن الهاء أيسر على النطق، إذ نسبة دورانها في الكلام العربي هو 7.57 %، في حين نسبة دوران الخاء هي 27% .

وكثرة دوران الحرف في الكلام دليل خفته على اللسان، والخفة من أركان الجمال اللغوي.

ب– كلمة (فردوس): اختلف في أصلها بين رومية ونبطية وعبرية وسريانية وقال (الكرملي) هي من الإغريقية، وأن أصلها (باراديس) بالباء المهموسة، عربت إلى الجمع ثم أفردت إلى (فردوس)[30] فماذا أجري عليها من تعديل؟

1- إبدال الفاء العربية بالباء الفائية المهموسة لأن الفاء أقرب الأحرف العربية إلى ذلك الحرف الذي ليس من لغة العرب.

2- حذف بعض حروفها حتى غدت كلمة خماسية الأحرف بدل الثمانية، تحذفت الألفات الثلاثة.

3- إبدال الواء بالياء طلبا للخفة لأن الواو أكثر دورانا في نسج الكلام العربي من الياء، بدليل أن الجذر (دمس) الذي تعاقب فيه السين/ الياء ليس من الجذور العربية، في حين أن الجذر (دوس) الذي تعاقب فيه السين الواو موجود ويحوي بضع عشرة كلمة[31].

جـ كلمة (سفْر): بمعنى كتاب رجح تقريبها من الآرامية، كما رجح أن لفظها في الأصل (سفرو)، فماذا أجرى عليها من تعديل؟

1- حذف الواو من آخر الكلمة، لأنه ليس في العربية اسم منه بواو قبله خمسة، ولأن حرف الراء الذي وقفت عليه الكلمة هو من الحروف الصامتة التي تتحمل الحركة الإعرابية.

2- صوغ الكلمة على إيقاع عربي هو (فعل)، ونظائره في العربية كثيرة نحو: (عِلْم وحِلْم)

د ـ كلمة (سجيل): وأصلها في الفارسية (سفك) بالكاف الفارسية المجهورة كالجيم القاهرية، ومعناها (حجر وطين).

فكيف أخضعت للنظام الصوتي العربي؟

1- أدمجت الكلمتان في كلمة واحدة واختصر حرف من أحرفها.

2- أبدل بالحرف الأعجمي وهو (الكاف) الفارسية المهجورة وبأقرب الأحرف العربية إليها وهو (الجيم)

3- صيغت على إيقاع صوتي عربي هو (فعيل)، ونظائره في العربية كثيرة نحو: صديق وزميت.

هـ كلمة (مِشكاة): وهي كلمة حبشية الأصل، ولفظها في لغتها (Mascot) ومعناها الكوة، ويلحظ كيف أبدل بالسين شينا وبالواو

المفخمة ألفا، فجاءت الكلمة على إيقاع اسم الآلة في العربية مثل (مرآة ومبراة)[32].

وما دخول هذه الكلمات المعربة وأمثالها نحو (محراب، كافور، استبرق وسرادق، صراط، الزخرفة) في اللغة العربية وتماهيها في نسيج الكلمة العربية، حتى ليخال لكثير من دراسي العربية أن هذه الكلمات عربية الأصل والجذر وليست بمعربة، إلا لخضوعها للنظام الصوتي الذي لم يدخلها في إطار العربية، فحسب، بل في إطار ما هو جميل من كلمها الخالد[33].

وبعد فإن هذه التغيرات التي أدخلها العرب والقرآن الكريم على الكلمات الأعجمية عند تعريبها إنما جاءت تجسيدا إبداعيا لمنهج لغوي صرفي جمالي هو ما أسميناه (بالنظام الصوتي اللغوي العربي) الذي يقعد للصحة اللغوية وللجمال اللغوي في وقت واحد، وتتفاضل الكلمات العربية في جماليتها بمقدار توفر عناصر ذلك النظام في بنيتها وهذا ما علينا أن نعمل على هديه عند تقريب الألفاظ المعاصرة ونقلها إلى لغتنا.

خلاصة البحث

1- للكلمة العربية المفردة جمال لغوي مستقل عن النظم الذي قد يزيد من جماليتها أو ينقصها ولكنه لا يفقدها تلك الجمالية
2- قدمت المعربات القرآنية منهجا واضحا لتقريب الكلمات الأعجمية ودمجها بالعربية، وعلينا الاهتداء والاقتداء به عند تقريب الكلمات الأجنبية المعاصرة.
3- من أهم معايير جمالية الكلمة العربية خضوعها للنظام الصوتي العربي الذي استنبطت أحكامه من المعربات القرآنية ومعربات عصر الفصاحة والاحتجاج.
4- علينا تطوير مباحث مقررات البلاغة العربية وطرق تدريسها بما يتلاءم وحاجاتنا اللغوية المعاصرة ومن أهمها التقريب اللفظي.

الهوامش

1- ابن منظور_ "لسان العرب": جمل، المعجم الوسيط: حسن.

2- د.منير سلطان_" بلاغة الكلمة والجملة والجمل"، ط2: 15

3- عبد القاهر الجرجاني_ "دلائل الإعجاز"، 42 - 232:

4- د. علي نجيب ابراهيم_ "جماليات اللفظة بين السياق ونظرية النظم" : 51.

5- ابن سنان الخفاجي_ "سر الفصاحة" : 54 وما بعدها. وينظر: د.منير سلطان– "بلاغة الكلمة والجملة والجمل" : 21-29

6- ميخائيل نعيمة_ "الغربال" : 71 (طبعة دار صادر).

7- القزويني _ "التلخيص في علوم البلاغة" : 24 (طبعة 1932.).

8- الفيروز أبادي_ "القاموس المحيط معا".

9- ندوة تونس المعجمية– "المعجم العربي المختص" 172 - 205.

10- ابن جني_ "الخصائص" 1: 61-62.

11- د. منير سلطان_ "بلاغة الكلمة والجملة والجمل": 21-29. وينظر د. حسين جمعة. "في جمالية الكلمة العربية": 35-36.

12- الفارابي_ "ديوان الأدب" 1: 72.

13- د. مسعود بوبو_ "أثر الدخيل على العربية في عصر الاحتجاج" : 130.

14- ابن جني_ "الخصائص" 1: 137.

15- المصدر السابق: 2: 232

16- د. حسان طيان: "تنافر الحروف ودورانها في نسج الكلمة العربية" : 102.

17- الفارابي_ "ديوان الأدب" : 72.

18- سيبويه_ "الكتاب" 4: 192.

19- ابن خلويه_ "ليس في كلام العرب" : 28

20- لمزيد من التفصيل، ينظر: د. ممدوح خسارة_ "منهجية تعريب الألفاظ في القديم والحديث" – مؤسسة الرسالة والشركة المتحدة للتوزيع.

21- ابن سنان الخفاجي ، "سر الفصاحة" : 54 وما بعدها.

22- د. أحمد أبو زيد_ التناسب البياني في القرآن: 301-304.

23- د. مسعود بوبو_ "أثر الدخيل على العربية في عصر الاحتجاج" : 81، 146.

24- سيبويه_ "الكتاب" 4: 305-306.

25- لمزيد من التفصيل، ينظر: د. ممدوح خسارة_ "منهجية تعريب الألفاظ في القديم والحديث" : 94.

26- د. أحمد مطلوب، "حركة التعريب في العراق" : 26.

27- الجوهري_ "الصحاح" : عرب.

28- الشهاب الخفاجي_ "شفاء القليل في ماضي كلام العرب من الدخيل" : 24 وينظر: السيوطي_ المزهر 1: 269.

29- السيوطي: "المهذب فيما وقع في القرآن من المعرب" : 120.

30- السيوطي_ "المهذب فيما وقع في القرآن من المعرب" : 120 (حاشية المحقق د. التهامي الهاشمي).

31- ابن منظور_ "لسان العرب"_ دوس.

32- السيوطي_ "المهذب فيما وقع في القرآن من المعرب" : 72.

33- المصدر السابق: 96.

التنمية اللغوية : من أين تبدأ؟

أ.د. عبد الجليل مرتاض

جامعة تلمسان

ـ استعداد العربية الفطري للحداثة

دأبت العربية مذ معرفة عالمها اللساني التواصلي بها كظاهرة طبيعية للتواصل بها في حقبها، وبين أجيالها، على استثمار ما تتوفر عليه من بنيات داخلية أسوة بغيرها من اللغات الإنسانية التاريخية والحضارية التي تركت أثلامها ماثلة على مدى آلاف السنين، ولم تكن اللغة العربية، فيما نعلم، وفي عهدها السحيق، تفتقر إلى ما كان يحيط بها من لغات راقية جداً، لتؤدّي وظيفتها الاجتماعية، والأدبية، والفنية، والتكنولوجية البدائية أكمل أداء، وبأبلغ بيان.

إن المطلعين على المستويات الخلفية البعيدة للغة العربية، وفي مقدمة هؤلاء علماؤها، لا يختلفون أدنى اختلاف، في أنها تحوي في بطونها تراثاً لسانياً محيّراً، ويدعو في كثير من الأحيان إلى التساؤل الّذي لا يخلو من إعجاب، مهما كانت صلابة موضوعية المرء وحياده النزيه المطلق، لأن ما تكتنِزه من مختلف المصطلحات الوقتية، ولاسيما السبل الغريبة التي تعبر بها بطلاقة، ورشاقة، ودقة، عما تريد أن توصله من رسائل دلالية وإعلامية، لتجعل دارسها المتعمق يتفاعل رغماً عنه، وقد أيقن أنها أبلغ من بليغ فيها، وأبعد تحضراً ممن

يتكلمها، وأقوى سلطاناً من مستعملها والسابح في فضائها المجهولة بدايته، المطلقة نهايته.

ولعلك تخرج أحياناً عن طورك، وتطرح سؤالاً لا يخلو من غرابة وإعجاز على نفسك دون قصد معين منك: هل كان ذلك المجتمع العربي القديم –خاصة قبل مجيء الإسلام– في حاجة حقيقية إلى كل ما كانت تكتنزه من مداليل، وثروات قاموسية، وقواعد نحوية، وصرفية، وبلاغية، وخاصة إلى تلك الليونة، والدلالة على أي نشاط من عدمه فيها؟

نثير السؤال السابق، ونحن نعتقد اعتقاداً بعيداً عن أي عاطفة أو غرور، بأن ما كانت تزخر به هذه اللغة من مصطلحات أصيلة لا تَحْزُنُ أمام العربية الآنية لبعثها واستثمارها في مجالات لا تستغني عنها استعمالاتنا اليومية، وكتبنا المدرسية، وورشاتنا الصناعية والفنية، ومخابرنا العلمية والطبية، بل وفي ممارساتنا المهنية الخاصة منها والعامة.

وغالباً ما يُتَّهم من يُدْلي بمثل هذا الطرح الإيجابي إزاء اللغة العربية، بل أصبحنا نسمع أصواتاً تتعالى أحياناً ممن كدَّروا صفو حليبها، أو ممن رضعوا حليباً غير حليبها، تدعو إلى القطيعة التاريخية، والانطلاق مما يسمونه عصرنة وحداثة وعولمة وأسماء أخرى لا يختلف لبيب معهم مبدئياً فيها، ولربما سمعت أصواتاً أخرى تردّد ما ردّد شعراء جاهليون منذ زهاء ألفي عام من أننا لا نقول إلا قولاً مكروراً، وما هذا إلا حق يراد به باطل، لأن اللغة أية لغة ليست تقليداً أو وقفاً على من تقدم دون من تأخر، فاللغة هي الوعي الخالد الذي يصل ماضي السلف بحاضر الخلف، والرباط الروحي الذي يجمع بين متكلمين قضوا نحبهم، ومتكلمين آخرين ينتظرون.

من تقدمنا متواصلاً باللغة العربية، كان يتداول مصطلحات طبية وتطبيبية في العلاج، والولادة، والتمريض، ومصطلحات زراعية عامة في

البذر، والحصاد، والتسميد، ومصطلحات في الريّ وما يتصل به من آبار وأدوات تعبر تعبيراً دقيقاً وعجيباً عن كل وظيفة على حدة، ومصطلحات أخرى في الحلاقة وتسريح الشعر وضفره وإرساله، بَلْهَ حقولاً دلالية عامة وخاصة أكثر من أن يومأ إليها هنا.

قبل أن نطلق حكماً مشوباً يتعسف نتيجة لمؤثرات خارجية قوية أو لتحقيق رغبات سيكولوجية ضيقة، فإنه يجب أن نلتفت إلى ما تزخر به اللغة العربية الكلاسيكية من حقول دلالية جاهزة تتصل اتّصالاً مباشراً بواقع ممارساتنا المهنية والوظيفية، واقع لم يُعط نصيبه الذي يستحقه من بني جلدتها أنفسهم، إلا من فئة قليلة متنورة، الأمر الذي جعل أصابع الاتهام توجه إلى هذه اللغة، تارة توصف بقصورها عن أداءات العصر، ومرة بعجزها عن مواكبة ما يبتكر ويستحدث ويصنع ويزاول لدى المجتمع المرغم بالتعامل والتعاطي إعلامياً وحاسوبياً وتكنولوجياً وعلمياً مع ما يعيشه ويلمسه فعلياً، فتتعالى صيحات وشكاوى من هذا البلد العربي أو ذاك تعالياً متطرفاً تطالب بالتأني في التعريب الشامل، والاستمرار في التغريب، وهذه الأصوات تدرك جيداً أنّ الإشكال لا يكمن في لغتهم العربية بقدر ما يكمن في تبعيتنا الاقتصادية، والعلمية، والطموح المعكوس، والاتكال على كل ماهو جاهز، وتعطيل العقل العربي، ولذة الاستهلاك الغيريّ الفاحش، والعمل بما وُهبنا من ثروة، لا بإنتاج الثروة، حيث أصبح من الميسور لنا أن نقتني ما نشاء، ونحن نعلم أن هذه المقتنيات بملايير الدولارات لن تعود فعّالة ولا صالحة بعد سنين لنضطر إلى بدائل سواها، وهكذا دواليك، مما يعني أن ثورتنا الأكثر جدوى ودواماً وسيادة هو الخلق والإبداع بإرادة عربية لا مفر منها إن

عاجلاً أم آجلاً، وباللغة العربية التي تعدّ من أكثر اللغات استعداداً وطواعية أمام كل ما جَدّ ويَجِدّ من حولها.

ونشير إلى أن اللغة العربية، وهذا لا يَغْرُب عن أحد، سبق لها أن استوعبت كتاب الله، وعلوم شعوب مرموقة بحضارتها وثقافتها، غير أن تنمية اللغة الأكثر فعالية ينبغي في تقديرنا، أن يُحْدَث إحداثاً من الداخل، قبل أن نفكر في ملامسته من الخارج، والذي يدعونا إلى الترجمة بشكل مفرط لم يغب عنهم أن كل لغة وما تحويه من خصائص داخلية، وطاقات لسانية ذاتية، فالمختصون لم يألوا جهداً في الحرص الشديد لترجمة معاني القرآن الكريم، غير أنهم لم يفلحوا في ترجمته ترجمة تعادل نصه الأصل، بل يستحيل أن تترجم المعاجم العربية الأصيلة ترجمة صحيحة إلى لغة أجنبية، إذ كيف تترجم ـ مثلاً ـ:

ـ "المخَاصرة" أو مرادفها "المخَازَمة"، وهي التي تعني أن يأخذ صاحبك في طريق، وتأخذ أنت في طريق آخر، على أن تلتقيا معاً في مكان متفق عليه؟

ـ وكيف تترجم في الحالة المدنية "بنو علاّت"، إذا كان أبوهم واحداً، وأمهاتهم شتّى؟

ـ كيف تترجم "عنِّين" ومثله "العَجِيز"، وهو الرّجل الّذي لا يقدر على إتيان النساء، أو لا يشتهي النساء، إلا إذا تحايلت بنعت ومنعوت كأن تقول: (Impuissant sexuellement.)

ـ وكيف تترجم "المِقْلاَت"، وهي المرأة التي لا يعيش لها ولد، إلا إذا احتلت، وترجمتها بجملة واسعة؟

ـ وإذا وقفت على بيت لجاهلي (أوس بن حجر):

والفارسيّة فيهمْ غَيرُ مُنْكَرةٍ   وكلُّهم لأبيهِ ضَيْزَنٌ سَلِفُ

ـ فكيف تترجم "ضَيْزَن"، وهو من يزاحم أباه في امرأته، أو يزاحمك في شيء آخر مِلْكٍ لك أو تبتغيه، علماً بأن الضيزن اسم صنم أيضاً؟

ـ وكيف تترجم "أشْبلت المرأة"، إذا صبرت على أولادها فلم تتزوج بعد بعلها؟

ونحن لسنا بهذه الأمثلة البسيطة التي ضربناها مثلاً نتبجح، بما للغة العربية، وبما ليس لها، لأن مجرد التفكير في هذا التبجح الفارغ من أي منطق يضر اللغة العربية أزيد مما يفيدها في وقتها الراهن، وهي من أشد اللغات "الحية" فقراً إلى ألوف من المصطلحات الثقافية والتقنية والعلمية الحديثة دون أن نحمّلها أي ذنب فيما حدث لها حتى وجدت نفسها، وهي تعيش العقد الأول من الألفية الثالثة، هكذا، ولكن، الذي يتحمل وِزْرَ تخلّفها الغياباتُ الوظيفية لاستعمالها في مجالات حيوية كعالم الإعلام الآلي، والاتصالات الشامل السليم، والذرة، والطيران... ونشر إبداعاتها بلغتها الأصل.

إن لغتنا العربية الراهنة تعيش وضعاً نظرياً لا تنافس فيه من اللغات الأخرى، إذ مَنْ منا يجرؤ على إنكار الجهود المضنية التي بُذِلَتْ من مجامع، وهيئات في سبيل ترقيتها، حيث أصدرت كراريس، ومجلات، ومجلدات كُرّست لكل جانب من جوانبها التقنية أو العلمية، حتى إنها لتُباع بأثمانٍ زهيدة على أرصفة دمشق؟ ومما يلاحظ على بعض ما وقَفْنا عليه من هذه المصطلحات الضخمة أنّ جلها معرّب أو منحوت أو مترجم، وقَلَّ ما وَقَفَنا مصطلحٌ مشتق من الوعاء الأصيل للغة العربية، وخاصة في الميكانيكا (علم الحيل)، والجيولوجيا (علم الأرض)، والفيزياء، وأهم من كونها صيغت بهذا القالب أو ذاك أنها لا تبرح مهملة، إن لم نقل اندثر معظمها

قبل استعماله لانعدام التنسيق بين المنظّرين من جهة، وغياب هيئة عربيّة مخوّلة لمتابعة ومراقبة التنفيذ من جهة أخرى، علاوة على غلبة الشبح السياسي الظرفي على التعاملات العربية.

في لغتنا العربية ألوف من الكلمات المشحونة بدلالات سبق لها أن نهضت بها أوضح نهوض، ولم تغلق أبوابها الدلالية لتشحن بدلالة بديلة يمكن لها أن تضطلع بوظيفتها الجديدة في المخبر، والحقل، والمعمل، ومن العار أن نشير إلى التجارة، والإدارة، والاقتصاد، والرياضة، الحوار الدبلوماسي،...

ومما قد نراه مناسباً هنا أن نشير إلى أن الكلمات "تموت" إلا في حالة واحدة، وذلك حينما لا توظف توظيفاً مطرداً يتماشى مع ما يُسْتَجدُّ في محيطها أو في العالم حولها، لأن خلق أو نحت أو اشتقاق أو تعريب أو ترجمة كلمة أمر سهل، لكن الفجوة الهوّة تكمن في صعوبة فرض استعمالها، ومن ثَمَّ فإن العبرة بالنسبة للغة من حيث قوتها أو ضعفها، سيادتها أو تبعيتها في الاستعمال، ولا شيء غير الاستعمال، ولكي يضمن توظيف كلمات تبعث من التراث اللغوي الأصيل، أو تولد ولادة جديدة من هيئات مخوّلة أكاديمياً وعلمياً، ينبغي أن تُعطى صلاحيات أوسع لهذه الهيئات على مستواها المحليّ والإقليمي، ومما نراه هنا أيضاً أن الإشكال الأعظم لا يكمن في اختلاف المصطلح في اللغة العربية بين إقليم وإقليم، بل في عدم استعماله البتة.

ما هو ذنب اللغة العربية إذا كانت المائات الآلاف من الكلمات فيها لا يوظفها أبناؤها ومتكلموها؟ وما ذنب العربية إذا كان الناس لا يعرفون من "بَغَى" إلا "البَغْيَ" بمعنى الظلم، و"البَغِيّ" بمعنى البِغَاء والفجور، في حين أن طبيباً عربياً واحداً أو ممرضاً ربما لا يعرف منه "بَغَى

الجُرْح بَغْياً" إذا ترامى إلى الفساد؟ وما ذنب هذه اللغة إذا كانت المرأة العربية الحائض تشدّ وسطها بشيء ما عادة ما تسمّيه حزاماً أو في أبعد الحالات خرقة إلا أن تُسَمِّيه "لِجَاماً" كأنه شُبِّه بلجام الفرس، ومنه قيل: "تلَجَّمَت المرأة" إذا شدت اللجام في وسطها؟ وما ذنب العربية إذا أضحى العربي يسمّي ما يرتديه وقايةً من المطر أيَّ اسمٍ، إلا أن يقول له "اللُّبَّادة"، وهو المسمّى الأصيل...؟

لا تسود لغة من اللغات إلا بالاستعمال، وليس بالتباهي بما تكتنزه ـ كاللغة العربية ـ من مائة وخمسين اسماً للأسد، ومائتي اسم للحية، وخمسمائة للأسد، وسبعين اسماً للحجر،... لسنا بحاجة إلى أكثر من اسم واحد، ما دام الأسد يختلف عن الحية، وما دامت (الحية) تختلف عن الحجر،...

وما أشير إليه آنفاً لا يفيد من قبلنا أن أية لغة إنسانية، ومنها العربية، محصّنة تحصيناً كاملاً ومثالياً، لأنه لا توجد لغة من اللغات الألوف على كرتنا الأرضية نموذجاً مثالياً للغة أخرى، فاللغات كلها متساوية، بما في ذلك اللغات البدائية في غابة الأمازون، وأدغال إفريقيا، ولغة الإسكيمو، إذ كل لغة بحاجة إلى نظيرتها الأخرى التي تسبقها اختراعاً وثقافة، فينشأ بينهما ما يدعى عادة الاقتراض أو الاستعارة، لأن اللغات كالقبائل والشعوب يحتاج بعضها إلى بعض، ولا تتكامل إلا بغيرها.

غير أنه مما هو غريب حقاً أن مصطلحات دلالية متعددة نجدها حية ومستعملة استعمالاً عصرياً في لغات أجنبية أو "حية"، في حين أنه قلما نعثر لها على أثر في عربيتنا العصرية، ولربما وظفت فيها توظيفا مشوهاً،

خاصة في بنياتها الصوتية، وسوابقها، ولواحقها دون أن يخامرنا شك في أنها أجنبية لبعدها الصوتي وغرابته عن الحس الفونيتكي الأصل في العربية، إذ من هذا العربي العامي الّذي تقنعه بيسر أن مصطلحات فرنسية مثل:

- Goudronnage قَطْرَنَة أو تَزفيت الطريق.
- Goudronneuse مُقَطْرِنَة أو آلة القَطْرنة.
- Goudronneur مُقَطْرِنْ عامِل).

ليست إلا من الوعاء الأصيل للعربية السائدة فصاحة وعامّيّة، قِدَماً وحداثةً، ما دامت أنها أخذت من القَطِرَان العربية، وهو ما يتحلّل من شجر الأَبْهَل[1]؟، أي مادة التّقطْرُن (Goudron) الفرنسية تحولت تحوّلاً صوتيا:

- قطران ← G بدل القاف، والدال بدل الطاء (لأن القاف والطاء غير موجودين فيها).

ومَنْ مِن المختصّين من لا يعرف أن كلمة Tarif المستعملة في اللغات الأوروبية بما فيها الروسية حُرّفت من الكلمة (العربية)، ليقولوا بعدها: Tarification وTarifaire وTarifer،...؟ لأن الكلمات المستعارة قد تبقى ثابتة بشكلها الأجنبي مثل DOCK (مرفأ أو حوض سفن) التي دخلت الفرنسية بشكلها الإنجليزي، غير أنه في الغالب الأعم أنها تُعدَّل تماشياً مع طبيعة النطق الصوتي للغة المستعيرة، مثال ذلك أن Packet-Boat (سفينة نقل) الإنجليزية حورت في رسمها ونطقها في الفرنسية Paquebot، ومنها كلمة مخزن العربية التي تحولت في الفرنسية إلى Magasin،...الخ.

ولا يفوتنا أن نؤكّد ما ألمحنا إليه قبل حين بأننا لا نتبجّح بما قدمته اللغة العربية من مصطلحات وألفاظ ثقافية للغات إنسانية قاطبة، وهي اليوم من أشد اللغات العالمية احتياجاً إلى ملء فراغها الهائل، ودرء فقرها المدقع في مجال العلم

والتكنولوجيا والاتصال الحديث، ولكن إشارتنا العابرة أرادت أن تذكّر المعيّين الراغبين في توسيع استعمالها أو تعميمه بأنه بإمكان بعث ألوف من المصطلحات الأصيلة فيها واستثمارها في العربية الحديثة، ولعل الأهم مما ألمح إليه أن نكون على وعي تامّ بأصلها العربي من الأجنبي فيما نستخدم من كلمات ومصطلحات.

ـ أولويّة التنمية الداخلية على الخارجية في العربية

ومما يتراءى لنا أن عصرنة لغة مشترط فيها أن تمرّ عبر تنميتيْن: تنمية داخلية، وهو الأصل، وتنمية خارجية، وهو الفرع، فالتنمية الداخلية كل ما كان ذا صلة بالقوى الفيزيائية الطبيعية أو الطاقة الخلاّقة الكامنة كموناً لا منتهياً في اللغة، وهذه التنمية لا تتخذ مساراً واحداً، بل مسارات عدة، لأن طاقة اللغة الخلاّقة طاقة لسانية متجدّدة بما تملكه من عناصر سبك وبناء فيها دون عناء ولا عجز، وكل لساني يعرف ما المقصود بهذه العناصر التي لا تخضع لمتكلم أم مستعمل بعينه، فالمتكلمون بلغة كلهم شركاء فيها حتى وإن لم يشعروا شعوراً متشابها بصيرورة نموها وتطورها وتبدّلها وثرائها أو فقرها، ولن يكونوا إلا كذلك ما دام أنهم يتواصلون باللغة ذاتها، ولا يتكلمون كلاماً متشابهاً بها.

وفي تقديرنا أن لغة كالعربية أولى لها أن تتطور من الداخل قبل أن تتطور من الخارج، فهي ليست قائمة بذاتها عن كل ما هو كيان خارجي، أعني أنها تزخر بتراث لغوي وأدبي ونص قرآني ثري يغنيها بنسبة كبيرة عن اللجوء في كل محطة من محطاتها التنموية إلى كل ماهو خارجي، فلغتنا بضاعة كاسدة في غيرها، ولكنها رائجة بذاتها، بدليل أن الناس

الّذين التفتوا إلى تنمية لغتهم في آسيا، وأوروبا، وجدوها أداة طيّعة زوّدوها من الخارج بمائات وألوف من الألفاظ الحضارية والثقافية، وهي الآن تنافس أحدث لغة وأوسعها انتشاراً، إلا أن ظروف اللغات تختلف من بلد إلى بلد، ومن حضور إلى غياب، ومن تهيئة بنيوية كاملة إلى تهيئة هشة أو منعدمة، ومن ثمّ فإن اللّغات التي تعتمد على تنميتها من الخارج اعتماداً فاحشاً، إن لم تكن فقيرة في طاقتها اللسانية الداخلية، فلا أقل من كونها عالة على اللغات الأخرى الأقرب منها سلالة وحتى الأبعد عنها أرومة، مثال ما نحن فيه ما كشفته "الحسابات بالنسبة للغة الألبانية، إذ تبيّن أن 430 كلمة فقط من بين 5140 كلمة هي كلمات مشتقة من الوعاء الأصيل للغة، أما الكلمات الباقيات فكلها كلمات دخيلة مقتبسة من لغات أخرى، واقتبست اللغة الكورية ما يقرب من 75% من مفرداتها من اللغة الصينية، واقتبست اللغة الإنجليزية الحديثة ما بين 55-75% من مجموع مفرداتها من اللغتين الفرنسية واللاتينية وغيرهما من اللغات الرومانية"[2].

والعامل الداخلي هو الذي يبرز الطاقة اللسانية الخلاقة في أي لغة، فالمسميات فيها لم تكن مميزة ما بين مذكر ومؤنث، ومفرد ومثنى وجمع، وجمع مذكر سالم، وأفعال، وأسماء، واشتقاقات، وصفات، وأوزان، وضوابط،... فالإنسان لا يتصرف في اللغة من الخارج إلا لكونه متكلماً أو مستعملاً، أما اللغة فهي شيء آخر، وما من شك في أن ظهور الكتابة كان صدمة لهذه الطاقة اللسانيّة الخلاقة، لأنه جعل نهاية لتفتّقها، وحداً لذكائها الطبيعي، فلا هي استطاعت أن تجاري نموها الآلي، ولا تركتها وشأنها، لأنها لا تقوم لها قائمة بدونها، وربما لم تكن الكتابة وحدها تتحمل هذا القهر للغة الشفهية،

فالنصوص بصيغتها المتواضع عليها كان لها دورها الأساس في ردع مدّها الذي لا ساحل له.

– للغة علة داخلية للتغيير

وربما كان روبير جاك تورقو A. Robert Jaques Turgot الفرنسي (1781م) من أبرز من استهدف "اللغة في الصميم أي في نظامها الوظيفي الداخلي، حيث بيّن هذا الرجل بأنه توجد علة داخلية Principe interne للتبدل أو التغيير داخل لغة، مما يدل على أن اللغة ليست متحولة فقط بوساطة الظواهر الخارجية ذاتها، بل لأنها تتحول من الداخل حسب القوانين الخاصة بها"[3]، وهكذا أصبح الدارسون يعيدون النظر في آرائهم السابقة، خاصة بعد سطوع اللسانيات التاريخية، للتحقق من أن "التغيير الذي يحدث في اللغات ليس مردّه إلى الإرادة الوحيدة الواعية للناس فقط، بل يرجع كذلك إلى استجابة تقتضيها علة داخلية، وهكذا فإن معظم التحولات التي تتم في اللغات يقع بمعزل عن الوعي للأفراد، أي ما يقع ليس من بنات نتيجة قرارات نحويين أو رجالات سياسيين، وإنما هو نتيجة طبيعية للغة في حدّ ذاتها"[4].

ولاحقاً وقف لسانيون رُوّاد على حقيقة أن لغتنا بنية قائمة بذاتها، وكل قاعدة من قواعدها تمثل تنظيمياً ضمنياً وواقعاً خاصاً بها، وهي بهذا الاعتقاد ليست قابلة وحسب الإبداع، بل هي مصدر لكل عملية إبداعية، والمبدع العظيم من رزق حظاً أعظم في مغازلتها وامتلاك ناصيتها.

وانطلاقاً من الإقرار بأن اللغة تنظيم قائم بذاته، انبرى دي سوسور إلى أن يميز بين اللغة من جهة والكلام المتداول من جهة أخرى، والشيء

نفسه أقدم عليه إدوارد سابير حين فرّق بين ما أسماه النموذج أو القالب Pattern والواقع الكلام، والصورة ذاتها نجدها لدى تشومسكي الذي حدّد أبعاداً تقديرية بين الكفاءة أو الملكة الفطرية والأداء الكلامي المؤدَّى أو المحقّق على لسان الفرد، وقاد هذا التمييز الثنائي لسانيين إلى تحديد ماهية "البنية" في اللسانيات، ومن هؤلاء هلمسليف الذي حدد مجال اللسانيات البنيوية[5] سنة 1944 بقوله: "نفهم بالألسنيّة البنيانية" مجموعة الأبحاث التي ترتكز على فرضية تنص" على أنّ بالإمكان، من الناحية العلمية، وصف اللغة من حيث هي، بصورة أساسية، كيان مستقل مكوّن من الارتباطات الذاتية أو بكلمة واحدة، من حيث هي بنية، وإن تحليل هذا الكيان يتيح بصورة دائمة، لحظ أجزاء يتحكم بعضها ببعض، ويرتبط كل منها بأجزاء أخرى، ولا يمكن تخيلها أو تحديدها من دون هذه الأجزاء الأخرى، فموضوع البحث يرتدّ إلى شبكة من الارتباطات عبر النظر إلى القضايا اللغوية من حيث هي قائمة بعضها بالنسبة إلى البعض الآخر"[6].

ومما ذهب إليه بنيامين لي ورف، وقد يكون محقاً في ذلك، "أن لغة الأم تحلل لنا العالم وفق طريقتها الخاصة وتفرض علينا جميعاً هذا الطراز من التحليل وإدراك العالم"[7]، مبيّنا أن الناس "لا يعيشون فقط في نطاق عالم الأشياء الذي يحيط بهم وفي نطاق عالم الحياة الاجتماعية، بل يعيشون أيضاً في نطاق عالم لغة الأم"[8]، لأننا نبني العالم الّذي يكتنفنا ونكيّفه وفق عالم اللغة، إلى درجة إطلاقه أننا أسرى الألفاظ، بل ذهب إلى حد أبعد بإشارته التي تبدو –مبدئيا– غريبة حين سلّم بأن كل لغة لها ميتا فيزيقيا خاصة بها[9].

ومما سجّله أيضاً بنيامين لي ورف WHORF أن البنية اللسانية لكل لغة "لا تكوّن فقط الأداة التي تتيح التعبير عن الأفكار، وإنما تحدّد شكلها وتوجّه نشاط الفرد العقلي وتقوده وترسم الإطار الّذي تتحلل فيه تحاليله ومشاعره وشميلة كل الانطباعات في ذهنه، وليس صياغة الأفكار مساراً مستقلاًّ وعقلياً بحسب مفهوم هذه العبارة القديم، ولكنها مرتبطة ببنية قواعدية محدّدة"[10].

وبالنظر إلى وجود مبدإ التغيير ذاتيّاً داخل لغتنا بمعزل عن أي مؤثر خارجي كلما تغيرت قوالبها باطنياً، فإننا رأينا أن تودوروف يقول بهذا الخصوص: "إن نسب لغتين "أ" و"ب" لا ينطوي على تشابههما، فلغة (ب) يمكن أن تكون مختلفة جذرياً عن لغة (أ) مع أن الأولى (ب) منحدرة من (أ)، وفي سالف الزمان، كان البحث في الأنساب اللسانية لا ينجز إلا بمعية البحث في تشابهات، وبالعكس كان يستخدم الاختلافات لمقاومة فرضية هذا السبب، إن الاعتقاد بالتغيير الطبيعي يقودنا على عكس هذا إلى أن نبحث حجة القرابة داخل هذه الاختلافات نفسها[11].

وهذه الطروحات التي وقف عليها مختلف اللسانيين المحدثين تقودنا إلى تفكير مَليّ، ووقوف طويل، لنخرج منهما في النهاية بنتيجتين:

ـ أُولاَهما أن اللغات لا تتغير في كل حال وفق إرادة بشرية واعية، ولكن وفق ضرورة داخلية أيضاً لا تستوعبها في حينها، أي أن لغتنا بقدر ما تُحوّل تارة أخرى، وهذه الأطروحة صارت أكثر قبولاً عندما شرع اللسانيون يميزون بين علاقتين ممكنتين بين كلمة a لعصر A، وبين كلمة b مثيلة لعهد B لاحِقٍ إذا صيغت b بوعي تام على غرار نموذج a، أي هذا اللفظ مستعار مبتعث من حالة لغة ماضية، ككلمة Hôpital (مستشفى)

الفرنسية، والتي صيغت في عصر معين للكلمة اللاتينية Hospital، وبالمقابل تكون هناك وراثة إذا كان المرور أو الانتقال من A إلى B غير واعٍ، مما يذهب بنا إلى القول بأن كلمة قد تأتي متباينة لنظريتها بعامل الوراثة، وهذا يسلّم حتماً بوجود أسباب طبيعية للتغيير اللغوي[12].

ـ وأخراهُما أن ما يحدث من تغير لساني يُعدّ منتظماً، ويحترم التنظيم الداخلي للغات، ولا يتم بأي طريقة كانت، مما جعل اللغويين منذ القرن الثامن عشر، وخاصة في القرن التاسع عشر، ينظرون إلى التغيير اللغوي الداخلي كنظرة عالم الكيمياء حين يمرّ من L'alchimie (الكيمياء القديمة) إلى La chimie (علم الكيمياء الحديث)[13]، ويحدث كل هذا دون أن يكون للمتكلمين أي إحساس بأن اللغة التي يتكلمونها وتُتَكلّم حولهم تتوقف من أن تبقى مطابقة لنفسها كما كانت من ذي قبل[14].

ـ التعريب عامل داخلي في التنمية اللغوية

ولا يمكن أن نستمر في فكرة جزئية الحديث عن التنمية اللغوية الذاتية أو الآلية، أي ذلك التحرك الديناميكي المنبثق من ذات اللغة نفسها دون تقاطع ولا تفاعل مع أية لغة أخرى، وكل المختصين يدركون التمييز بين ما يُنمّى لسانياً من الداخل، وما ينمّى من الخارج في لغة من اللغات، وكل اللسانيين يعرفون أن التنمية اللغوية من الداخل تنطلق من بنات العناصر اللسانية نفسها، مثال ذلك أن التعريب اللفظي الّذي حدّد شروطه الفَقْلَغِيُّون (فقهاء اللغة) العرب القدماء تحديداً واضحاً يُعدّ تنمية داخلية حتى لو كان اللّفظ المعرّب أجنبيّا، وتعريف العرب بأن المعرب "هو ما استعملته العرب من الألفاظ الموضوعة لمعانٍ في لغتها"[15] أو "أن تتفوّه به العرب على منهاجها"[16]، يشير إلى إدماجه وإخضاعه إلى ضوابط

اللغة العربية، وحدّده أبو حيان في الارتشاف: "الأسماء الأعجمية على ثلاثة أقسام: قسم غيّرتْه العرب وألحقته بكلامها، فحكمُ أبنيته في اعتبار الأصلي والزائد والوزن حُكمُ أبنية الأسماء العربية حُكْمُ أبنية الأسماء العربية الوضع، نحو درهم وبَهْرج[17]، وقسم غيّرته ولم تلحقه بأبنية كلامها، فلا يُعْتبر فيه ما يُعتبر في القسم الّذي قبله، نحو آجرّ وسِفْسِير[18]، وقسم تركوه غير مُغَيّر، فما لم يلحقوه بأبنية كلامهم لم يُعدَّ منها، وما ألحقوه بها عُدّ منها"[19].

أياً كان الأمر، فإن المعرب الذي قد يطلق عليه أيضاً الدخيل إذا أمكن تهذيبه وفق الأصوات العربية والذوق والحس العربيين المألوفين في اللغة العربية، وتكييفه بالكيفية التي تقتضيها قواعد اللغة العربية، فإنه يكون أكثر حظاً من الترجمة ليلتحق بالتنمية الداخلية، وأما إذا حافظ على بنيته الأعجمية التي أصبحت مع ذلك لفظة دخيلة، واستعصت على صياغة مواد انشقاقية منها كالفردوس، والقسطاس، والسجنجل، والنرجس، والصَّوْلَجَان، والسفرجل، والقرنفل،... فإن ذلك مما يدخل في التنمية الخارجية التي لا تخلو منها أية لغة مستعملة حضارياً في العالم، علماً بأن ليونة اللغة العربية ربما لا تمنع أحداً من أن يشتقّ ويقول: فَرْدَسَه، وقسْطسه، وسَجْنَلَه، ونَرْجَسَه، وصَوْلَجَه، وسَفْرَجه، وقَرْنَفَه،...لتبقى المشتقات مفتوحة لبناءات أخرى،...

ـ تراثنا اللغوي وصناعة المصطلح

ما قد لا يختلف فيه باحث معنا أن نؤكد ما أومأنا إليه آنفاً أن التنمية الداخلية في لغة كالعربية الثرية في تراثها بألوف من المصطلحات التي يمكن

لألفاظ معتبرة منها أن تعبّر عن مكنون ما غدت تفتقر إليه في تعابيرها الحديثة أمام شراسة لغات عصرية لم يَعُدْ لنا اختيار لإتقانها والاستعانة بها لإثراء لغتنا الغنية الفقيرة، إذ من غير المنطقي أن نقلب ظهر المجنّ لكلمات عربية أصيلة جاهزة يمكن أن تُضفِي دلالتها على ما حدّ من مصطلحات عصرية، ونلجأ إلى طرق أبواب لغات أخرى مع ما فيها من النفور والصعوبة والاختلاف "فَلْنُفَتِّشْ أولاً في تراثنا القديم عن جهود العلماء ذوي الاختصاص فيما استخدموه من المصطلحات العلمية، ما استعمله العرب من كلمات صالحة للاستخدام في العلوم، ثم نلجأ إلى وسائل الصياغة التي أقرها أيضاً ذوو الاختصاص من علماء اللغة قديماً وحديثاً للحصول على ما يعوزنا من مصطلحات جديدة، فإذا لم يسعفنا هذا ولا ذاك كان التعريب بشروطه آخر الحصون التي تلجئنا إليها الضرورة"[20].

وأبواب التراث اللغوي العربي الهائل غير موصدة أمام أي إرادة عربية تلتفت إلى ذلك نظرياً وعملياً، فتراثنا اللغوي "قد عبر عن كل ما يشاهده الإنسان، وما يفكر فيه أو يحسه ويتناول أفراحه وأتراحه وصحته ومرضه، ووصف ظواهر الطبيعة ومكونات الأرض وطبقات الجو واتجاهات الريح وهبوب الأنواء، وأحوال المياه في البحار والأنهار"[21]

وأما طُرُق "التَّصْييغ" لصيغ جديدة تُحْدَث لضرورات علمية وثقافية، فإنها مألوفة وديناميكية جداً، بل وديعة لسانياً في اللغة العربية، ولا تحتاج إلى تذليل، ومما تُحمد عقباه هنا أن علماء العربية لا يختلفون فيها لوضوحها وإقدام القدماء على ممارستها إجرائياً، وقد لخصها أبو علي الفارسي بقوله الشهير: "ما قيس على كلام العرب، فهو من كلام العرب"، ولذلك حين عوتب الزمخشري الذي خرق فترة الاحتجاج اللغوي، حيث

كان لا يرى غضاضة في الاستشهاد بالفصحاء من الشعراء كأبي تمام قال: "إني أجعل ما يقوله بمثابة ما يرويه" [22].

إن الفقلغيّين العرب القدماء تجاوزوا كل إشكال من إشكالات المعرب أو الدخيل الذي أصبح متداولاً تلوكه الألسنة العربية أو المتعربة، وقبل مجيء الإسلام، وحين صُنِعت القواعد العلمية ضُبِطَت الفجواتُ التي تميز لفظة عربية من لفظة أعجمية، فَهذا الخليل بن أحمد يطالعنا في عصر مبكر جداً من بداية طُفُوّ اللسانيات العربية إلى الوجود وازدهارها بقوله: "وليس للعرب بناء في الأسماء ولا في الأفعال أكثر من خمسة أحرف"[23]، و"عنكبوت" أصلها عَنْكَبٌ بدليل جمعها عناكب، وعندليب أصلها عَندل بدليل جمعها عنادل، ولذا تصغّران على وزن "عُنَيْكب" و"عُنَيْدل"، ولعل قول الخليل التالي: "فإن وردت عليك كلمة رباعية أو خماسية مُعَرّاة من حروف الذّلَقِ أو الشفوية[24]، ولا يكون في تلك الكلمة من هذه الحروف واحد أو اثنان أو فوق ذلك فاعلم أن تلك الكلمة محدثة مبتدعة، ليست من كلام العرب، لأنك لست واحداً من يسمع كلام العرب كلمة واحدة رباعية أو خماسية ألا وفيها من حروف الذلق والشفوية واحد أو اثنان أو أكثر،...

وأما الرباعي المنبسط، فإن الجمهور الأعظم منه لا يعرى من الحروف الذَّلَق أو من بعضها، إلا كلمات نَحْواً من عَشْرٍ جِئْنَ شَوَاذَّ، ومن هذه الكلمات: العسجد[25] والقسطوس[26] والقُداحس[27] والدعشوقة[28]... وليس في كلام العرب دُعشوقة ولا جُلاهِقٌ، ولا كلمة صدرها (نر)، وليس في شيء من الألسن ظاء غير العربية، ولا من لسانٍ إلا التَنُّورُ فيه تَنُّورٌ"[29].

ووسّع علماء اللسان العربي هذه النظرية الخليلية التي مهّد بها السبل الرشيدة لمن جاء بعده، فإنك حين تتصفح معجم "الصحاح" تجد إسماعيل بن حماد الجوهري يشير عرضاً إلى طبيعة الكلمة العربية من غيرها: "الجيم والقاف لا يجتمعان في كلمة واحدة من كلام العرب، إلا أن يكون معرباً أو حكاية صوت، نحو (الجَرْدَقَة)[30] وهي الرغيف، و(الجرمُوق) الذي يُلْبَس فوق الخُفّ، و(الجرامقة) قوم بالموصل أصلهم من العجم، و(الجَوْسق) الْقِصَر، و(جِلِّقٌ) بالتشديد وكسر الجيم واللام موضع بالشأم، و(الجُوَالق)، وعاء والجمع الجَوَالق بالفتح والجواليق أيضاً..."[31]، ومثل ما تقدم الجُلاهق (البندق)، والمنْجَنيق، وهي آلة ترمي بها الحجارة، وأصلها بالفارسية "من جى نيك" بمعنى ما أجودني، وهي مؤنثة، وقال العرب منها: "كُنّا نُجْنَق مرة ونُرْشَق أخرى" حيث نحتوا أو عرّبوا جملة كاملة في بناء واحد (منجنيق)، ثم راق لهم أن يشتقوا فعلاً، كأنما الاسم المعرّب ينطبق عليه ما ينطبق على أي فعل يؤخذ من أحداث الأسماء بمصطلح سيبويه ومذهب البصريين، وجُمِعَ منجنيقٌ على مَنْجَنيقَات، غير أن سيبويه، وهو الحجة، قاسه على "فَنْعَلِيل"، ذاهباً إلى أن الميم من نفس الكلمة، لقولهم في الجمع "مجانيق" وفي التصغير "مُجَيْنِيق،...

ـ سبل التنمية اللغوية في العربية

وإذا كنا أشرنا إلى ما أشرنا، فنحن واعون بما ألمحنا إليه نية وقصداً وعبرة، عسى أن نقتدي بمن سبقونا، وننحو نحوهم، ومن جهة أخرى أردنا أن نقف على حقيقة اعتبار التعريب تنمية لسانية داخلية إلى جانب عوامل أخرى تشترك كلها في توليد المعاني الجديدة التي دأبت عليها العربية

القديمة، وإذا لم يُعَدْ لنا اليوم حقّ في مسّ ماهو ثابت فيها، فلا أحد يمنعنا من الاجتهاد المخلص، لا الاجتهاد المغرض، لنولّد معاني ونصنع مصطلحات وفق الوسائل التقليدية المألوفة في اللغة العربية، فلا أحد يشاكس هيئة علمية لغوية أكاديمية إذا جنحت إلى وضع ألفاظ للتعبير بها عن كل اختراع علمي يناسبها، ولا أحد يجادلك في أن تشتق على هيئة ما اشتق العرب ما يعوزك من كلمات وُلِدَت معانيها، وتسرّبت بأصواتها الأجنبية إلى العربية، بل يعدّ الاشتقاق أهم وسيلة لتوليد المعاني وفبركة المصطلحات "إذ بواسطته نستطيع أن نولّد الكثير من المعاني، وأن نضع أسماء لكثير من الآلات، كما فعلنا في الدبابة والطيارة والسيارة والغوّاصة والهاتف والمذياع، فإنّ عزَّ الاشتقاق ففي غيره مندوحة"[32].

اللغة العربية التي قال فيها غوستاف لوبون: "إن اللغة العربية ذات أثر عميق في اللغات اللاتينية، وقد ألّف دوزي وانجلمن معجماً من الكلمات الإسبانية والبرتغالية المشتقة من اللغة العربية، وتركت لغة العرب أثراً مهماً في فرنسة نفسها"[33] وغيره من المستشرقين الموضوعيين، لا تستعصي على ذي إرادة، وصاحب اطلاع على ما تكتنز في تراثها العلمي والأدبي، ونصها القرآني، إذا أراد أن يتّبع سُنَنَها المعهودة في الخلق والابتكار لمائات وألوف من المصطلحات التي تشكو من فقرها أو انعدامها عربيتنا المعاصرة،وما يوجد بين ظاهرة ممتدة في سيرورة الزمن مما قد يبدو لنا تغييراً هو في واقع أمره لا يعدو أن يكون أكثر من فوارق ضئيلة بعضها يلاحظ ويؤثر نسبياً، وبعضها الآخر ربما لا يشعر به البتة، طالما أن الظاهرة هي ذاتها، وتقاوم من أجل البقاء والثبات، وهذا حال لغتنا العربية التي لم

تتغير فيها سبل تنميتها من الداخل إلا قليلاً، فنحن كلما رُمْنا ذلك، وجدنا أمامنا تلك السبل جاهزة تحتاج فقط إلى تهيئة علمية أسوة بما سبق أن هُيّء منها فيما سلف في علوم اللغة، والآداب، والفلسفة، والإدارة، والتاريخ، والبريد، والاستشفاء، والرياضيات، والفلك،...

وسبل التنمية اللغوية من الداخل، ولعل أهمها:

1- الاشتقاق.

2- النحت.

3- القياس.

4- المشتقات بأنواعها وصيغها.

5- المصدر الصناعي.

6- الوضع حقيقة ومجازاً.

7- التعريب.

8- الاستئناس بصيغة من الصيغ التي لا تنسجم مع ما تقدّم، وأعني بالاستئناس، بوجه أخصّ الاقتراض، وهو مثار جدل طويل بين المجمعيين العرب، وأخشى ما يخشاه المرء في هذا النوع أنك قد تقترض كلمة أجنبية وتحاول أن تكيّفها مع الأصوات العربية، وربما أجهدت نفسك في البحث عنها داخل العربية دون طائل منك، فتقرّها بصورتها الأجنبية،وإذا بك تعثر على أصالتها في العربية أو تعلم من عثر عليها لاحقاً، مما يجعل الشيوع يسود لهذه الكلمة أو تلك، وأشار غير واحد من المختصين إلى أن المصطلح الأجنبي قد لا يصل في أداء الغرض الدلالي ما يؤدّيه المصطلح العربي المباشر "على أنه كثيراً ما نجد المقابل العربي أكثر دقة وأقرب إلى المدلول العلمي للمصطلح من اللفظ الأجنبي المقابل"[34]، وهذا رأي الدكتور دفع الله الترابي، وأما الدكتور جميل الملائكة، فيقول:

"إن المصطلح الأجنبي قد لا يكون في كل الحالات موفقاً كل التوفيق في تأدية المعنى المراد به، وقد يكون مغلوطاً أصلاً، مما جعل بعض المجمعيين العرب يقول: "لا يشترط في المصطلح أن يستوعب كل معناه العلمي"[35]، والفكرة أقرها المكتب الدائم لتنسيق التعريب في الوطن العربي.

9- النقل الدلالي، من الباحثين القدماء والمجمعيين المحدثين من يتحفظ في المصطلح الناتج عما يمكن أن يُسمّى بالنقل الدلالي، أي يُبقى على الدالّ الصوتي نفسه على أن يُضفى عليه مدلول جديد، لنجد أنفسنا أمام ما يُدعى بالمشترك، وهو كما أشرنا، "اللّفظ الواحد الدالّ على معنيين مختلفين فأكثر دلالةً على السواء عند أهل تلك اللغة، واختلف الناس فيه، فالأكثرون على أنه ممكن الوقوع... والأكثرون أيضاً على أنه واقع لنقل أهل اللغة ذلك في كثير من الألفاظ، ومن الناس من أوجب وقوعه، لأن المعاني غير متناهية، والألفاظ متناهية، فإذا وُزّع لَزِم الاشتراك"[36].

النقل الدلالي من أهم السبل التي عملت عملها القديم والحديث في تنمية اللغة العربية من الداخل تنمية آلية ومباشرة، ولا أحد يستطيع أن يقاومه أو ينكره، ومحاولة ردّه لا يعني إلا ضرب العربية في لبّها وصميمها، لأنك ستعطّل أهم مُولّد فيها، بل قد تلغي ثلثيها أو أكثر، لأن العربية ألفت التعبير بدالّ واحد على عدة مداليل، لم يمعنها ذلك من أن تقول مثلاً:

ــ الحدْس: الظن والتخمين، وهو يحْدسُ أي يقول شيئاً برأيه.

ــ الحَدْسُ: الذهاب في الأرض على غير هداية، وقال راجزهم:

كأنها من بَعْدِ سَيْرٍ حَدْسِ

حتى وإن كنا نشتم التقاطعات الدلالية بشكل من الأشكال، لكن ماذا نقول في اشتراك آخر مثل قول العرب:

- العجوز (لا يقال عجوزة بالتاء) المرأة الكبيرة.
- العجوز: الخمر لِعَتْقِهَا أي لِقِدَمِهَا.
- العجوز: نصل السّيف.
- العجوز: رملة بالدّهْناء (موضع ببلاد تميم، النسبة إليه دَهْناويّ).
- أيام العجوز عند العرب خمسة أيام (صِنٌّ، وصِنَّبْر، وأُخَيُّهُما وَبْرٌ، ومُطْفِئ الجمر، ومُكفِئ الظُّعن، ولربما قيل: هي سبعة).

ولك أن تتذكر ما تشاء من ألوف أو آلاف من الدوال التي تدل على أكثر من مدلول دون قلب ولا إبدال، ولا تقديم ولا تأخير، ولا زيادة ولا نقصان في صوت من أصواتها، فلك أن تتأمّل "العَيْن"، "النَّوى"، "الرُّوبة"، "الأرض"، "الهلال"،... أو سوى هذه الوحدات لتقف على شرعية النقل الدلالي الحديث أسوة بالنقل الدلالي القديم، ولا فرق،...

ولعل ما ذكره ابن فارس يوضح تبليغنا أكثر من تبليغنا نفسه، فمِمَّا ذكره بعد حديث مستفيض: "فكان مما جاء في الإسلام ذكر المؤمن والمسلم والكافر والمنافق وأن العرب إنما عرفت المؤمن من الأمان والإيمان وهو التصديق، ثم زادت الشريعة شرائط وأوصافاً بها سُمّي المؤمن بالإطلاق مؤمناً، وكذلك الإسلام والمسلم، وإنما عرفت منه إسلام الشيء، ثم جاء في الشرع من أوصافه ما جاء، وكذلك كانت لا تعرف من الكفر إلا الغطاء والسّتْر، فأما المنافق فاسم جاء به الإسلام لقوم أبطنوا غير ما أظهروه، وكان الأصل من نافقاء اليربوع، ولم يعرفوا في الفِسْقِ إلا قولهم فَسَقت الرُّطبة إذا خرجت من قشرها، وجاء الشرع بأن الفِسْق الإفحاش في الخروج عن طاعة الله –عزّ وجلّ– ومما جاء في الشرع الصلاة،

وأصله في لغتهم الدعاء، وقد كانوا عرفوا الركوع والسجود، وإن لم يكن على هذه الهيئة..."[37]. وهكذا بقية التحولات الدلالية الذاتية كالصيام، والزكاة، والحج، والعمرة، والجهاد،... وعلى هذا يقاس سائر ما لم يذكر من العلوم العقلية والنقلية، إذ مصطلحات الأصوات والنحو والصرف والعروض والبلاغة وحدها تمثل العجب العجاب من هذه التحولات الدلالية، والتي تُعدّ بالألوف.

وكان العلمغيون العرب (علماء اللغة) موفّقين غاية التوفيق لما أشاروا إلى الدلالة الثنائية في الدالّ الواحد، فالمعنى الأصلي للدال نفسه معنى لغوي، والمعنى المتحوَّل إما شرعي إذا كان متعلقاً بالمصطلح الشرعي، وإما صناعي إذا كان يعني مجالاً لسانياً أو فلسفياً أو علمياً...الخ.

وهناك مجمعيون عرب محدثون حاولوا أن يفصلوا الموضوع فصلاً لا يخلو من اللبس، فبحسبهم أننا نختار اللفظة الأولى في حالة المترادفات، وهذا ما نصّت عليه إحدى ندوات المكتب الدائم لتنسيق التعريب في الوطن العربي: "عند وجود ألفاظ مترادفة أو متقاربة في مدلولها ينبغي تحديد الدلالة العلمية الدقيقة لكل واحد منها، وانتقاء اللفظ العلمي الذي يقابلها، ويحسن عند انتقاء المصطلحات من هذا النوع أن نجمع كل الألفاظ ذات المعاني القريبة أو المتشابهة الدلالة، وتعالج كلها مجموعة واحدة"[38]، على أن نركّز على اللّفظة التي يوحي جذرها "بالمفهوم الأصلي بصفة أوضح"[39].

في حين يرى لغويون محدثون آخرون أن توليد مصطلح بوساطة النقل الدلالي، وأفضّل أن أسميه التحوّل الدلالي، يؤدّي إلى نتيجة حتمية تؤول إلى الاشتراك اللفظي، فكلمة "سيارة" مثلاً كان يعني بها قديماً

القافلة، ولما تحولت دلالياً في ذاتها إلى إطلاق آخر، صار لها معنيان، وهذا هو معنى الاشتراك اللفظي، وأما إذا استعمل المصطلح الأجنبي كما نستورده أو نقترضه في صورته الأصلية، فلا يكون أمامنا إشكال الاشتراك اللفظي.

إن العربية حتى الوقت الراهن، ونحن نعبر العقد الأول من الألفية الثالثة، لا تتوفر على معجم دلالي تاريخي لألفي سنة على الأقل من العطاء، وهذا يصعّب الاستئناس بترجيح مفهوم أصلي وآخر فرعي، أو مدلول سابق وآخر لاحق، إلا إذا نهضنا باللغة العربية التاريخية مثلما تنهض الشعوب الحية والمحترمة بلغاتها، وهذا لن يتحقق بين عشية وضحاها في ظل التفكك العربي المؤلم حالياً، ولكننا مع ذلك لا نفضل المصطلح الأجنبي، في ظل ما يكتنف المصطلح العربي، إلا انتقالياً حتى لا يكون المصطلح أمامنا عائقاً لمسيرتنا الحضارية، وحركتنا التنموية، ومقابل هذا يجب أن نضبط شروطاً صارمة لأي مصطلح أجنبي حتى لا يختلط الحابل بالنابل، فعلماؤنا الأقدمون، وعلى الرغم مما كان يثار في زمنهم من جدال بين الفقهاء واللغويين حول وجود كلمات أجنبية من عدم وجودها في القرآن الكريم، شمروا عن سواعدهم، وشحذوا عقولهم النيرة، وضبطوا الأدلّة والمعالم التي تَقِفُك على معرفة عُجْمة أي لفظة متداولة في اللغة العربية[40]:

1- أن يصدر ذلك عن أحد العلماء الضليعين من أئمة العربية.

2- ألا يتوافق الاسم مع أحد الأوزان العربية.

3- إذا ورد اسم صدره أو مقطعه الأول "نر" فهو ليس بعربي.

4- إذا كان في آخر اسم زاي بعد دال (مهندز)، فذاك أجنبي.

5- إذا اجتمع في رسم جيم وصاد (جصّ)، فهو أجنبي.

6- إذا اجتمع في اسم جيم وقاف (منجنيق)، فليس بعربي.
7- كما قال الخليل بن أحمد، أي أن يكون الاسم خماسياُ أو رباعياً عارياً من أحد أصوات الذلاقة (ب، ر، ف، ل، م، ن).

إن تحولات الاصطلاحات الدلالية تحوّل دائم وقويّ في تنمية أية لغة داخلياً، وذلك أولى وأشرف لها من أن تمد يدها إلى سواها سواء أُثْرِيت وأُعْطِيَتْ أم مُنِعَتْ لأسْبَابْ لسانية بحتة.

إن لغتنا ورشة صناعية وضعت للفبركة والإنتاج بفضل أصواتها، ووحداتها الدالة، ولواحقها وسوابقها، ومشتقاتها ومجازاتها، ولم يعد اللسانيون المحدثون ينظرون إلى لغة من اللغات تلك النظرة الرّنانيّة الميتافيزيقية للغات على أنها تنقسم إلى لغات بدائية أو حسّية أو شيء من هذا، ولغات أخرى حضارية شفافة مرهفة"[41].

ويجب أن نفكّر ملياً في هذا التحوّل الدلالي كعامل من عوامل التنمية اللغوية من الداخل بأنه لا يحدث صدفة في تبدّل العلامة اللسانية في شق مدلولها، فتحوّل ألوف من الألفاظ العربية من معنى قديم إلى معنى جديد لدليل على حركية اللغة من جهة، ومؤشر على اعتباطية الدال في كل حال، "وهو غير ملزم بعقد اجتماعي ثابت، وإلا بطل التحول من دلالة إلى دلالة ثانية وثالثة... وبالتالي تُسْتبعد الآراء المناهضة لمذهب التواضع والاصطلاح في اللغة"[42].

وليس باطلاً أن يسودنا الاعتقاد بأن التحول الدلالي في اللغة العربية الحديثة "حدثاً جديداً كل الحداثة، بل هو ظاهرة من ظواهر اللغة العربية تاريخياً، وخاصيّة من خاصيّاتها آنيّاً، فهي لغة ماثلة أبداً في محور سكوني وآخر تطوري، وبعبارة أخرى فإن الوحدات الدلالية في

العربية وحدات دلالية مفتوحة لا مغلقة"[43]، وكان سيبويه العظيم في مدخل كتابه أشار، قبل غيره من المحدثين، على المستوى الإفرادي والتركيبي إلى شيء من هذا التحول دون بسطه.

وحتى لا نُفْهَم خطأ نرى أن نُنَبّه بأن "المداليل المختلفة لدالّ واحد، كما هو الحال بالنسبة للفعل (وجد)، ربما لا تتم بالوحدة الأصلية للدالّ منعزلاً عما عداه من عناصر لغوية تعقبه أو تحيط به، فضلاً عن اكتفاء الدال كالفعل (وجد) هنا بعنصرين أو ثلاثة، مع اختلاف هذه العناصر: أهي اسمية أم حروف جرّ؟ ومعنى حرف (الباء) غير معنى حرف (على)"[44].

ومما تقدم من إثارات بشأن سبيل التنمية اللغوية من الداخل كطاقة لسانية خلاّقة، وظاهرة فريدة تتميز بها اللغات للإنسانية، لا يعني أن اللغة العربية منزّهة أو آمنة عن أية تنمية خارجية، فكل لغة تفتح صدرها للكلمات الثقافية والفنية والحضارية والعلمية التي تنعدم فيها لانعدام الأسباب المهيئة لها لتخلفها عن مواكبة النهضة الشاملة بسبب بُعْدِ متكلميها عن مسايرة ما يموج ويتحرك أمامهم في مجالات أصبح عسيراً، بل مستحيلاً عليهم أن يجاروها بلغة تفتقر إلى ألوف من المصطلحات التي تولد كل يوم بالمائات في المخابر، والاقتصاد، والبنوك، والاتصال، والجامعات، ومعاهد البحث،...

وأعتقد أنه بات مسلَّماً أن نستعين بالتنمية اللغوية في مستواها الخارجي على ألاّ نبالغ، وأن نكبح تفتحنا على المصطلح الأجنبي كلما وجدنا سبيلاً واضحاً ودقيقاً إلى مصطلح عربي أصيل، ولا بأس أن نعوّل على الترجمة كتنمية خارجية، وأن نجتهد في تعريب أي مصطلح أجنبي قبل تبنّيه على علاّته وفق الشروط التي نهجها علماؤنا القدامى.

ويمكن أن نلتزم بالأصوات العربية وحدها نظراً للتقاطعات الصوتية التي أمست تفرض نفسها، وتؤثر تأثيراً مباشراً فيما يُقْتَرَض من كلمات لا سبيل لنطقها إلا بصوتها الأصيل، خاصة حين ينعدم في اللغة العربية صوت يمكن أن يعوّضه فونيتيكياً أو فونولوجياً أو رسماً بأي شكل من الأشكال، إذ سبق لِلُغةٍ كالفرنسية أن اقترضت بعض الحروف مثل الصامت W، ومن أصل جرماني، وأي مانع لنا من أن نصلح رسمنا العربي انطلاقاً "من رسمه التاريخي دون أن نخلّ بجوهره، بحيث لا يشكّل خطراً على تراث اللغة العربية، مثال ذلك، فلماذا لا ندع الثاء غُفْلاً من النقاط ما دامت صورتها لا تلتبس بالباء والتاء والياء والنون؟

ثم لماذا لا نكتب: V الموجودة في عاميتنا ولهجاتنا وكلمات أجنبية دخيلة على شكل "ف" دون إعجام، ولا التباس في صورته مع الفاء والقاف في المشرق، ولا حتى مع الفاء والقاف في الخط المغربي؟ وإذا كان لابد من إعجام الثاء، فلماذا لا نرسم P اللاتينية على شكلها دون إعجام؟"[45].

الهوامش

1. الأبهل كما جاء في القاموس أنه حَمْلُ شَجرٍ كبير ورقه كالطّرفاء (شجر، وقال سيبويه: هي واحد وجمع، وقيل: واحدتها طَرَفَةٌ) وثمره كالنَّبْقِ (تخفيف النّبق بكسر الباء)، ولربما اتُّخذ منه دواء، فدخانه، كما ذكرت كتب اللغة يُسْقط الأجنة سَريعاً، ويُطلى بالعسل لينقَّى به الجروح الخبيثة، ويطلى به الإبل وغيرها، ويقال: قَطْرن الشيء إذا طلاه بالقطران، وفيه لغتان:

أ- فتح القاف وكسر الطاء، وبهذه اللغة قرأ السبعة قوله تعالى: ﴿سَرَابِيلُهُمْ مِنْ قَطِرَانٍ﴾.

ب- كَسْرُ القاف وكسر الطاء، وفي عاميتنا يُدْعى بهذه الكلمة على شخص في حالة الغضب "الله يَعْطكْ القَطْرَانْ" أي سلّط الله عليك مرضاً خبيثاً، ولربما استعمل الدعاء في معرض الذم، ويراد المدح تبعاً لسياق المقام.

2. "الأصوات والإشارات" ص: 62 أ.كندراتوف ترجمة شوقي جلال.
3. "التحولات الجديدة للسانيات التاريخية" ص: 48-49، عبد الجليل مرتاض.
4. المرجع نفسه ص: 54-55.
5. هناك من يرفض استعمال "بنيوي" مفضلاً عليها "بنوي" حيث يحذف الياء الأصل من "بنية"، وكل ما في الأمر أن العرب تقول: "البِنَى" و"البُنَى" و"البُنْيَة" و"البِنْيَة"... وكله بمعنى واحد، ولا يمكن لأحد أن يخطئ الآخر إذا لم يخرج على الاستعمالات العربية.
6. "الألسنية (علم اللغة الحديث)" ص: 64-65 د.ميشال زكريا.
7. "الأصوات والإشارات" ص: 65-66.
8. نفسه ص: 66.
9. انظر ص: 67 وما بعدها من المرجع نفسه.
10. "الألسنية (علم اللغة الحديث)" ص: 161.

11. *Dictionnaire des sciences du langage*, P20-21.

12. يراجع "التحولات الجديدة للسانيات التاريخية" ص: 55-56.

13. ينظر المرجع نفسه ص: 57.

14. *Eléments de linguistique générale* ,P173 André Martinet

15. "المزهر" 268/1.

16. نفسه، ص: 268.

17. بهرج معرب من الكلمة الفارسية نبهره، وهو الرديء من الدراهم.

18. سفسير فارسي معرب معناه السمسار.

19. المزهر 269/1.

20. مجلة كلية اللغة العربية (جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية) العدد التاسع سنة 1979 الرياض، ص: 55.

21. المرجع السابق ص: 56.

22. "طرق تنمية الألفاظ" ص: 25 د.إبراهيم أنيس.

23. "معجم العين" 55/1.

24. أصوات الذلق ستة، وهي: الراء، اللام، النون، الفاء، الباء، الميم.

25. العسْجد: الذهب، واستعملها الأعشى في شعره.

26. بناء ثلاث للقِسْطاس والقُسْطاس، أي الميزان.

27. القُداحس: الشجاع.

28. الدُّعشوقة: دُويبَّة كالخنفساء.

29. "معجم العين" 58/1-59.

30. الغريب أنيّ أعرف لأوّل مرة أن ما نطلق عليه في "القرية ELGARDA" التي تعني قطعة صغيرة من الخبز في بلدنا هو من "الجردة" الفارسية الأصل (راجع المعرب من الكلام الأعجمي على حروف المعجم ص: 163 للجواليقي).

31. "الصحاح" 1454/4.

32. "لغة الضاد (المجمع العلمي العراقي)" ص: 49 سنة 1998.

33. "حضارة العرب" ص: 441 قوستاف لوبون ترجمة عادل زعيتر.

34. "لغة الضاد (المجمع العلمي العراق)" ص: 216.

35. خلال ندوة أقامها المكتب المعني بالرباط سنة 1981.

36. "المزهر" 369/1.

37. "الصاحبي في فقه اللغة وسنن العرب في كلامها" ص: 79-80 أحمد بن فارس.

38. "لغة الضاد (المجمع العلمي العراقي)" ص: 218 سنة 1999.

39. نفسه، ص: 218.

40. راجع "المزهر"270/1.

41. مجلة اللغة العربية ص: 208 عدد: 9 سنة 2003 إصدار المجلس الأعلى للغة العربية (الجزائر).

42. السابق ص: 210.

43. السابق ص: 210.

44. نفسه ص: 212.

45. "دراسة لسانية في الساميات واللهجات العربية القديمة" ص: 156-157 عبد الجليل مرتاض.

دليل البحث

1. الأصوات والإشارات، أ.كندراتوف ترجمة شوقي جلال، ط: 1972، الهيئة المصرية العامة للكتاب.
2. التحولات الجديدة للسانيات التاريخية، عبد الجليل مرتاض، ط: 2005/3، دار هومة (الجزائر).
3. الألسنية (علم اللغة الحديث)، د.ميشال زكريا، ط: 1983/2، المؤسسة الجامعية للدراسات (بيروت).
4. المزهر، السيوطي، تحقيق جاد المولى وآخران، مطبعة عيسى البابي الحلبي (مصر).
5. طرق تنمية الألفاظ في اللغة، د.إبراهيم أنيس، مطبعة النهضة الجديدة، القاهرة.
6. معجم العين، الخليل بن أحمد، تحقيق: د.عبد اله درويش، مطبعة العاني، بغداد.
7. المعرب من الكلام الأعجمي على حروف المعجم، أبو منصور الجواليقي، تحقيق: أحمد محمد شاكر، ط: 1969/2، مطبعة دار الكتب (مصر).
8. الصحاح، الجوهري، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار،، ط:1984/3، دار العلم للملايين، بيروت.
9. حضارة العرب، قوستاف لوبون ترجمة عادل زعيتر.
10. الصحابي في فقه اللغة، أحمد بن فارس، تحقيق: د.مصطفى الشويمي، ط: 1963، مؤسسة أ.بدران للطباعة والنشر، بيروت.
11. دراسة لسانية في الساميات واللهجات العربية القديمة، عبد الجليل مرتاض، ط: 2005/2، دار هومة (الجزائر).
12. مجلة "اللغة العربية"، عدد: 9 سنة 2003، المجلس الأعلى للغة العربية (الجزائر).

13. مجلة كلية اللغة العربية (جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية)، عدد: 9 عام 1979، الرياض.

14. مجلة "لغة الضاد"، سنة 1998، المجمع العلمي العراقي.

15. مجلة "لغة الضاد" سنة 1999، المجمع العلمي العراقي.

16. *Dictionnaire encyclopédique des sciences du langage*, Edition du Seuil, 1972, Paris.

17. *Eléments de linguistique générale*, André Martinet, Armand colin, 1970, Paris.

العدول بين النحو والدراسات الأسلوبية
الآليات والغايات

أ.تيقرشة فازية
جامعة تيزي وزو

الملخص

يدور المقال حول قضية العدول، والمراد هنا بالعدول ذلك الأسلوب الفردي الذي يخرج عن النمط النحوي المعياري المعتاد لمقاصد بلاغية لا تفصح عنها الأساليب المباشرة. وقد تناولت هذه الظاهرة من وجهة نظر النحو على أساس أنه قواعد ومعايير تنتهك من طرف المتكلم. فلا يرقى هذا الكلام إلى اللغة المثالية (يسميها النحاة المدونة اللغوية) إلا أنه ليس من الكلام الملحون المرفوض. فالدارس النحوي يقف عند تعليل البنية المتفرعة عن الأصل الذي يجب أن يكون عليه الكلام. أما من وجهة نظر الدراسات الأسلوبية فإن الكلام الموزون على القواعد الثابتة القارة لا يخرج إلى أغراض معينة وبذلك لا تخدم اللغة مقاصد المتكلم المثالي الذي يعي الأنماط النحوية ويختار العدول عنها إلى ما يقتضيه المقام الذي أثاره. وهنا يكمن دور الدارس الأسلوبي في استثمار القواعد النحوية كأداة للكشف عن مواطن العدول وبذلك إبراز جماليات النص الأدبي.

مقدمة

يقوم النحو العربي على معايير وقواعد تمثل النظام اللغوي الذي يتحكم في الأداء الفردي، وفيه تتجسد قوانين النحو كاملةً، فتقعُ المقابلةُ بين ظواهر الاستعمال اللغوي الفردي أو الكلام وذلك النظام. وهنا يظهر العدول بدرجات متفاوتة. إنه يقع في إطار النظام اللغوي الذي يسمح بأشكال مختلفة من التحولات التي يستطيع الأفراد توظيفها في سياقها الملائم، فيتم الخروج عن النمط العادي للكلام بمخالفة مثالية اللغة وانتهاك قوانينها وأعرافها، مما يسهم في توليد المعاني المبتكرة.

ويتم البحث عن كيفية توظيف آليات النحو العربي للكشف عن مواضع العدول في الأسلوب باعتباره انحرافاً وخروجاً عن المألوف والمتعارف عليه بالتصرف في مختلف مستويات الكلام. وكيف يصبح النحو كشفاً عن مواضع العدول التي ترمي إلى مقاصد معينة للمتكلم بعد أن كان غاية في ذاته ولذاته، باستعمال آليات النحو وتقنياته داخل النص ولأجله. فصار النحو وسيلة في يد المتكلم يُسيرها حسب مقاصده وأغراضه طبقا للمقام الذي يكون فيه وأداة لدارس الأسلوب للتعرض إلى مختلف الأغراض الأدبية والمقاصد البلاغية الخفية في الخطاب الأدبي.

تعريف العدول

العدول لغة: تحمل مادة عدل في معناها المعجمي معان عدة منها، حاد، مال، ويقال: عدل عن الشيء عدلا وعدولا بمعنى حاد عنه ومال إلى غيره. ويقال عدل الفحل عن الضراب: أي تركه وانصرف عنه[1].

العدول اصطلاحا: شاعت ظاهرة العدول في الأساليب الأدبية. والأسلوب الفن من القول، وهو ما يجعل كل إنسان يتميز عن غيره من خلال تصرفه بمختلف مستويات الكلام. وهذا يعني أن اللغة نظام ثابت تمثله القواعد المعيارية المحددة لتتعرض هذه الأخيرة إلى مجموعة من المتغيرات المتعددة. "فنكون أمام ثلاثة مستويات من الاستعمال اللغوي ينتج عنها ثلاثة مستويات من المعنى: الأول: المستوى النمطي النحوي/ الثاني: المستوى الفني البلاغي/ الثالث: المستوى المرفوض (الخطأ)"[2] وعلى هذا الأساس قسم (تودوروف) الكلام "فالاستعمال يكرس اللغة في ثلاثة أضرب من الممارسات: المستوى النحوي والمستوى اللانحوي والمستوى المرفوض"[3] فأما المستوى الأول فهو النمط الثابت الذي يمثله المعيار أو النظام اللغوي بمختلف أبعاده الصوتية والتركيبية والنحوية والدلالية، وأما المستوى الثاني فهو رتبة الإبداع، وفيه يظهر العدول، إذ تنتهك وتخترق جوانب معينة من قواعد المستوى الأول وهذا هو المجال الذي لقى اهتمام المحدثين لغويين كانوا أم أسلوبيين على غرار القدماء. أما المستوى الثالث وهو المرفوض الذي يخرج عن نطاق الفصاحة والمنطق، فلا يمتثل لنظام اللغة ولا تتوفر فيه الفائدة المتمثلة في الإبداع.

وقسم اللسانيون المحدثون التراكيب اللغوية من حيث انسجامها مع نظام اللغة وقوانينها النحوية، أو مخالفتها لها إلى ثلاثة أنماط:

التراكيب الصحيحة: وهي الجمل الصحيحة من حيث النحو والدلالة. فهي جمل مفيدة، تؤدي معنى معينا، يحسن السكوت عنده، ولا ينتظر المتلقي معه غيره.

التراكيب الفاسدة: وهي الجمل غير الصحيحة نحويا، والتي لا إفادة فيها لفسادها على المستويين النحوي والدلالي.

التراكيب المقاربة: ويطلق عليها أيضا اسم (الجمل غير النحوية) وهي الجمل البينية التي لا تتوافر فيها شروط الصحة الكاملة كما في التراكيب الصحيحة. وليست أيضا فاسدة، فهي وإن تضمنت معنى وإفادة يحسن السكوت عندها، تعد من حيث قواعد اللغة غير صحيحة، لعدول تركيبها عن المعيار الذي تخضع له التراكيب اللغوية[4]. والملاحظ أن البلاغيين واللسانيين اتفقوا على أن العدول يتم في مستوى وسط، يقع بين مستوى أول، لغته ذات تراكيب صحيحة لا جدال فيها ومستوى فاسد لا يتم به المعنى. فوقع الاهتمام على المستوى الوسط حيث يتم خرق النظام اللغوي وتجاوزه مع بقاء الفائدة.

مصطلح العدول عند القدماء والمحدثين: عرف العدول في اللغة العربية منذ عصر الاحتجاج اللغوي. تطرق إليه العرب في العصر الجاهلي لفهم المقاصد الشعرية خاصة، كما عرف في لغة القرآن الكريم. والملحوظ في تناول القدماء لهذا المصطلح أنه موجود في معظم الكتب النحوية والفقهية أو كتب الأصول، وبتسميات مختلفة منها: العدول والخرق والخروج عن سنن اللغة، والمجاز، والالتفات، وشجاعة العربية... إن هذه المصطلحات العديدة الدالة على الأرجح على مفهوم واحد تحيلنا إلى إشكالية تعدد المصطلح العلمي الذي يعقد الدرس النحوي خاصة والعلمي عامة. وأما هذا التعدد فقد يرجع إلى سببين:

الأول: اختلاف مجالات المتناولين له من مفسرين ونحاة وبلاغيين، فلكل فريق من هؤلاء مصطلحاته الخاصة، والتي قد تكون في أحيان كثيرة ذات دلالة واحدة. فلا يستبعد مثلا أن يطلق النحاة على العدول مصطلح (نقض العادة) بينما يسميها البلاغيون (المجاز والالتفات وشجاعة العربية) في حين يسميها فقهاء اللغة (سنن العربية وأسرار العربية).

الثاني: تعقد مسائل هذه الظاهرة وتشعبها، فقد كان القدماء يستخدمون هذه المصطلحات المعبرة عن ظاهرة العدول في كل خروج عن النمط المعروف للغة. فهو إذن مصطلح واسع الدلالة، يمتد ليشمل مستويات اللغة كلها. إختلفت مستويات العدول انطلاقا من معايير مختلفة ومصطلحات تخص كل فريق إن لم نقل كل عالم. وكانت ظاهرة تعدد المصطلح للمعنى الواحد شائعة لم تقتصر على العدول، إلا أن هذه المعضلة لم تمنع القدماء من استعمال هذا المفهوم في عدة مقامات بمعنى الانصراف أو الميل عن المألوف من قواعد اللغة وأقيستها، سواء كان ذلك في باب المطابقة، كما هو الحال في علامات الإعراب والبناء أو في غيرها من مستويات اللغة. فنجد أن سيبويه استخدم العدول بمعنى الخروج عن أنماط اللغة والشائع المطرد من قوانينها. فالعدول في تراثنا النقدي يدور حول عدة مدلولات، أولاً: العدول عن طريقة السابقين/ ثانياً: العدول عن الحقيقة إلى المجاز/ ثالثاً: العدول عن الصور القريبة إلى الصور الغامضة/ رابعاً: العدول عن الأبنية والصيغ.

أما في الدراسات الحديثة، فتعاني اللغة العربية مشكلة المصطلح العلمي رغم المجهودات الكبيرة لتوحيده. فمفهوم العدول عند المحدثين ــعلى غرار القدماءــ يعاني من تعدد مصطلحاته، رغم أنه قد تحدد أكثر من السابق إذ أصبح كل مصطلح يستعمل بكثرة في مجال دون المجالات

الأخرى، إلا أن هذا لا ينفي ظاهرة الانفلات والتشعب التي يعانيها المصطلح بشكل عام. "وتتخذ صورة فوضى المصطلح النقدي العربي وقلقه أشكالا متعددة، ومن أمثلتها تعدد المصطلح في كتابات الناقد الواحد، ويتجلى هذا الأمر عند كمال أبي ديب الذي سماه مرة الانحراف وأخرى الانزياح[5]" ويظهر هذا التشعب أيضا عند اللسانيين، قال المسدي: "هذا العدول قد عبر عنه في الدراسات الحديثة بمصطلحات عديدة منها: الانحراف والانزياح والاختراق والانتهاك والتجاوز والمخالفة واللحن وخرق السنن والشناعة والإطاحة والتحريف"[6]. ورغم هذا التعدد في المصطلحات يبقى المفهوم واحدا. فكلها تنصب في معنى انتهاك وكسر الأعراف اللغوية التي يستخدمها المتكلم مع تحقيق الفائدة.

التمييز بين هذه المصطلحات: من العلماء من نفى ظاهرة المترادف من اللغة. فكل ما يوحي ظاهره بالترادف، تكمن فيه فروق دقيقة تجعله من المتباين. فهل في مفهوم العدول ترادف في المصطلحات التي تدل عليه أو أن هناك فروقا دقيقة يختص فيها كل مصطلح بمجال من مجالات العدول الشائعة. أم هل أنها تعبر هذه المصطلحات عن مرحلة من مراحل البحث في هذه الظاهرة، حيث لم يتوصل الباحثون إلى ضبط هذا المفهوم بمصطلح واحد، كما هو حال مفاهيم كثيرة في بداية ظهورها، على أن يتم تجاوز ذلك بمرور الزمن وتطور الأبحاث؟

إن تعريفات العلماء جميعها قد جعلت في خط أفقي، إذ تتفق الآراء على نقطة واحدة بلا اهمال لهذا التعريف. أما مشكلة تعدد المصطلحات وتضاربها، فيعود لطبيعة هذه الدراسات من جهة واختلاف مناهج البحث

وتعدد مذاهب الباحثين والمجالات التي ينتمون إليها من جهة أخرى. ولهذا رأيت أن أدرج عنصرا آخر في هذا البحث، أميز فيه بين مصطلح العدول وما يندرج تحت هذا المسمى. لعلنا نكشف عن نقاط التعقيد ونجلي الغموض والضباب عن مسائله.

بين العدول والانحراف

تدل مادة (ح ر ف) في لسان العرب على الميل. وفي حديث ابن مسعود: موت المؤمن بعرق الجبين تبقى عليه البقية من الذنوب فيحارف بها عند الموت أي يشدد عليه لتمحص ذنوبه[7]. ومن الملاحظ أن المعنى المعجمي لمادة (حرف) يحمل مفهوم الخروج عن المعنى الأصلي لتوليد معان جديدة، ومن أجل هذا ارتبط مصطلح الانحراف في الدراسات الحديثة بالعدول أكثر من ارتباطه بالمصطلحات الأخرى التي قد تدل على نفس المعنى. وقد شاع بين الباحثين المعاصرين عامة والأسلوبيين منهم خاصة من خلال الترجمات والاطلاع على الدراسات النقدية الغربية الحديثة "إذ إن هذا المصطلح قد عرف بالفرنسية على أنه (Ecart) وبالإنكليزية (Deviation) وقد اختلفت تسميات هذا المصطلح في النقد الغربي وذلك باختلاف النقاد الذين تعاملوا معه"[8]. فظهور هذا المصطلح عند الغرب وترجمته الفورية دون الرجوع إلى التراث العربي القديم جعل هذا المصطلح يشيع وينافس المصطلح الأصيل المستعمل عند العرب القدماء وهو العدول عن وجه آخر لا يخرج على القواعد النحوية الضابطة للنظام اللغوي إلا لغاية تحقيق القصد الذي لا يتم في الجهة الأولى (دون عدول).

بين العدول والانزياح: يعرف الانزياح لغة بأنه الابتعاد عن الشيء. ورد في لسان العرب "نزح الشيء ينزح نزحا ونزوحا بعد وهو من مادة نزح"[9]. وفي

معجم العين: نزح، نزحت الدار تنزح نزوحا أي بعدت، وَوَصْل نازح أي بعيد، قال: "أم نازحُ الوصْل مِخلافٌ لشِيمته"[10]. ورغم ما يحمله هذا المصطلح من نشوز كلي عن الأصل الذي عدل عنه الشيء كما هو واضح من التعريف المعجمي للكلمة، نجد الانزياح من المصطلحات المتداولة التي تطلق للدلالة على العدول عن النمط العادي للغة. ويقول الجطلاوي، مبينا استعمال هذه الظاهرة في القرآن الكريم. "والملاحظ في الأسلوب القرآني أن فيه سعيا متكررا مقصودا إلى الانزياح عن قانون المطابقة انزياحا يلفت فنيا نظر المتلقي ويلفت تأويليا وإعجازيا نظر المفسر"[11]. وهذا يعني أن وجود ظاهرة العدول في موضع معين من القرآن الكريم يحدث تأثيرا في المتلقي، مما يؤدي إلى إعادة التأمل. وكذلك الأمر بالنسبة إلى المفسر الذي يستعمل هذا العدول للكشف عن الإعجاز القرآني، وذلك في مثل قوله تعالى: ﴿**إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالمَسَاكِينِ وَالعَامِلينَ عَلَيْهَا وَالمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ الله وابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِنَ الله واللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ**﴾ [التوبة:60] وقد فسر ابن الأثير في كتابه (المثل السائر) العدول الوارد في هذه الآية قائلا: "فإنه إنما عدل عن (اللام) إلى (في) في الثلاثة الأخيرة للإيذان بأنهم أرسخ في استحقاق التصدق عليهم ممن سبق ذكره باللام"[12] فابن الأثير هنا، زيادة على استعماله مصطلح العدول صراحة، لا يكتفي بذكره والتنبيه عليه، وإنما يجتهد في توجيه هذه الآيات وبيان المقاصد الدلالية واللمسات البيانية والمقاصد البلاغية التي تحققت بفضل هذا العدول. ومما سبق يتضح لنا أن استعمال هذا المصطلح في اللغة العربية لا يمكن أن يشمل كل النصوص. فإذا جاز لنا إطلاقه على النص الشعري أو الأدبي، فإنه لا يليق بالنصوص

المقدسة، لما له من معنى الخروج الكلي عن الأصل ونقضه. وهذا المفهوم لا يمكن أن ينطبق على كلام الله، وأدى تحفظ بعض الأسلوبيين على هذه الترجمة الحرفية لمصطلح (Ecart) إلى إيثار إحياء المصطلح العربي القديم الذي طالما استعمله النحاة والبلاغيون وهو العدول، لأنه الأحسن من الناحية العلمية إذ يسمح بتوحيد المصطلح، لإمكان إطلاقه على النص القرآني في بعض قراءاته، والناحية العملية إذ يلغي تلك الجهود المبعثرة والأوقات المهدورة في ترجمة المصطلح السابق مع عدم الوصول إلى مقابل واحد، مما يؤدي إلى تضخيم المعجم[13].

إن البعد السلبي الذي يعكسه مصطلح "الانحراف" هو الذي دفع بعض الباحثين للتفتيش عن مصطلحات أخرى تدل على ظاهرة الخروج على المألوف. فلم يكن مصطلح الانزياح إلا شكلا من أشكال التخلص من مصطلح الانحراف. ومن بين المصطلحات الشائعة التي أطلقت على هذه الظاهرة، -إضافة إلى ما سبق- اللحن.

بين العدول واللحن: يعتبر اللحن من بين المصطلحات التي تستخدم في الدراسات الحديثة للدلالة على ظاهرة العدول عن الأصل السياقي أو عن قاعدة لغوية نحوية. إن معاجم اللغة والغريب تكاد تتفق على أن مادة (ل ح ن) ترجع إلى المعاني الست التي ذكرها ابن الأنباري وغيره وهي: الخطأ في اللغة والإعراب، والغناء، واللغة، والفطنة، والتعويض، والمعنى[14]. والذي يخدمنا في هذا المقام من بين هذه المعاني الست هو المعنى الأول، وهو اللحن بمعنى الخطأ في الإعراب، وصرف الكلام عن سننه والعدول عن وجه الصواب فيه "فبانتشار العرب خارج منازلهم ودخول غير العرب في الإسلام بدأ اللحن يفشو في نطق القرآن وفي كلام العربي... لقد اندفع الغيارى على حفظ العربية إثر ظهور بوادر اللحن لصونها

من الدخيل والغريب وإحاطتها بسياج من الضوابط والأحكام حتى لا تتعرض إلى ما يشينها ويفسد أصالتها"[15]. وبتفشي هذه الظاهرة بدأ الاهتمام بتأليف كتب لغوية هادفة إلى تعليم الفصحى والابتعاد عن التأثيرات العامة في الاستخدام اللغوي. "وفي النصف الثاني من القرن الثاني للهجرة، كان اللغويون قد اعتبروا اللهجات لبيان خطئها وأشاروا إلى ما ينبغي أن يقال بدلا منها في الفصحى، ولكن البحث اللغوي الحديث يتناول تراث لحن العامة والتثقيف اللغوي باعتباره من مصادر التاريخ اللغوي، وهناك مجموعة من الكتب ألفت في اللحن، وأهمها: ما تلحن فيه العامة للكسائي (ت 189هـ) وإصلاح المنطق لابن السكيت (ت 244هـ)، وأدب الكتاب لابن قتيبة (ت 276هـ)، ولحن العوام لأبي بكر الزبيدي (ت 379هـ)، وأكبر هذه الكتب كتاب تثقيف اللسان لأبي مكي الصقلي (ت 501هـ)، الذي يصور لهجة صقلية العربية أنذاك وقد وصل من تونس كتاب بعنوان الجمانة في إزالة الرطانة منسوبا لابن الإمام (ت 827هـ)"[16]. والملاحظ من استعمالات مصطلح اللحن ما يحمل مفهوم الخطأ وهو الخروج الكلي عن قواعد اللغة، وللحن أشكال مختلفة[17]. والأمثلة على اللحن كثيرة في كتب النحو شملت الخاصة والعامة من العرب فلم ينج منه العامة ولا أهل اللغة والفصاحة. ويظهر اللحن في استعمالات لسانية عدة، منها اللحن في استعمال الوحدات الصوتية، واللحن في التصريف، واللحن في استعمال بعض الوحدات المعجمية واللحن في التراكيب النحوية. فاللحن ليس مقصورا على إجراء العلامات الإعرابية، واعتبر خطأ يجب تصحيحه والعدول عنه.

وما يهمنا من هذه المقارنة هي إمكانية النظر إلى كل المصطلحات الحاملة لشحنة موحدة وهي الخروج عن المألوف والمتعارف –ماعدا اللحن– وجمعها تحت مصطلح واحد وهو العدول.

أنواع العدول: يلجأ مستعمل اللغة إلى العدول في مختلف مستويات اللغة لذا حددت أنواع العدول بالنظر إلى اللغة من مستوياتها المختلفة وهي كالآتي:

1- العدول الصوتي: يعرف العدول الصوتي على أنه خروج على طريقة آداء الحروف فهو متصل بالجهاز النطقي عند الإنسان ويختلف هذا العدول الصوتي من منطقة إلى أخرى وفي بعض الأحيان من فرد إلى آخر في المجموعة الواحدة. "وحين رأى النحاة أن الحرف الواحد تتعدد صوره بحسب موقعه مما جاوره من الحروف كان عليهم أن يجدوا أصلا لهذه الصور وأن يجعلوا الصور المختلفة عدولا عن هذا الأصل بحسب مبادئ معينة للتغيير والتأثير، كأثر الإدغام والإخفاء والإقلاب"[18]. فكل فرع من هذه الفروع يعتبر عدولا عن الأصل حسب مختلف الاستعمالات. فغالباً ما يكون السياق أوالمقام والتأثير في المتلقي هو المتحكم في نسبة عدول الصوت على النمط العادي، وذلك كما في فك الإدغام في كلمة (يُحْبِبْكُمْ) في قوله تعالى: ﴿**قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُم اللهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ**﴾ [آل عمران:31] ففك الإدغام له معنى في هذا الموضع مما يحمله من تأكيد للفعل، وهذا ما استوجبه السياق، فإن أحببت الله فإن الله يقابلك بضعف هذا الحب. وهذا يدل على ارتباط الصوت بالدلالة، ففك الإدغام من وسائل التوكيد، وهو نوع من العدول الصوتي.

2- العدول الصرفي: يقع هذا النوع من العدول على مستوى بنية الكلمة، وذلك بزيادة حروف البنى الأصلية أو الاستغناء عنها لتتفاعل

البنية الجديدة في الميدان الوظيفي، وهذا ما ذهب إليه القدماء. وتأكيده على حد قول ابن جني أن زيادة المبنى تدل على زيادة المعنى[19]. وتكون هذه الزيادة في أول الكلمة أو وسطها أو آخرها. وهو ما يسمى في الدراسات الحديثة: السوابق (prefixes) والدواخل (Infixes) واللواحق (Suffixes) مما يؤدي إلى استيعاب دلالة جديدة[20]. فكل زيادة في بناء الكلمة أي صيغتها الصرفية تؤدي إلى زيادة دلالة اللفظة لم تكن بتجريدها من هذه الزيادة. فهذه الاشتقاقات عبارة عن فروع من الأصل الواحد لتشكل عدولا عن الصورة الأولى. وذلك كقوله تعالى: ﴿**واذْكُر اسْمَ رَبِّكَ وتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلاً**﴾ [المزمل:8] فعدل عن المصدر (تبتلا) إلى (تبتيلا) لرعاية الفاصلة القرآنية حسب تفسير معظم الفقهاء.

3- العدول النحوي: وهو الخروج عن القواعد النحوية للغة العربية لأسباب بلاغية معينة، وهو ما يطلق عليه باللانحوية: "والمقصود هو الانحراف الخارق لمعيار النحو المتعارف عليه. ومع ذلك فإن هناك بعض الاعتراضات لا تجعل هذا النوع من الانحراف مسوغا ومقبولا، إذ ليس كل خروج عن القاعدة النحوية يمتلك وظيفة جمالية"، مما يعني أن العدول لا يجب أن يمس الأصول، وحتى لو كان العدول على مستوى الفروع لا يجب أن يكون إلا لغرض اقتضاه السياق. ويظهر هذا النوع من العدول في مختلف موضوعات النحو أو أبوابه "ومن ذلك أبواب العدد، ومنع الصرف، وبعض مسائل الاستثناء والإتباع، وخلط أجزاء الجملة نتيجة طولها، وربما كان من أهم الانحرافات النحوية ما يسببه طول الجملة، وفصل المتعلقات عما تتعلق به، مما يوقع في لبس"[21] ولهذه الأسباب وغيرها يلجأ مستعمل اللغة إلى تجاوز القواعد اللغوية الصارمة. ومن مظاهر العدول النحوي لأغراض بلاغية، تقديم على نية التأخير، تقديم

لا يكون على نية التأخير، الإيجاز والإطناب (الأصل هو المطابقة ويتم العدول إلى الإطناب والإيجاز)، الالتفات أو العدول من صيغة إلى أخرى، ومن خطاب إلى غيبة، ومن غيبة إلى خطاب، والعدول من فعل إلى آخر أو عدول فعل إلى اسم مفعول، والفصل والوصل باعتماد الأدوات الرابطة (حروف المعاني)، والعدول من حرف إلى حرف...[22] وكل عدول ينتج عنه زيادة في المعنى أو تغيير فيه.

4- العدول الدلالي: هو الخروج عن المعنى الأصلي للكلمة إلى معنى ثان يحدده السياق الذي استعمل فيه فيكون للفظ مدلولين، مدلول أول قريب ظاهر ليس هو المقصود، ومدلول ثان نصل إليه من خلال علاقات عقلية وهو المقصود. وقد ينشأ مدلول ثالث ورابع... حسب فهم وتأويل كل فرد انطلاقا من خلفيات وذهنيات ثقافية ومعرفية معينة، وهو مستوى الصواب الفني. "فهو ما يظهر فيه ذلك التفاوت والاختلاف في الأساليب... وذلك لأن المعاني البلاغية أو الفنية في تصور البلاغيين هي مجموعة الإشعاعات والإيحاءات الدلالية الخاصة المتجسدة في صياغتها الفنية بأشكالها التعبيرية الخاصة"[23] فكان الاعتناء الأول بهذا العدول من جهة البلاغيين، وهم يطلقون عليه أيضا المجاز باعتباره طريقة خاصة في تأليف الكلام، به تخرج دلالة اللفظ من المتواضع عليه إلى المدلول الجديد. وقد أشار ابن قتيبة إلى المجاز على أساس عدوله عن الأصل بصور عدة قائلا: "للعرب المجازات في الكلام، ومعناها طرق القول ومآخذه، ففيها الاستعارة والتمثيل والقلب، والتقديم والتأخير والحذف والتكرار والإخفاء والإظهار والتعريض والإفصاح والكناية والإيضاح ومخاطبة الواحد مخاطبة الجمع ومخاطبة الجمع خطاب الواحد والجميع خطاب الاثنين والقصد بلفظ الخصوص لمعنى العموم، وبلفظ العموم لمعنى الخصوص"[24] فكلها أساليب

مختلفة للعدول تظهر في كلام الفرد لضرورة التأثير والإيضاح. فيتغير مدلول الكلمات تبعا لحالات استعمالها.

العدول في الدراسات الأسلوبية

تهتم الدراسات الأسلوبية باللغة الأدبية فتخص اهتمامها بالنصوص الأدبية والاعتناء بفنياتها الجمالية "لأنها تمثل التنوع الفردي المتميز في الأداء، بما فيه من وعي واختيار، وبما فيه من انحراف عن المستوى العادي المألوف، بخلاف اللغة العادية التي تتميز بالتلقائية، والتي يتبادلها الأفراد بشكل دائم وغير متميز"[25]. كان العدول عن اللغة المثالية مجال بحث الأسلوبية، ومن هذا المنطلق كان للكلام تصنيف آخر، إذ قسم الأسلوبيون الأداء اللغوي إلى مستويين:

المستوى الأول: يطلقون عليه مصطلح (المستوى المثالي) للآداء اللغوي، وفيه تتجسد قوانين النحو كاملة وتتجلى الصورة المثالية للغة.

المستوى الثاني: ويطلقون عليه (المستوى الإبداعي) وفيه يتم الخروج عن النمط العادي للكلام، بمخالفة مثالية اللغة، وانتهاك قوانينها والعدول عن أعرافها، مما يسهم في توليد المعاني المبتكرة[26]. وهذا المستوى نفسه هو الذي أشرنا إليه سابقا، وهوالذي ينطوي تحته مفهوم العدول. "أما العدول الجدير بإفراده بمصطلح خاص يميزه عن الاختيار، هذا العدول هو ما كان يمثل نوعا من العدول عن النظام أو الأصل اللغوي"[27] وبما أن النظام اللغوي يتناول مستويات مختلفة متدرجا من المستوى الصوتي فالصرفي فالمعجمي فالتركيبي فالدلالي، يمكن الدراسات الأسلوبية أن تتناول العدول في تلك المستويات ذاتها على أشكال مختلفة وتجاوزات متفاوتة "وإن كان المستوى الأخير أكثرها تعقيدا وقابلية للخروج عن النظام

الكلي الذي تفرضه اللّغة إلى النظام الجزئي الذي ينتجه الكلام"[28] فالسياق والمقام يجعلان المتكلم يلجأ إلى العدول بصفة عفوية أو اختيارية قصدية.

وتظهر علاقة الأسلوبية بالعدول من خلال تعريف الأسلوبيين أنفسهم للأسلوب إذ يعرفونه بأنه "انحراف عن قاعدة ما، أو أنه انحراف عن المعيار الموجود، أو أنه خروج عن القاعدة اللغوية، أو بأنه شكل منحرف عن المعيار، أو انحراف عن نموذج من الكلام ينتمي إليه سياقيا، كما يعرف الأسلوب أيضا بأنه لحن مبرر..."[29] إلا أنه لا يجب أن نتعامل مع هذا المصطلح بمعناه السلبي، إذ تدل الدراسات اللغوية الحديثة على أن العدول يقع على شكلين: الأول عدول سالب يعمل على حصر القاعدة العامة وتضييقها، والثاني موجب يعمل على التحرر في حدود دون الإضرار بالقاعدة " فمسار التعبير الإبداعي قد يمارس انحرافا عن هذه القواعد. بشرط ألا يؤدي إلى اختلاف التوازن القيمي، وإنما يجب أن يكون إضافة مميزة، وليس خرقا سالبا يفضي إلى الغموض والالتباس، وتداخل المفاهيم... لكنها عندما تكون في حالة انزياح سالب، فإن قنوات حركة الدلالة تتداخل وتؤدي إلى خرق المتكلم لها لأغراض مقصدية معينة. وهو ما يدل على ترك طريقة في القول لطريقة أخرى لأنها أحسن ولمعنى زائد سببته حاجات في التعبير تقصر الحقيقة عن تأديتها. يقول الجرجاني في هذا الصدد: "اعلم أن الكلام الفصيح ينقسم إلى قسمين، قسم تعزى المزية والحسن فيه إلى اللفظ، وقسم يعزى ذلك فيه إلى النظم فالقسم الأول للكناية، والاستعارة والتمثيل الكائن على حد الاستعارة، وكل ما كان فيه على الجملة مجاز واتساع وعدول باللفظ عن الظاهر، فما ضرب من هذه الضروب إلا وهو إذا وقع على

الصواب وعلى ما ينبغي أوجب الفضل والمزية"[30]. وهذا النوع من الكلام الذي يقع فيه العدول لا نصل إلى دلالته من خلال علاقات الألفاظ بمعانيها أو النظام النحوي الذي يتحكم في التركيب الكلي للخطاب بل نصل إليه بطريقة أكثر تعقيدا وتركيبا. "فليس كل انحراف جديرا بأن يعد خاصية أسلوبية مهمة بل لابد من انتظام الانحراف في علاقته بالسياق، كما أن إلحاح المنشئ على أنماط معينة من انحرافات الاستعمال وإيثارها على غيرها من البدائل وما قد تسفر عنه المقارنة بين النص المدروس والنص النمط، من اختلاف في نوعية البدائل المستخدمة وكثافتها. كل ذلك يعد من المقومات الأساسية لتمييز الأساليب"[31]. فالكشف عن الأساليب الفردية يستدعي المعرفة الواسعة لقواعد اللغة التي يتم العدول عنها. وإذا ما سلمنا بهذا الكلام فهذا يؤدي بنا أيضا للتسليم بأن العدول اختيار من المتكلم للتأثير في المتلقي، مما يعني أن المتكلم على دراية بقواعد اللغة وفي استعمالات معينة يختار بينها وبين العدول عنها وهذا ما سنجيب عنه في العنصرالآتي.

العدول اختيار

تعارضت آراء العلماء في تحديد العلاقة بين العدول والاختيار، فرأى بعضهم أن الارتباط الموجود بين عنصري الاختيار والعدول "يتمثل في القصدية التي يرمي إليها مؤلف النص الذي يبني أسلوبه معتمدا على الاختيار والانحراف لأنهما عنصران يستطيع من خلالها أن يتوقع كيفية تلقي القارئ لنصه وخاصة اختياراته التي تتضمن الانحرافات، وذلك من خلال ما تثيره هذه الانحرافات من تأثيرات يكون لها بعد عاطفي ووجداني"[32] فالعلاقة بين العدول والاختيار تقوم بين

المتكلم وردود فعل المتلقي، فكلما كان التأثير في المتلقي كبيرا كانت العلاقة بين العدول والاختيار وثيقة وكلما ضؤلت درجة التأثير ضعفت العلاقة بين العدول والاختيار حتى تعود إلى درجة الصفر وهي درجة الاستعمال العادي للغة دون الخروج إلى أغراض تبليغية أو تأثيرية، والعنصر الذي يشكل درجة التأثر هو ما يسمى بالمفاجأة*، التي لا تتحقق في الاستعمال العادي لأنه لا يثير في نفس المتلقي شيئاً من الدهشة وخيبة انتظار، وقد سن لها (ريفاتير) قانونين "يتمثل القانون الأول في أن المفاجأة كلما كانت غيرمنتظرة كان وقعها أكثر في المتلقي، ويتمثل القانون الثاني في أن تكرار الخاصية الأسلوبية مفقد شحنتها التأثيرية في المتلقي"[33] فالاختيار ينفتح على العدول بشكل وثيق، إذ يعتبر هذا الأخير إجراء أسلوبيا مقصودا محققاً المفاجأة لغرض إبداع صورة فنية جمالية تؤثر في المتلقي، والخروج عن النمط الثابت والقار والخالي من الإبداع. وهذا يعني أن اللغة المعيارية تتميز بالتلقائية فهي ثابتة مشتركة بين جميع أفراد الجماعة الواحدة في حين تتميز لغة الفرد بالعدول بشكل اختياري واع.

أما الفريق الثاني فيقول إن الاختيار ليس بالعملية السهلة التي يمكن لأي فرد القيام بها فنجد (جيرو) في حديثه عن درجة الوعي في الاختيار قد "بين نوعين من القيم الأسلوبية قيم أسلوبية وأخرى طباعية. فالأولى لا شعورية تقريبا، وتتكون من العناصر الاجتماعية والنفسية اللازمة للتعبير. وأما القيم الطباعية فهي واعية مقصودة شعوريا تمثل القيم الجمالية والأخلاقية والتربوية للصياغة التعبيرية. وتنقسم إلى مجموعتين أيضا طبقا لنوعية القصد والاختيار. فهو إما مباشر طبيعي وإما ثانوي تقليدي"[34]. ويشير هنا إلى أن الاختيار قد يكون عند الطبقة

العادية من الناس، ففي هذه الحالة تكون نسبة العدول صغيرة ودرجة التأثير قليلة. أما إذا كان الاختيار نابعا مثلا من شاعر، عالم بأساليب اللغة وتقنيات توضيف آلياتها، فإن نسبة العدول تكون، أكبر ودرجة التأثير أكثر. لذا نشبت معارك بين النحاة الذين ينقدون لغة الشعر. والشعراء الذين يرفضون هذه النقود "وتجاوزوا الرفض إلى مهاجمة النحاة، واتهامهم بعدم القدرة على فهم الشعر وتبين أسرار لغته. وربما أضافوا إلى هذا الاتهام وصف النحاة بالعجمة وبتحكيم المنطق ومقاييس النحو الفاسدة في لغة الشعر التي لا يمكن أن تذل لمثل هذه المقاييس. فكانت هذه النصيحة التي وجهها إلى النحاة الشاعر المعروف بعمار الكلبي:

ما كل قَولي مشروحا لكم فخذوا ما تعرفون وما لم تعرفوا فدعوا"[35]

فكان العدول بالنسبة إلى الشعراء وسيلة للتعبير عن مشاعرهم ومشاغلهم وكان للنحاة غاية يسعون لتصد كل مواضعه لتخطيئها ثم تصويبها.

معيار العدول

سبق أن قلنا إن للعدول مرادفات كثيرة وكذلك القول للأصل الذي تم العدول عنه "فإن المعيار الذي يخرج عنه العدول قد سمي مسميات كثيرة أيضا من مثل: الاستعمال الدارج والمألوف والشائع والوضع الجاري والدرجة الصفر والسنن اللغوية البريئة. وقد وجد لذلك مماثلات في البلاغة والنقد عند العرب من مثل أصل اللغة وأصل الوضع والحقيقة وغيرها من المصطلحات"[36]. فما هي المعايير التي يحتكم إليها الدارس الأسلوبي لتحديد العدول والكشف عن جماليات النص الأدبي؟

1- النظام النحوي معيار: يعتبر النظام اللغوي المستنبط من القرآن الكريم وكلام العرب معيار العدول في الدراسات النحوية العربية القديمة،

فينشأ المعيار من الرجوع إلى استنطاق النصوص التي تمثل أعلى مستويات الفصاحة عند المجموعة اللغوية التي يراد ضبط لغتها، وهو ما يسمى بعصر الفصاحة والاحتجاج اللغوي، للخروج بقواعد وقوانين تمثل نمطاً من أنماط الصياغة اللغوية. ولكن هذا يطرح إشكالية تغير المعيار وعدم ثباته، لأن الاستعمال اللغوي في تطور مستمر، وكثيرا ما يحدث أن تتحول بعض الأساليب البلاغية، لكثرة تكرارها، إلى قوالب جاهزة واستعمالات متداولة على كل الألسنة ـ كما سبق أن أشرنا ـ فتفقد بذلك قيمتها الأسلوبية وتصبح لا فرق بينها وبين الاستعمالات الأخرى، فيصعب بذلك تحديد المعيار تحديدا دقيقا نهائيا. فالمعيار هو النظام اللغوي الذي ينبغي على المتكلم اتباعه ليحقق آداءً لغويا فصيحا، واعتمادا عليه تحدد درجة الفصاحة عند مستعمل اللغة. أدرك للغويون وعلماء البلاغة الأوائل، عندما أرادوا تقنين اللغة وفهم معاني القرآن الكريم وسرّ إعجازه، وتحديد مراتب الشعراء، ومقاييس التفاضل بينهم وجود مستويين في استعمال اللغة: مستوى مشترك بين الناس، شائع في مخاطباتهم ومعاملاتهم يعرف بالمعيار أو الأصل، ومستوى يتجاوز الأنماط المتعارف عليها في التعبير ويتصرف في استعمال اللغة، فينتقي بعض معطياتها ويهمل الآخر أو يصُوغها بطريقة مخصوصة قصد تحميلها وظائف أخرى غير الإبداع والتواصل وهو مستوى العدول. فإذا كان مفهوم العدول نفسه غير محدد تحديداً دقيقاً فإن المعيار صعب تحديده، إذ اختلف النحاة والأسلوبيون في النمط أو المعيار أو القاعدة التي يحدث العدول عنها. "فالقاعدة أحيانا هي نظام اللغة أي جملة قواعد اللغة التي تتم بها الكتابة حيث تصطدم ظواهر الاستعمال اللغوي في الكلام بمستوى اللغة الثابت، ويمكن تحديد القاعدة على أنها نموذج مثالي لغوي حاضر أمام الجماعة اللغوية وهو نموذج تنحو إلى

تطبيقه دون أن تظفر بذلك نهائيا في الواقع اللغوي. هذا النموذج المثالي هو ما أطلق عليه تشومسكي القدرة أو الكفاءة اللغوية[37]". وانطلاقا من هذه المستويات نحا النحويون منهج القدماء للحفاظ على اللغة العربية الفصيحة التي لا تشوبها شائبة، فوضعوا معايير صارمة دقيقة تحد من أي تصرف أو تلاعب بأصول اللغة العربية. ومثل ذلك "أنّ التقديم والتأخير يخضع لضوابط معيارية تحرص الدائرة النحوية على الالتزام بها وليس من حق البلاغة تجاوزها على مستوى الصياغة الفنية، إلا بالقدر الذي لا يحدث خللا أو شرخاً ويسمح به النظام العام"[38] فيتم تجاوز النظام اللغوي لأغراض عدة، حسب حاجة المتكلم للتأثير في السامع. وهذا ما ذهب إليه النحويون إذ وضعوا مقاييس للعدول عن المعيار النحوي ومثل ذلك أن "الجملة عند النحاة ركنان، المسند إليه والمسند، فأما في الجملة الاسمية فالمبتدأ مسند إليه والخبر مسند، وأما في الجملة الفعلية فالفاعل أو نائبه مسند إليه والفعل مسند. وكل ركن من هذين الركنين عمدة لا تقوم الجملة إلا به. وما عدا هذين الركنين مما تشتمل عليه الجملة فضلة يمكن أن يستغني عنه تركيب الجملة، هذا هو أصل الوضع بالنسبة إلى الجملة العربية ويضاف إليه ما يلي:

1. الأصل الذكر، فإذا عدل عنه إلى الحذف وجب تقدير المحذوف من ركني الجملة.
2. الأصل الإظهار، فإذا أضمر أحد الركنين وجب تفسيره.
3. الأصل الوصل، وقد يعدل إليه إلى الفصل.
4. الأصل الرتبة بين عناصر الجملة وقد يعدل عنها إلى التقديم والتأخير.
5. الأصل الإفادة، فإذا لم تتحقق الفائدة فلا جملة، وتتحقق الفائدة بالقرائن حين يؤمن اللبس، وشروط جواز العدول عن الأصل من هذه الأصول أن يؤمن اللبس فتتحقق الفائدة. ومن هنا لا يكون الحذف

إلا مع وجود الدليل، ولا يكون الإضمار إلا عند وجود المفسر، ولا يكون الفصل إلا بغير الأجنبي، ولا التقديم والتأخير إلا مع وضوح المعنى وحيث لا تكون الرتبة واجبة الحفظ"[39] وهذه القواعد تضمن عدم العدول إلا عند الضرورة لأن إذا كثر العدول أصبح من المطرد، كما يصبح المجاز حقيقةً إذا شاع في الاستعمال، مما يدعو إلى الخطإ.

2- السياق معيار: يعتبر السياق قاعدةً لقياس العدول، وقد يكون هذا الرأي أقرب الآراء جميعا إلى الصواب لأنه إذا لجأ المتكلم أو المبدع إلى العدول فذلك لغرض، قد يكون جماليا أو تأثيراً في السامع أو القارئ فيحقق بذلك متعة وفائدة. فالمعيار الأسلوبي قد يكون خارج النص، فهو معيار يحدده الاستعمال الفعلي للغة. فلكل مقام مقال ولكل كلمة مع صاحبتها مقام. فالسياق هو الذي يستدعي عدولاً محدداً وحينها يقوم مقام القاعدة لضرورة خلق أساليب جديدة تختلف عن الصيغ النمطية المعروفة في اللغة العادية المعيارية "فضلاً عن أن اعتماد السياق قاعدة للانحراف يتضمن كذلك غيره من القواعد، بل لعله يكون المظهر الوحيد لها أو الدال عليها. فإذا ما اتخذنا نظام اللغة قاعدة للانحراف أو العدول فإننا لا نستطيع إدراك ذلك الانحراف أو العدول عن قاعدة النظام اللغوي إلا ضمن سياق الكلام، إذ أن الدلالة الافرادية لا اعتبار لها، ومن ثم فلا اعتبار إلا للدلالة التركيبية، وهي دلالة السياق لا غير، ومن ثَمّ يصبح السياق هو مظهر العدول الحقيقي عن أي قاعدة من القواعد، ومن ثم يكون جديرا بأن يكون هو القاعدة السائدة في قياس العدول"[40]. فالسياق هو المعيار الأول الذي يحدد الصواب، لأن القاعدة كنظام لغوي لا يمكن أن تتجسد إلاً في نطاق التركيب الذي

يظهرها على أرض الواقع والذي يمثله السياق، وقد مثل لذلك الدكتور صالح بلعيد قائلا: "... استعملت معاني ودلالات صريحة تارة ومتضمنة تارة أخرى. أما الصريحة فهي التي تلقب بالمواضعة الحقيقية، وهي استعمال اللفظة في وضعها الأول، بحيث لا يتبادر إلى الذهن غير ذلك حيثما تُطلق، كتوظيف كلمة (الكتاب) للدلالة على الشيء المعروف الذي يقرأ فيه، وهي حقيقة عرفية اصطلاحية، وبين الكتاب في قولنا (علي كتاب مفتوح) وهو العدول عن العرف إلى معنى مجازي يمليه السياق. وهذا النوع يأخذ ملامح عدة، يبدو أحياناً للبعض أنه عدل عن الصواب، وهو الخطأ"[41]. فهذه الاستعمالات لا تدل على الخطإ بل إنها ضرورة لغوية تسمح لنا بالتعبير بتلقائية عن مختلف الأغراض. فاللغة ليست وسيلة للتواصل فحسب لإنشاء الكلام في قوالب جاهزة، ولكنها تحمل كياناً ثقافياً وحضارياً ونفسياً.

3- المتلقي معيار الصواب والخطإ: يحدث **أن** يكون المتلقي هو مقياس الصواب والخطإ فإليه تؤول رسالة التخاطب، وهو الذي يحلل هذه الرسالة ويتحكم قي صحة الخطاب أو خطئه. فأما إذا تساوت أوجه الخطاب، فالمتكلم ليس من البلاغة في شيء. ومن تلك الأساليب التي تقوم على المتلقي – معيار تجاهل العارف – وهو "أسلوب تعبيري يعمد فيه المنشيء إلى العدول عن أمر يعرفه على وجه الحقيقة لغاية معينة"[42]. فهنا قد يلجأ إلى الحذف أو التقديم أو التأخير... لإدعاء تجاهل أمرٍ، لغرض في نفس المتكلم أو الكاتب، كالتوبيخ والمبالغة في المدح والتحقير أوالتأنيس في قوله تعالى: ﴿**وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى قَالَ هِيَ عَصَايَا أَتَوَكَّؤُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى**﴾ [طه: 17/ 18] في هذا المقام لا يمكن أن نقول إن خالق السماء

والأرض وما بينهما يجهل العصى التي كانت بين يدي سيدنا موسى عليه الصلاة والسلام، فكان هذا السؤال وتلك الإجابة المتسطرة لحالة الأنس والمحبة بين الله تعالى وسيدنا موسى.

القواعد المعيارية ثابتة محددة من طرف النحاة، تدور حولها مجموعة من المتغيرات يتم العدول بها على المجموعة الأولى، وتمتاز الثانية بالخروج عن الأصل، ثم تليها الأخطاء التي لا تنتمي إلى المجموعة الثانية وتناقض تماما المجموعة الأولى. وهي أخطاء يجب الحد منها لكي نظمن سلامة اللغة، فيتم الفصل بين العدول الجائز المتفق عليه أنه يحمل إبداع ودرجة إبلا غ عالية والخطأ الذي يصدر عن جهل بالقواعد أو نتيجة الانفعال، وهو ما لا يجب التسامح فيه. فاهتمام النحوي بالعدول لغرض تعليم اللغة وتصويبها عند الاستعمال. ويبقى العدول عن درجة الصفر أو الخروج من دائرة النحوية إلى دائرة اللانحوية يحمل سمات أسلوبية مميزة، إلا أنه يجب التوفيق بين النظام اللّغوي والعدول عنه. فالنص المتوازي والمتميز في دلالته هو النص الذي يوفِّق بين القاعدة والعدول بشكل يضمن الفهم ويحفظ القاعدة.

الهوامش

1. مجمع اللغة العربية بالقاهرة، "المعجم الوسيط"، مادة:عدل، ج 2. ط2. 1985.
2. عبد الحميد أحمد يوسف هنداوي، "الإعجاز الصرفي في القرآن الكريم"، دراسة نظرية تطبيقية التوظيف البلاغي لصيغة الكلمة، دط. بيروت: 2002، المكتبة العصرية، ص72.
3. عبد الحميد أحمد يوسف هنداوي، "الإعجازالصوتي في القرآن الكريم"، ط1. القاهرة: 2004، الدار الثقافية، ص54.
4. عبد الحميد أحمد يوسف هنداوي،" الإعجاز الصرفي في القرآن الكريم"، ص145.
5. موسى سامح ربابعة، "الأسلوبية مفاهيمها وتجلياتها"، ط1. الأردن: 2003، دار الكندي، ص46.
6. عبد السلام المسدي، "الأسلوبية والأسلوب"، دط، تونس:1977، الدار البيضاء، ص94.
7. ابن منظور الإفريقي المصري: "لسان العرب"، د ط. بيروت: 1990، مادة حرف.
8. موسى سامح ربابعة، "الأسلوبية مفاهيمها وتجلياتها"، ص44.
9. ابن منظور، "لسان العرب"، د ط، بيروت: 1990، مادة نزح.
10. الخليل بن أحمد الفراهيدي أبو عبد الرحمن، "كتاب العين"، تح: مهدي المخزومي، إبراهيم السامرائي، د ط. العراق: 1981، مادة نزح.
11. عبد الحميد أحمد يوسف هنداوي، "الإعجاز الصرفي"، ص141.
12. ابن الأثيرالجزري، أبو الفتح ضياء الدين، "المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر"، تح: محمد محي الدين عبد الحميد، ط2. بيروت: 1995، ج2، المكتبة العصرية، ص 15 فما بعدها.
13. عبد السلام المسدي، "الأسلوب والأسلوبية"، ص162، 163.
14. مجمع اللغة بالقاهرة، "المعجم الوسيط"، ط3. ج2. القاهرة: 1985، مادة لحن.
15. صالح بلعيد، "في أصول النحو"، دط. الجزائر:2005، دار هومة، ص 94، 95.

16. محمود فهمي حجازي، "علم اللغة العربية: مدخل تاريخي مقارن في ضوء التراث واللغات السامية"، دط. القاهرة: دت، دار غريب، ص 115، 116.
17. ينظر: الجاحظ أبو عثمان عمرو بن بحر، تح: عبد السلام محمد هارون، "البيان والتبيين"، ط3. القاهرة: 1968، مكتبة الخانجي، ج2، ص210 وما بعدها.
18. تمام حسان، "الأصول دراسة إبستمولوجية للفكر اللغوي عند العرب: النحو، فقه اللغة، البلاغة"، دط. القاهرة: 2000، علم الكتب، ص 107.
19. ابن جني، "الخصائص"، تح: محمد علي النجار، ط3. بيروت: دت، دار الهدى، ج2، ص233.
20. عبد القادر عبد الجليل، "الأسلوبية وثلاثية الدوائر البلاغية"، ط1. الأردن: 2002، دار صفاء، ص 324.
21. أحمد مختار عمر"الانحراف اللغوي في الاعلام المصري المسموع مظاهره وسبل تقويمه" مجلة القاهرة، القاهرة:2001، ع 92، ص 48.
22. ينظر: محمد عبد المطلب، "البلاغة والأسلوبية"، ط1. القاهرة: 1994، الشركة المصرية العالمية لونجمان، الباب الرابع.
23. عبد الحميد هنداوي، "الإعجاز الصوتي في القرآن الكريم"، ط1. القاهرة: 2004، الدار الثقافية، ص 68.
24. ابن قتيبة، "تأويل مشكل القرآن"، تح: السيد أحمد صقر، ط1. القاهرة: 1954، دار الرجاء إحياء الكتب العربية، ص 15، 20.
25. محمد عبد المطلب، "البلاغة والأسلوبية"، ص186.
26. ينظر:" عهود عبد الواحد، السورة المدنية دراسة بلاغية أسلوبية"، ط1. عمان: 1999، دار الفكر، الفصل الثالث.
27. عبد الحميد أحمد يوسف الهنداوي،"الإعجاز الصرفي في القرآن الكريم"، بتصرف.

28. سعيد حسن بحيري، "دراسات لغوية تطبيقية في العلاقات بين البنية والدلالة"، دط. القاهرة: دت، مكتبة زهراء الشرق، ص56.

29. عبد السلام المسدي، "الأسلوبية والأسلوب"، دط. تونس: 1977، الدار العربية، ص 98.

30. عبد القاهر الجرجاني، "دلائل الإعجاز"، قرأه وعلق عليه: محمود شاكر، دط. القاهرة: 1984،مكتبة الخانجي، ص 429.

31. سعد مصلوح، "الأسلوب دراسة لغوية احصائية"، ط3. القاهرة: 1992، عالم الكتب، ص 51، 52.

32. موسى سامح ربابعة، "الأسلوبية مفاهيمها وتجلياتها"، ص 40.

⋆ هناك من يرى أن الأسلوب هو المفاجأة أو الانتظار الخائب أو خيبة الانتظار.

33. نور الدين السد، "الأسلوبية وتحليل الخطاب، دراسة في النقد العربي الحديث، الأسلوبية والأسلوب"، دط. الجزائر: دت، دار هومة، ص 181.

34. سعيد حسن بحيري، "دراسات لغوية تطبيقية في العلاقة بين البنية والدلالة"، ص 39.

35. عبد الحكيم راضي، "نظرية اللغة في النقد العربي"، دط. القاهرة: دت، مكتبة الخانجي، ص 9.

36. موسى سامح ربابعة، "الأسلوبية مفاهيمها وتجلياتها"، ط1. الأردن: 2003، دار الكندي، ص35.

37. عبد الحميد هندواوي، "الإعجاز الصوتي في القرآن الكريم"، ص83، 84.

38. عبد القادر عبد الجليل، "الأسلوبية وثلاثية الدوائر البلاغية"، ص348.

39. تمام حسان، "الأصول دراسة إبستيمولوجية للفكر اللغوي عند العرب"، ص121، 122.

40. عبد الحميد هنداوي، "الإعجاز الصوتي في القرآن الكريم"، ص85.

41. صالح بلعيد، "دروس في اللسانيات التطبيقية"، دط. الجزائر:2000، دار هومة، ص131.

42. عبد القادر عبد الجليل، "الأسلوبية وثلاثية الدوائر البلاغية"، ص562.

قائمة المصادر والمراجع

القرآن الكريم

المعاجم

1. ابن منظور الإفريقي المصري: لسان العرب، د ط. بيروت: 1990.
2. الخليل بن أحمد الفراهيدي أبو عبد الرحمن، كتاب العين، تح: مهدي المخزومي، إبراهيم السامرائي، د ط. العراق: 1981.
3. مجمع اللغة العربية بالقاهرة، المعجم الوسيط، ج 2. ط2. 1985.

المصادر والمراجع

1. ابن الأثيرالحزري، أبو الفتح ضياء الدين، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، تح: محمد محي الدين عبد الحميد، ط2. بيروت: 1995، ج2، المكتبة العصرية.
2. ابن قتيبة، تأويل مشكل القرآن ، تح: السيد أحمد صقر، ط1. القاهرة: 1954، دار الرجاء إحياء الكتب العربية.
3. ابن جني، الخصائص، تح: محمد علي النجار، ط3. بيروت: دت، دار الهدى، ج2.
4. تمام حسان، الأصول دراسة إبستمولوجية للفكر اللغوي عند العرب: النحو، فقه اللغة، البلاغة، دط. القاهرة: 2000، عالم الكتب.
5. الجاحظ أبو عثمان عمرو بن بحر، تح: عبد السلام محمد هارون، البيان والتبيين، ط3. القاهرة: 1968، مكتبة الخانجي، ج2.
6. سعد مصلوح، الأسلوب دراسة لغوية احصائية، ط3. القاهرة: 1992، عالم الكتب.
7. سعيد حسن بحيري، دراسات لغوية تطبيقية في العلاقات بين البنية والدلالة، دط. القاهرة: دت، مكتبة زهراء الشرق.
8. صالح بلعيد، دروس في اللسانيات التطبيقية، دط. الجزائر:2000، دار هومة.

9. صالح بلعيد، في أصول النحو، دط. الجزائر:2005، دار هومة.
10. عبد الحكيم راضي، نظرية اللغة في النقد العربي، دط. القاهرة: دت، مكتبة الخانجي.
11. عبد الحميد أحمد يوسف هنداوي، الإعجاز الصرفي في القرآن الكريم (دراسة نظرية تطبيقية: التوظيف البلاغي لصيغة الكلمة) دط. القاهرة، 2002.المكتبة العصرية.
12. عبد الحميد أحمد يوسف هنداوي، الإعجازالصوتي في القرآن الكريم، ط1. القاهرة: 2004.الدار الثقافية.
13. عبد السلام المسدي، الأسلوبية والأسلوب، دط. تونس: 1977، الدار العربية للكتاب.
14. عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، قرأه وعلق عليه: محمود شاكر، دط. القاهرة: 1984،مكتبة الخانجي.
15. عبد الواحد، السورة المدنية دراسة بلاغية أسلوبية، ط1. عمان: 1999، دار الفكر.
16. محمد عبد المطلب، البلاغة والأسلوبية، ط1. القاهرة: 1994، الشركة المصرية العالمية لونجمان.
17. محمود فهمي حجازي، علم اللغة العربية: مدجل تاريخي مقارن في ضوء التراث واللغات السامية، دط. القاهرة: دت، دار غريب.
18. موسى سامح ربابعة، الأسلوبية مفاهيمها وتجلياتها، ط1. الأردن: 2003، دار الكندي.
19. نور الدين السد، الأسلوبية وتحليل الخطاب، دراسة في النقد العربي الحديث، الأسلوبية والأسلوب، دط. الجزائر: دت، دار هومة.

الدوريات

مجلة مجمع اللغة العربية، القاهرة:2001، ع 92.

بيضاء

لغة الطفل العربي والتحديات الراهنة*

أ.د عبد السلام المسدّي

تونس

حين عقد مجمعنا الموقر مؤتمره الرابع[1] اختار أن يكون موضوعه "اللغة والمجتمع" فآثرنا يومئذ أن نشارك المؤتمرين أعمالهم بجهد متواضع تناولنا فيه "اللغة العربية بين المكاسب المعرفية والتحديات الجديدة" وقد سعينا أن نجلوَ ما يثوي وراء موضوع "اللغة والمجتمع" من أبعاد لسانية اجتماعية، وما يقبع خلف هذه من أعماق سياسية لغوية، وانتهينا في بحثنا ذاك إلى كشف الستار عن فصام مكين تعيشه الأمة العربية، وكانت سبيلنا إلى ذلك المساءلة المعرفية "الإيبستيمية" عن العلاقة بين اللغة بحقائقها المحايثة والمجتمع بحقائقه المفارقة.

واليوم يضعنا المجمع إذ يختار مسألة "لغة الطفل والواقع المعاصر" وجها لوجه أمام ضرب مخصوص من التحديات الجديدة التي تآزرت على إقامتها تراكمات الوهن العربي والتقلبات الطارئة على المشهد الدولي منذ عقدين تقريبا، والقضية التي يعتزم مؤتمرنا هذا مناقشتها، والتي كأنه آلا على نفسه أن يطرح تصوّرا لمعالجتها، لهي قضية تخفي غير ما تظهر، فهي

في صيغتها تبدو واضحة الملامح يسيرة المنال، ولكنها في جوهرها على غاية التعقد تكاد ترسو بمن يتناولها على حائط من الاستعصاء، فهي لذلك من الإلحاح والاستعجال بحيث يغدو طرحها- هنا الآن- تحديا جريئا يُعرف فيه بفضل المخططين لهذا المؤتمر والقائمين على إنجازه. ولئن جاءت الصيغة التي حددت موضوعه جلية في ظاهرها كما أسلفنا فإنها تستوجب تدقيقيا تهدينا إليه المحاور التفصيلية التي رافقت نص الموضوع.

إن الطفل المقصود في عبارة "لغة الطفل" هو الطفل العربي بلا أدنى شك، وهذا قد يبدو بديهيا، والإشارة إليه قد تبدو من فائض القول ولا يعدو الأمر أن يكون اختصارًا في الكلام يغني عن الإطناب فيه سياق الحال، ولكن هذا التنبيه-عند النظر المتأني- مهمّ، بل متأكّد، لأن للمسألة خصوصيات تتنوّع بتنوع طبائع اللغات، وتختلف باختلاف السياقات الثقافية والسياسية الحافة بكل حالة لغوية يمر بها أي لسان من الألسنة الطبيعية، وبعد هذا وذاك ليس يمتنع ـ في حق مجمع اللغة العربية ـ أن يتناول بالدرس قضية تندرج ضمن اللسانيات النظرية فتكون لغة الطفل على الوجه المطلق، ويكون ذلك منه ـ لو حصل ـ إسهاما في طرح القضايا المعرفية العامة.

أما اللغة المقصودة في عبارة "لغة الطفل" فأمرها أقل يسرا لأنها مكمن خلاف حاد يصل إلى تخوم الشقاق الحضاري كما سنجلوه لاحقا، غير أن قراءة أبواب المحاور المحددة في ورقة المؤتمر بابا بابا تحسم الأمر إذ يتضح أن المقصود بلغة هذا الطفل العربي هو اللغة الفصيحة، وهذا في حد ذاته احتماء من تأوّل أن اللغة المقصودة هي اللهجة بحسب كل قطر أو بحسب كل إقليم، وفي ذلك دلالة بالغة الخفاء، إذ تشف عن أن واقعنا العربي يكاد يكرس فهما مخصوصا عند الحديث عن لغة الطفل العربي، فكأنما أمسى بعيدا عن الذهن أن نقرن بينه وبين اللغة العربية

الفصحى، وهو ـبلا ريبـ ملمح إذا وقفنا عنده ولجنا توّا إلى الإشكال الجوهري في أزمة الواقع اللغوي عندنا.

نأتي الآن إلى العبارة التي يرام بها تحديد ظرف الزمان وهي "الواقع المعاصر" ومعلوم لدينا أن المؤرخين في تقسيمهم الزمن التاريخي إلى مقاسم منهجية يتحدثون ـ بتمييزـ عن حقبة التاريخ المعاصر وحقبة التاريخ الحديث، وهو تمييز مستفاد من التقسيمات التي يتوسل بها علماء التاريخ على الصعيد المعرفي الإنساني، ولكن تلك العبارة كثيرا ما تستعمل في غير دلالتها الدقيقة التي عند المؤرخين، وربما زاوجتها عبارة "العصر الحديث" أو "العصر الراهن" أو قولُ بعضهم في "أيامنا هذه" والذي لا جدال فيه هو أن "لغة الطفل والواقع المعاصر" تحملنا حملا على الاعتبار بأهم ما يسم هذا الواقع لغويا فثقافيا فسياسيا، ومهما تكن مواقفنا من الظواهر المسيطرة كونيا على ذاك الواقع فإن الباحث المتأمل في محركات الاجتماع الإنساني مضطر إلى الإقرار بهيمنة بعض المقولات وفي مقدمتها مقولة النظام العالمي الجديد التي كثيرا ما يتم اختزالهاـإنصافا أو حيفاـ في مقولة العولمة.

وقد يعيننا على تثبيت قراءتنا السياق الثقافي الذي يندرج فيه مؤتمرنا، فحيثيته المتسعة هي انتباه الوعي الإنساني إلى بعض الحقائق الجديدة الطارئة على الظواهر اللغوية كما سنفصل القول فيه لاحقا، وكذلك الانتباه الخاص الذي يشدّ الجميع إلى لغة الطفل مما دفع بالمنظمة الثقافية الدولية إلى تعيين يوم 21 من شهر فيفري (فبراير) يوما عالميا لما أسمته بلغة الأم كما سنعود إليه أيضا ببعض التدقيق. ويكفينا ـلتحديد ملامح السياقـ أن نذكّر بمناسبتين؛ أولاهما المؤتمر الذي عقده غالمجلس العربي للطفولة والتنمية حول "لغة الطفل في عصر العولمة"[2] ومنه انطلق

مشروع "إستراتيجية تنمية لغة الطفل العربي" وقد بدأ الإنجاز فعلا في نطاق اللجنة المكلفة بإعداد الإستراتيجية[3]. أما الثانية فتمثلت في انعقاد ما سمي بالمؤتمر الدولي الأول حول "الطفل بين اللغة الأم والتواصل مع العصر" وذلك في الدوحة، نظمه المركز الثقافي للطفولة[4] واختار أن تنطلق أشغاله في ذاك اليوم العالمي 21 فبراير.

إن استطرادنا هذا في تبيان السياق العربي والدولي سببه– فضلا عن تدقيق رؤيتنا لموضوع المؤتمر وتجلية حيثياته الحافة– ما قد انكشف من انشقاق جوهري في توظيف هذا المفهوم الذي روّجته منظمة اليونسكو، نعني "اللغة الأم" كما سنرى.

إنه ليس جديدا التفات القائمين على حاضرنا العربي أو المستشرفين لمآله والحانين على مصائره أن ينتابهم الوعي بالمعضلة اللغوية التي ما انفكّت تشدهم إليها رفقا أو عنوة، بل ليس جديدا أن يقرنوا البحث عن فك شفرتها بالبحث في مسألة التنشئة التي يتربى في كنفها الطفل العربي. ولكن الجديد الذي سيظل مأمولا منتظرا كلما طرحنا الموضوع هو تحسس المسالك الموصلة إلى جذور القضية في كافة أبعادها من جهة أولى، وهو أيضا الجرأة على مواجهة الواقع وذلك بتحديد مواقع المسؤولية دونما مداراة من جهة ثانية.

ربما سينفتح المسلك نحو الطرح الذي يجمع عمق الاستكشاف إلى جرأة التسآل بمجرّد أن نقحم المسألة اللغوية والطفل العربي – معًا– في آليات الزمن الجديد التي تستظل–جميعها– تحت قباء العولمة فتغدو كالحزمة المتناسجة سواء أكان ائتلافها وفيا لحركة التاريخ أم مخاتلا إياها. لكن تحديد مفهوم العولمة في سياقنا هذا على وجه الخصوص يقتضي تدقيقا استثنائيا، أو يقتضي تعريفا مناسبا لسياق الموضوع يكمل التعريف الشائع

والذي يقتصر عادة على ذكر "**اقتصاد السوق وتكنولوجيا الاتصال والمنتجات والأفكار الجديدة**" من حيث هي أدوات للسيطرة؛ فالعولمة تصور جديد لطريقة تنظيم الحياة البشرية كليا، انبثق معلنا عن موت الإيديولوجية، وإذ هو يحتفي بموتها استحال هو ذاته إيديولوجية جديدة متقنعة، ويكفي أن العولمة جاءت تؤسس النمطية الاقتصادية في كل أرجاء المعمورة مبشرة في ذلك بالرفاه الشامل المعمم، ولكن المسكوت عنه فيها هو أن النمطية الاقتصادية تستوجب على وجه الضرورة– في نظر دعاتها– نسقيه ثقافية مطلقة. وهذا مؤداه نسف كل القلاع الثقافية المغايرة، ومعلوم أنه لا وسيلة لزعزعة أي ثقافة إنسانية إلى بخلخلة مرجعياتها اللغوية. وبهذا نفهم كيف أن صراع "العولمة" مع الاتحاد الأوربي هو صراع اقتصادي بالدرجة الأولى بينما صراعها مع العرب هو صراع ثقافي قبل كل شيء.

وإذ كانت العولمة رؤية إستراتيجية بعيدة الآماد فإن الحاضر الراهن لا يعدو أن يكون منطلقا يهيئ لصيرورة تاريخية جديدة، ومن هنا غلب معيار الاستشراف المستقبلي على تحقيق المكاسب العاجلة. وهنا_على وجه التحديد_ تجد إشكالية الطفل العربي كل ثقلها الحضاري. إننا حين نقف بتأمل نقدي على الأصوات الداعية إلى "**إصلاح لغوي شامل يبدأ من المدرسة، ويمكّن الطفل العربي من امتلاك لغته القومية وتنميتها في المستقبل من خلال إستراتيجية عشرية**"[5] نرى أنفسنا مضطرين إلى إلقاء السؤال المكرر المستعاد: بيدِ من مفتاح حل المعضلة: أهو بيد منتجيّ الأفكار أم بيد صنّاع القرار؟ وإلى أي مدى يمتلك الجالس على كرسي القرار صناعة قراره؟

إن هناك ضربا من الحقائق الجديدة يبدو القائمون على مصائر الأقطار العربية في غفلة عنها، فإن لم يكونوا غافلين فربما هم يرونها من الخيارات القابلة للتأجيل حتى ولو أمسى التأجيل هو قاعدة العمل لا استثناءَها. فهناك حقائق ذات بعد سياسي، فقلما ينتبه أهل الشأن بيننا إلى الصلة الوثيقة بين القرار السياسي ومقومات الهوية الحضارية مهما نأى الموضوع في ظاهره عن مسألة الانتماء، ومهما قلّل البعض من انعكاساته الظاهرة عليها.

وقد لا يخطر بالبال ما يعود من ذلك كله على مستقبل علاقة الناشئة بهويتهم الحضارية من خلال إعادة تشكيل هويتهم اللغوية.

وهناك حقائق ثقافية وثيقة الصلة بموضوعنا، ذلك أن كثيرا من الشعارات النبيلة يتم تشويهها كي تسوّق بها آليات النسقية الكونية المكتسحة، من ذلك: الحقوق اللغوية كشعار يؤلب الأقليات، وحق الطفل في أن تكفل له الأنظمة التعليمية ارتباطه الدائم بلغة الأمومة، وأهمية التصاق الإعلام بمكونات الحياة اليومية، وعن هذا الشعار انبثق "تلفزيون الواقع" بكل شططه وإسرافه، وبكل أحماله في إعادة تكييف الملكة اللغوية الخلاقة. ولكن هناك حقائق معرفية، فكأن فصاما حادا أحماله في إعادة تكييف الملكة اللغوية الخلاقة. ولكن هناك حقائق معرفية، فكأن فصاما حادا يفصل العرب اليوم عما حققته منظومة العلوم التي تتخذ من اكتساب الطفل للغة محورا لها، وفيها تتضافر جهود اللسانيين وعلماء النفس وعلماء الاجتماع وفلاسفة التفكير وعلماء الأعصاب والمختصون بعلوم الإدراك الذين من بينهم علماء الحاسوب.

إن المعرفة اللغوية الحديثة قد عالجت من القضايا ما نحن في أمس الحاجة إلى الإفادة منها كي نحسن تشخيص المسألة التي من أجلها ينعقد مؤتمرنا هذا، ويمكن أن نقتصر على ذكر ثلاث منها: قضية الثنائية اللغوية

وهي التي تعني في مصطلحات العلم اللساني الحديث تعايش نمطين من الأداء في سياق لغة تاريخي واحدة: نمط أدبي فصيح ونمط عامي دارج، والنمطان أصبحا يرضخان لقواعد صوتية ومصرفية وتركيبية متباينة، وهذه الظاهرة تسمى في مصطلحات العلم: (diglossie-diglossia).

كما عالجت اللسانيات هذه الظاهرة عندما تشتبك مع ظاهرة أخرى وهي الأزدواجية (bilinguism-bilingualism) وتعني تعيش لغة أجنبية مع النمطين اللغويين الأصليين[6]. ومن أهم ما عالجته اللسانيات مسألة اختلاف اللغات بين ألسنة تعتمد الإعراب وألسنة لا تعتمده، وهذه قضية أساسية في تناولنا للوضع اللغوي السائد في الوطن العربي، لأن جميع المنبثقة عن العربية الفصحى أسقطت ظاهرة الإعراب، فالتحقت بصنف اللغات المسمّاة "ألسنة تحليلية" في مقابل اللغات الإعرابية المسماة "تأليفية". ولعل أكبر ثورة أنجزتها اللسانيات هي المتصلة بموضوع الاكتساب اللغوي، وهو ما تقع في صميمه قضيّتنا المبدئية هذه.

إن اللسانيات ما انفكت تعزز مواقعها بين سائر العلوم الإنسانيّة والاجتماعيّة متبوّئة بذلك منزلة ريادية لا من حيث خصوصيّات المعرفة اللّغوية التي تستكشفها، لأنه لا تفاضل بين العلوم في مضامينها، ولكن من حيث خصوبة المناهج التي تتوسّل بها، والروائز الاختباريّة التي تمارس على مادة البحث لديها. على أن من وجوه الفضل في البحث اللساني ـــوإن لم يكن مدعاة للتباهي بين أفنان المعرفة البشرية ولا مدعاة للتزكية بين المتخصصين فيها قبالة المتخصصين في أي مجال آخر من مجالات العمل العلمي ــ أنّه يعالج موضوع اللّغة الذي هو قاسم مشترك بين كل وجوه النشاط في الفكر البشري، فما من علم من العلوم إلا والعقل الإنساني يتكئ فيه

على اللغة: إن لم تكن مرمًى من مرامي نشاطه فلا أقلّ من أن تكون أداة من أدواته.

ولعل هذا المنفذ هو لذي بوّأ العلم اللّغويّ موقعا جدّا بين نظرائه في حقل المعارف النسبيّة إذ أرست اللسانيات قواعد تضافر الاختصاصات في عصر خيّل للفكر البشريّ فيه أن درجة التخصّص في البحث قد بلغت حدّا من الحُرمة غدا معها من المحظور تخطّي المفاصل القائمة بين مجالاتها. وفي حين فرضت الثورة العلميّة الحديثة إسقاط الحواجز بين فروع العلم الدقيق إذ أصبح الارتباط بين الفيزياء والرياضيات والكيمياء والبيولوجيا ارتباطا اقتضائيا، كان لزاما على العلوم الإنسانيّة والاجتماعية انتظار الثورة اللسانية حتى يخرج تمازج الاختصاصات بينها من دائرة الاختيار والترف المعرفي إلى بوتقة الاقتضاء المحوري والاضطرار المنهجي.

فإذا كانت بعض الفروع المتمازجة مع المعرفة اللغوية تسير اليوم بخطى وئيدة تفرضها طبيعة البحث وانحسار فرجة الاستثمار التطبيقي – كمجال البيولوجيا العصبية عند استكشاف مقوّمات الارتباط بين التفكير والكلام، وكمجال معالجة العاهات النطقيّة بتعاضد جهود أطباء الحنجرة وعلماء الأصوات– فإن فروعا أخرى نراها تحقق إنجازات متلاحقة، وتقفز بمسافات كبرى، يبرز من خلالها التوافق التطبيقيّ من جهة وحسن الاستخلاص النظريّ من جهة ثانية، وتنفتح معها من جهة أخرى آفاق مستقبليّة واسعة قد يمثل التسابق: إليها سمة من سمات الدّخول إلى ثورة العصر من بابها الأكبر ولاسيما في وعي الأمة المتحفزة نحو استعادة منزلتها الحضارية والمعرفيّة.

ومن بين هذه الفروع المتمازجة التي تتطور تطورا عجيبا – بسرعة نسقها وكثافة إنجازاتها – اللسانيات التربوية، وهي حقل منا انفكت أطرافه

تترامى بتعّد أبعاده، إذ تتفرع مجالات الاهتمام فيه تبعا لمقاييس الزمن والمادة والموضوع. فمقاصد علوم التربية تختلف باختلاف شرائح العمر الذي يكون عليه المتلقي للمادة التعليمية، ثمّ تختلف من جهة ثانية اختلاف المادة التي يراد تلقينها أو إبلاغ مضمونها، كما تختلف المناهج التي يرسمها العلم التربوي من جهة ثالثة بحسب موضوع الاهتمام إن كان تثقيفا أو تلقينا، أو كان إعدادا لخبرة عملية أو تهيئة لاجتياز مناظرة من لمناظرات، فلكل وضع من أوضاع الزمن والمادة والموضوع حالة بيداغوجية مخصوصة، فإن نحن أخذنا بالحسبان تفاعل كل صورة من صور التمازج بين هذه العناصر الأوّليّة تبيّنا مدى التشعب الذي يصل إليه استقراء الحالات الممكنة، ولذلك أصبحت اللسانيات التربوية سياقا هو من أهمّ سياقات اللسانيات التطبيقيّة عامة.

ومن المعلوم اليوم أن المعرفة اللسانيّة تتوزّع إلى تيارات نظرية مختلفة كثيرا ما يصل بها التباين إلى حدّ الفرقة: في المنهج حينا وفي التفسير حينا آخر بل وفي التأويل أحيانا كثيرة، غير أن جملة من الأصول تظل جامعة بين كل المدارس اللسانية فتغدو كالثوابت التي تعطي للعلم هويته المعرفية، وتميّزه عما سواه، ولاسيما من المعرفة اللغوية التي تحتكم من جانب إلى مقاييس فقه اللغة كما توارثته لحضارات المختلفة وتسعى من جانب ثان إلى تشييد صرح علم النحو من حيث هو لسان لدفاع عن سلطة المعيار التي ينافسها الاستعمال بسلطة مضادة. ومن الثوابت الجامعة بين التيارات اللسانية اليوم، بل لعلها أم الثوابت، أنه ما من مدرسة لسانية إلا ولها نظريّة متميّزة تخص قضيّة اكتساب اللغة، وتطوف هذه النظرية عادة حول مسائل مبدئيّة تتصل بصفة مباشرة أو ير مباشرة بتحديد الظاهرة اللغوية في وجهيها المعمّم الشامل والنوعيّ المخصوص، ولكنها تعرّج بالضرورة على لقضايا المرتبطة بتعليم اللغة بوصفه مرتكزًا لا غنًى عنه في موضوع الاكتساب، وفي هذا المفترق بالذات تتواج

بدقة متناهية مشاغل اللسانيات العامة بعلم التربية فيتولّد الحقل المتضافر وهو اللسانيات التربوية بالنعت التخصيصي.

ومما لا شك فيه أن المعارف اللغوية قد عرفت طورا كبيرا في واقعنا العربي وأن المعرفة للسانية بوجه مخصوص قد تدعمت في مؤسساتنا الجامعية، وأثمرت على صعيدي الخبرة النظرية والخبرات التطبيقيّة ثمارا بيّنة، غير أن مجال اللسانيات التربوية قد ظل يشكو نقصا مكشوفا وذلك لغياب رؤية شاملة، ولافتقار مؤسساتنا إلى مشروع متكامل في هذا المضمار. وكل ما أنجز إنما هو في مجمله من حصيلة لمبادرات الظرفية ــ فردية كانت أو جماعية ــ فتأتي المحاولات محدودة المدى.

إن كل ذلك يجري في نطاق تلاحق الأحداث التي تطغى على الواقع التربوي بشكل يجعلها تسيطر على الظاهرة المعرفية أساسا، ثمّ إن التكامل العضوي الذي يقوم اليوم بين الاهتمام اللساني والاشتغال التعليمي كأنما هو جزء من قناعات اللغويين أكثر مما هو مندرج ضمن هموم القائمين على علوم التربية، ولذلك كثيرا ما ترى اللغويين يسعون إلى المربين ليشركوهم في اهتماماتهم أكثر مما ترى البيداغوجيين ساعين إلى علماء اللسان ينشدون الوصفات التشخيصية لأمهات قضاياهم.

ولئن كان منا نذكره من البدائه التي يفصح عنها واقعنا المعيش فإن مثالين يكفيان لمزيد الاستدلال على ما نأتي به إذ يقومان مقام الأنموذج الأوفى لهذه الحلقة المفقودة بين الحقول المعرفية والتربوية والإبداعية، فالمثال الأول هو تأليف الكتاب المدرسي. ولئن أطرد اليوم في بعد أقطارنا إسهام اللغوي ينفي تأليف الكتب المدرسية المتصلة بمقررات اللغة العربية من نحو وصرف وبلاغة وعروض، فإن الوعي العلمي يقتضي منا اليوم تشريك اللساني ولو بدرجات متفاوتة في كل مصنّف تعليمي مهما كان محور

الاختصاص فيه، لأنه هو القادر وحده على تحسس بعض الدقائق المتصلة بقناة الإيصال التي هي اللغة بكل حيثياتها. وأما المثال الثاني فيخص تأليف قصص المطالعة المعدّة للأطفال وهو مجال إبداعي مازلنا نتعامل معه إما بضرب من الهواية –حيث ينتصب البعض في برهة تائهة من الزمن مؤلّفا لقصص الأطفال– وإما بضرب من الاحتراف الأدبي حيث يطوف بعضهم بملكاته الإبداعية بين الرواية التاريخية والقصة المسرحية والكوميديا، وفي الأثناء يعرّج على أدب الطفل فيكتب للناشئة ما عنّ، والحق أنه إذا كانت اليوم ضرورة قصوى للاستعانة بخبرة اللغويين على الصعيد التربوي فإنما ذلك بالأولوية المطلقة في كتابة ما به نصقل طينة الفكر لدى الأطفال.

ومن فرط تراكم عوامل الحيرة تجاه هذه الحلقة الغائبة في واقعنا التربوي، وبحكم تركّز قلقنا المعرفي على كل ما له قران بالظاهرة اللغوية، في تشكلها الكلي كما في تجلياتها، باشرنا في مراحل مختلفة ورشات من الاختبار البيداغوجي طفنا فيها بكل مراحل النمو التربوي من رياض الأطفال إلى أعلى مدارج الجامعة، ولم يكن شيء يحدونا إلاّ الحرص على استبصار المقوّم اللغوي واستكشاف مدى تصاقبه مع العنصر النفسي والمكوّن الإدراكي بحسب ترقي الملكات الذهنية عامة[7].

وقد أوقفنا البحث الطويل على التسليم بأن اللسانيات التربوية يمكن أن تنجب حقلا متناهي الاختصاص تنحصر دائرته في معالجته موضوع مقوّمات التكوين التربوي ومقاييس الاختبار فيه، وذلك من زاوية التحصيل اللغوي وعلى وجه التحديد انطلاقا من إشكالية الدلالة. ذلك أن معضلة المعنى وتجلياتها في بلورة الدلالة من خلال البنى اللغوية قد بدت لنا مرتكزا أساسيا في تتبع آليات الإدراك، ومستنَدا قارا في توالي

القواعد الإجرائية على الصعيد التربوي. وعلى البناء يتحدد اختيارنا لها كرائز جوهري نتخذه محكّا اختباريا على مدار المحطات البيداغوجية التي نتناولها بين مقياس الزمن ومقياس الارتياض.

إن الوجه الذي نقصر عليه اهتمامنا في هذا النطاق هو قضية اكتساب الطفل العربي للّغة العربيّة وذلك انطلاقا من الوضع الخاص الذي يعيشه الطفل العربي وهو في بيئته العربية الخالصة، فقد يحصل أن يمر بعض أبنائنا بمنشإ لغوي خاص إما بحكم انحدارهم من زيجات مختلطة أو بحكم ظروف معيشيّة تفرض عليهم النشأة في بيئته مزيج ـ عربيّة وغير عربيّة ـ أو في بيئة أجنبية بالكليّة، فضلا عن النتائج المتأتية من البيئات اللغوية العابرة والتي تسببها الحاضنات والمربيات بمختلف انتماءاتهن العرقية واللغوية.

وتتمثل خصوصيّة الوضع للطفل العربي ذي المنشإ الخالص في أنه يواجه منذ مراحل الاكتساب التعليمي الأولي واقعا لغويا دقيقا تكون فيه اللغة العربية الفصحى بمثابة لسان طارئ بالنسبة إلى للهجة التي هي اللّسان الطبيعي المكتسب لدى الطفل بالأمومة. ومعلوم أن ذلك هو صورة للوضع اللغوي المتعقد في واقعنا الراهن والذي تتعدد فيه المستويات والأنماط معا.

فإذا بحثنا في تعدد المستويات اللّغوية في صلب اللّغة العربيّة نفسها وجدنا مستويين أساسيين: مستوى كتابيّا ومستوى شفويّا، والأوّل مستوى العربيّة الفصيحة، والثاني مستوى العربيّة الدّارجة ويطلق عليها أحيانا اللّغة العامية أو لغة التخاطب. وتتفرّع كلتا اللّغتين إلى مستويين آخرين: فتشمل العربية الفصيحة مستوى الفصحى القديمة، ومستوى الفصحى المعاصرة، بينما تشمل العامية اللهجة المهذبة واللهجة الساذجة.

فالفصحى القديمة وتسمّى العربية القحّة تعرّف بأنّها اللغة البليغة المنزّهة عن اللحن مهما كانت درجته وأيا كان سياقه في دلالة الألفاظ أو في بنية التركيب، أماّ وظيفتها الاجتماعيّة النفسيّة فتتمثل في أنّها الباب الذي تنفذ منه التربية الأصيلة في الدين والثقافة، فهي باب العربي المسلم إلى القرآن والحديث والشعر والأدب. وأمّا الفصحى المعاصرة فهي لغة المدارس، والكتب التعليميّة، والصحافة السيارة، والأجهزة الإعلاميّة، وخاصيّتها أنها تقوم على ما حدث من تفاعل بين الفصحى القديمة وعناصر أجنبيّة عنها تفاعلت معها بموجب احتكاكها بطبقات مختلفة من الأداء التعبيري تخالطها القوالب السيارة المستمدة من قانون المجهود الأدنى.

وأمّا اللّهجة المهذبة فهي دارجة المثقفين، وتقوم على نسبة كبيرة من العربيّة المبسّطة، وتستعمل عادة في المحادثات الرسمية، وفي خطب الساسة والإدارة، وكذلك عند نخبة المثقفين، وهي تجمع ما سهل من الفصحى وما هو من خصائص اللهجات الدارجة صوتيا وصرفيّا ونحويا. ثم لدينا أخيرا اللهجة الساذجة، وهي دارجة عامّة النّاس تفرّعت عن العربيّة الفصحى، وباينتها، فاختلفت حسب الأوطان العربيّة اختلافا جوهريّا حتى أصبحت لغات متميّزة لا رابط لها سوى انتمائها تاريخيّا إلى أصل واحد. أمّا قيمتها الاجتماعيّة فهي مركز التعامل اليومي في شؤون الحياة وسط المجتمع.

ويوزّع علماء الاجتماع هذه المستويات حسب رموز الانتماء في المجتمع معتبرين أن الفصحى القديمة هي لغة "الأبوّة" والفصحى المعاصرة لغة "المعلّم" والدارجة المهذبة لغة "السياسة" والدارجة الساذجة لغة "الأمومة". وإذا التمسنا وصف الواقع اللغوي وصفا شاملا وجب أن نشير

إلى أن كل هذه المستويات قد تتعايش مع اللّغة الأجنبيّة هي التي يعبّر بها عن التراكيب الفكريّة والتّجريبيّة وبالتالي هي مترجم الحضارة العصريّة.

ونتيجة لما أسلفناه فإنّ الفرد تجاذبه واجهات لغوّية متعدّدة، لأنّ مستويات التعبير وإن تعايشت فهي في حالة اصطراع باطنيّ ممّا يجعل الفرد في حالة تمزق لغويّ يضعف الطاقة التعبيريّة عنده رغم ما يقدّمه له من خصب وثراء. على أنّ لظاهرة تعدّد المستويات اللّغوية هذه نتائج نوعيّة تؤثر في المشهد اللغوي العام الذي يستقي منه الطفل العربي نماذجه اللغوية المجردة:

أـ ضعف الرابطة اللغوية التلقائيّة بين أفراد البلاد العربية وهي نتيجة لانقسام اللغة إلى مستوى مكتوب وآخر منطوق بالممارسة، وتفرع كل منها إلى فروع ولهجات، واللهجات كثيرا ما تكون عائقا دون الفهم بين أبناء القطر الواحد فضلا عن أبناء الأقطار المختلفة، فلم يعد للأقطار العربية لسان واحد، وإنّما اختلف اللسان بينهم باختلاف أوطانهم.

بـ ضعف الأداء اللغوي، وهي ظاهرة تعزى إلى أن وسيلة الإبلاغ تشغل الفكر أكثر ممّا مادّة التفكير فيقصر عن الخلق والإنتاج.

جـ انعدام وسيلة لغوية موحّدة تمكّن الطفل بمجرّد ارتفاع الأميّة عنه من التعبير عن آرائه وغاياته شفاهيا وكتابيّا ببعد واحد، فعمليّة الإفصاح تتقاسمها السبل المتراكمة والمتعاظلة.

دـ الشعور بالغربة الناتجة عن تعدّد الواجهات اللغوية: فالطفل العربي يحس ـ بوعي صريح أو بوعي غامض ـ بأنّه غريب بين لغة رسميّة، ولغة تعامليّة، ولغة مزاحمة يؤكد أنصارها أنّ العجز والقصور في اللغة لا في الفهم.

فالرابط العضويّ المستقرّ بين اللغة والواقع مفصوم في واقعنا نتيجة هذه الأوضاع اللغوية قبل كلّ شيء، أضف إلى ذلك المشاكل النفسية وما تولده من مركبات إزاء اللغة، فمنها مركب النقص عند البعض ويبرز في ظاهرة فقدان الثقة بمستقبل اللغة العربية واليأس من سيطرتها على زمام العلم والمعرفة، وسببه التاريخي انتشار التكنولوجيا الغازية في حقول معيّنة، بحيث توهّم النّاس أن اللّغة العربية لا طاقة لها بمنافسة اللغة الأجنبية في تلك الحقول وإنّما تبقى ـ حسبهم ـ لغة دين وتاريخ وأدب على أقصى الاحتمالات.

ومن تلك المضاعفات النفسية مركب الانسلاخ والتنكر ويتجلّى عند بعض الناس في مظاهر عديدة أخطرها: حبّ التّظاهر والمباهاة بكلّ ما هو أجنبي في اللّغة، فيصبح التعامل باللّغة الأجنبيّة ـ مشافهة أو كتابة ـ سمة من سمات الحداثة والرقي في السلوك، ومن مظاهر إكبار الأجنبي في منتوجه الفكري عبر قداسة اللّغة، وهذا المظهر يتجاوز السّلوك، فيصبح نمطا من القناعة ويؤدّي إلى تفضيل اللغة الأجنبيّة على العربيّة إطلاقا في كلّ منتوج فكريّ.

ومن بين المركبات النفسيّة ما تستفزه تلك الأوضاع من ردود فعل تتجلّى أحيانا في مركب التعصب للعربية والانتصار لها بموقف معياري ينقض كل قيم اللّغات الأخرى، ودوافع هذا الموقف كثيرا ما تكون متلبسة ببعد غيبيّ. هكذا تتجاوز نتائج المشاكل النفسيّة حدود اللغة باعتبارها أداة إفصاح إلى جوهر الثقافة بما تبعثه من شعور بأنّ قصور اللّغة يؤدّي إلى قصور الثقافة، وبالتالي تنحسر دائرة الإشعاع الفكري بمجرّد مقارنتها بطاقة الثقافة المتسلطة. هذا الوضع اللّغوي لاشكّ يخلق إحساسا بالقطيعة مع التاريخ بين الماضي والصيرورة الراهنة، وهي قطيعة مريبة لأنّها لا تفضي إلى رفض

الماضي نهائيا ولا تسمح بالانصهار التّام فيه وإنّما هو تأزّم وصراع بين منزلتين.

فإذا عدنا إلى انعكاس هذا الوضع على الطفل ولاسيما في المراحل الأولى للاكتساب التعليمي، وهي التي تبدأ مع سن الرابعة تصادف فترة رياض الأطفال في مرحلتها الإعدادية أي مرحلة ما قبل المدرسة، فإننا نتبيّن بوضوح ما يجره الطفل من انعكاس الوضع اللغوي العام، ولكننا في سياقنا المحدد هذا وفي مسعانا المعرفي المخصوص نبادر بالتأكيد على أن العربية الفصحى واللهجة الدارجة ـ مهما كان نمطها في واقعنا العربي ـ لا تمثلان من وجهة نظر علميّة مجرد صورتين منسلختين لحقيقة واحدة، وإنما هما نسقان متمايزان: في أصوات الحروف وموازين الكلمات من جهة أولية، وفي بنية الجملة ودلالات الألفاظ من جهة مركزيّة، وهذا هو الأهمّ إذ فيهما تتفارقان تركيبيا وتصبح كل واحدة منتمية إلى نموذج مخصوص من الألسنة البشرية: الفصحى إلى اللغات الالتصاقية وهي المسماة باللغات التأليفية لاعتمادها تغيير أواخر كلماتها عند انضمام بعضها إلى بعض، واللهجات إلى اللغات الانفكاكية وهي المسماة باللغات التحليلية لاعتمادها على عناصر لغوية تُبرز بها الروابط القائمة بين الكلمات عند ارتصافها في سلسلة الخطاب.

ذاك شيء من التشخيص اللساني للوضع اللغوي الذي يكتنف الطفل العربي وهو ينشأ في بيئته الاجتماعية فالتعليمية فالوظيفية، ولئن أشارت كلّ الدراسات الميدانية إلى اتساع المساحة الفاصلة بين الفصحى واللهجات، وإلى تناثر الجهود في العمل العربي والإسلامي المشترك، وإلى افتقار العرب لمشروع تربوي ضمن خطة شاملة، فإن كل ذلك يدفعنا دفعا إلى الكشف عن المسكوت عنه بغية تحديد مواقع المسؤولية التاريخية. وفي هذا لا

مناص لنا من مواجهة الحقيقة الغائبة، والتي تدور حول التباس موقف العرب مع لغتهم من خلال مؤسسات القرار قبل مؤسسات إنتاج الأفكار.

لقد أقامت الدراسات الملتزمة دعواتها على أساس ربط مستقبل اللغة ومستقبل الوجود العربي وهي بما أشارت إليه قد وضعت الإصبع على المنتهى الأقصى للمعضلة اللغوية في بعدها السياسي الصريح. إن موضوع اللغة أمر جليل، ولو لا خشية المظنات واتقاء انفلات التأويل لقلنا إن اللغة أجلّ من أن تترك بيد السياسيين، فلا تعجب، والسبب في ذلك أن رجال السياسة عندنا يصنعون الزمن الجماعي على مرآة زمنهم الفردي، أما رجال الكر فينحتون زمنهم الفردي على مقاس الزمن الجماعي، فإن نحن سلمنا بجلال الظاهرة اللغوية فممن المفروض أن يكون شأنها عند أمة العرب أجلّ وأمكن. لكن الواقع التاريخي الراهن يشهد بعكس ما كان من المظنون أن تجري به الأحداث.

كتب التاريخ على العرب أن يكونوا بين الشعوب التي أناخ الاستعمار على مصائرها دهرا، ولكنهم كانوا في طليعة البلدان التي استماتت في معاركها التحريرية حتى نالت استقلالها، وبعد نصف قرن من قيام دولة الاستقلال ها هم يبسطون على الفكر الإنساني النقدي حالة مستعصية، فهناك مأزق في صيرورتهم التاريخية، هناك حجم هائل من التناقضات بين العديد من مكونات الوجود الجماعي لديهم، ذلك أن "لسانهم" هو نفسه أصبح يطرح أزمة حادة بين دلالته في ذاته وماهو دال عليه خارج سياجه اللفظي، إنّه المأزق بين بنية المفاهيم وتشكلات السياق المتنزلة فيه.

لكأن ما يتحدث عنه فلاسفة السياسة وفقهاء الفلسفة، فيسمونه بالعطالة التاريخية، لم يصدق يوما كما يصدق على أمة العرب منذ نصف

قرن، والعجيب أن عجلة التاريخ كانت تدور على منوالها الطبيعي حتى في الحقبة الاستعمارية بحكم التوحد الجماعي على ضرورة إخراج المستعمر والأخذ بأسباب الحضارة كي لا تتكرر ظاهرة الاستعمال ولكنها انحشرت شيئا فشيئا في مآزق الزمن خلال هذه العقود التي هي عمر دولة الاستقلال في جل أوطاننا.

هي هذه العطالة المحفوفة بالغاز العبث الوجودي الذي يسافر على الأرض العربية إلى تخوم اللامعقول، نقرأها على شاشة السياسة إذ نتعجب لماذا لم تنجز دولة الاستقلال وعدها الأكبر، ونقرأها على لوحة الاقتصاد، فالأرض العربية –بين ما عليها وما في بواطنها– ملأى بالثروات الطبيعية ولكن العطالة جاثمة، فالعرب ينوسون بين فحش الثراء ووقاحة الخصاصة ولكن العطالة نقرأها أيضا في المشهد الفكري بين الثقافة والمعرفة، وليست حالة الأميّة بعد كل هذه العقود من الاستقلال إلا شاهدا من بين الشواهد المتعددة والمتنوعة. ويكفي – لو أردنا اختزال الظواهر الكبرى في ملامحها البادية– أن نرى الجهد الأعظم لدى النخبة كثيرا ما يصرفونه في البحث عن الوسائل والمنهج والمسالك قبل أن يلجوا إلى جوهر القضايا ومضامينها، ناهيك أن ثنائية الحاضر والماضي لم تحسم بعد لدى فئات عديدين من النخبة، ولا حسمت إشكالية القراءة ولا إشكالية التأويل.

وبين السياسة والاقتصاد والثقافة ينبثق جامع أكبر سيكون هو الشاهد الجامع لكل واجهات العطالة التاريخية، إنه مأزق اللغة العربية على أيدي أهلها وأبنائها، ويكفي أن المشهد ما أنفك يتلوّن بأصباغ درامية تبعث على الاستغراب والعجب، فهذه العطالة التاريخية – وهي تحيط باللغة، وتنيخ على ظهرها، فتجثم بكلكلها على مقومات بقائها – تحدق على مرأى

أصحاب القرار ممن يتولون الأمر ويدبرون المعاش، ويخططون للمستقبل، ويستشرفون مآل شعوبهم بعدهم. وإننا على يقين بأن انفصاما حادا يقوم اليوم في الواقع العربي الراهن بين حضور الوعي العام في السياسة والاقتصاد والمعرفة وغياب الوعي الخاص بالمسألة اللغوية، وأن هذا الانفصام إلى حد التصادم الضدّيّ لم تعرفه الشعوب الأخرى، ولا عرفه العرب أنفسهم في أي حقبة ماضية حدثنا عنها تاريخهم البعيد والقريب.

تلك العطالة وهذا الانفصام إذا أردنا تدقيق أمرهما واستكناه تجلياتهما كفانا أن نقارن ما أنجزه العرب خلال عقود دولة الاستقلال بما أنجزته شعوب عديدة أخرى في آسيا وفي أمريكا اللاتينية، أو بما بدأت تنجزه بعض الشعوب الإفريقية، أو ما تقدم على إنجازه بخطى واثقة الشعوب التي تحررت مؤخرا من سطوة المنظومة الاشتراكية في غرب أوربا وشمال آسيا، ووراء كل حالة من تلك الحالات مشهد من مشاهد الإنجاز اللغوي ينضاف إلى لوحات الإنجاز السياسي والاقتصادي والثقافي.

فإذا أدرنا مجهر الأضواء صوب القضية اللغوية دون سواها من القضايا الأمهات ألفينا أنفسنا وجها لوجه أمام خصيصة أخرى من الخصائص الواسمة لحالتنا العربية، ومدارها أن أمة العرب اليوم – بين أولي الأمر السياسي فيهم وأولي الشأن الفكري أيضا – غائبون أو كالغائبين عن محفل الحقائق العلمية الجديدة في مجال المعرفة اللغوية. وإنّنا لواعون بأنّنا إذ نعمم هذا الحكم فإنّنا نجازف، وقد نجترح مآثم الإجحاف الفكري. ومن أجل هذا نبادر بملمحين، أولهما أنّنا لا نعني بما نقوله افتقار العرب إلى علماء في مجال العلم اللغوي الحديث، وإنّما نعني أن المعرفة اللغوية لم تستطع اختراق الحجب ليتحول الوعي بها إلى جزء من الثقافة العامة، يستلهمها أصحاب القرار، وتستوحيها النخبة الفكرية المختصة بحقول

المعارف الأخرى، وثانيهما أن التعميم الذي نتعمده تنجلي تفصيلاته العينية كلما تناولنا التجليات المحسوسة في استقراء المسألة اللغوية.

من أبرز الحقائق العلمية الغائبة عن الوعي العربي ما يتصل بموضوع "حياة" اللغة من حيث عوامل بقائها ودوامها أو أسباب اضمحلالها وانقراضها. ولئن كان من أشراط العلم وموضوعية خطابه أن ينأى بنفسه عن المجاز في العبارة وألا يتوسل إلا بالألفاظ في دلالتها الحقيقية، أو بالمصطلحات الفنية التي قد يسلك بها في البدء طريق المجاز ثمّ يختفي مجازها البلاغي بمجرد اندراجها في القاموس العلمي، فإن لفظتي الحياة والموت تبقيان الأكثر وجاهة في إطلاقهما على اللغة. إن الناس يسلمون طوعا بأن للغة حياة، وبأن هناك لغات قد أندثرت يحدثنا التاريخ عن مجدها ثمّ عن غلبة الزمان عليها، ويقرأ الناس بشغف قصة موت اللغات بنفس الشغف الذي يقرأون به قصة الدول التي بلغت أوج المجد، ثمّ ظل التاريخ ينال منها حتى أوقعها. غير أن الناس –في عامتهم وفي خاصتهم– لا يسعفهم خيالهم بما يجعلهم يتصورون أن اللغات التي تجري بها ألسنتهم الآن، ويتداولها خلق الله من حولهم، هي أيضا معرضة إلى الفناء التدريجي ما لم تتوفر لها أسباب البقاء. وهذا مرتبط بسر من أسرار وجود الإنسان على وجه البسيطة مطلقا، فهو نؤمن بأن الموت هي الحقيقة الوحيدة التي يجمع العباد عليها ماضيها وحاضرا ومستقبلا، ولكنه في النصيب الأعظم من حياته يأتي من السلوك ما يدل على أنّه في غفلة أو في تغافل عن تلك الحقيقة، فكأن طبع الإنسان مجبول على أن لا يرى الموت في الزمن الملابس لوجوده.

إن المجاز الذي لا يتناقض ومقتضيات البحث الموضوعي يدفعنا فعلا إلى تمثيل اللغة بالكائنات الحية حيث يجول مفهوم الممات، وبينهما

مفهوم البقاء إذا اجتمعت مقوماته ومفهوم الفناء إن تحتمت دواعيه. ولكن هذه التجليات المختلفة ـ شأنها شأن "النشأة" حين نستكشف ظروف "ولادة" اللغات بعضها من بعض ـ لا تحصل في المدى الزمني الذي يحيط به إدراك الفرد الآدمي، ولذلكن صعب الوعي بها كحقائق تطال على الواقع اللغوي كما نعيشه، واقتصر الوعي على ما مضى من ذلك في الزمن المنقضي سالفا.

غياب الوعي بالظواهر الممتدة على الزمن ينشئ ضربا من الضباب يحجب الحقائق حتى ما كان منها مقطوعا بصحته. ولهذه المسألة نظائرها في عالم المحسوسات، والمعضلة أن الناس –محكومين وحكاما- أكثر تجاوبا وأظهر وعيا كلما اتصل الأمر بالظواهر المجردة حتى ولو مست ألصق الأشياء بوجودهم، بل حتى ولو كانت الظاهرة واقعة بين المادي الكامل والمجرد المطلق شأن اللغة.

من أهم تلك الحقائق الغائبة أن العلم اللغوي ـالذي ما انفك يبلور نظرياته المتعاقبة، والذي ما فتئ يؤسس المناهج الدقيقة في كشف بواطن الظاهرة الكلامية، والذي يغوص يوما بعد يوم على أسرار العلاقة بين آليات التعبير وآليات الإدراكـ قد أمسى مهتما بقضية "موت اللغات" اهتماما متواترا مكينا، وهو يتناولها تحت ذاك العنوان نفسه، وإلى جانبه يهتم بنفس الحزم والكثافة بموضوع يجعله مواز، وهو "الحروب اللغوية" بصريح العبارة كذلك، فإذا توالجت معطيات الحرب اللغوية وفكرة موت اللغات انساق التحليل ببعض الواصفين والراصدين إلى الحديث عن "اغتيال اللغة" حيين يتقصد المعتدي الأقوى نسف مقومات الوجود الثقافي تمهيدا للقضاء على الوجود السياسي. وقد تتنوع أدوات الأداء

الاصطلاحي، فترى بعض العلماء اللسانيين يجول بين المفاهيم، فيستبدل بموت اللغات عبارة انقراض الألسنة الطبيعية[8].

ومن شدة حرص كبار المختصين على خطر الموضوع تراهم يمعنون في التأكيد على أن مصطلح الموت – أو الانقراض – ليس من المجاز البلاغي في شيء، ثمّ منهم من يستطرد إلى المقارنة السخية بين انقراض اللغات وانقراض بعض الكائنات الحيوانية، وبناء عليه تتم الدعوة إلى ضرورة الإعلان عن "محميات لغوية" شبيهة بمحميات الفصائل الحيوانية. ويكفي من شاء التحري أن يستطلع على سبيل الفضول البيبليوغرافي حجم ما يكتب في هذا المجال منذ عقدين تقريا. والمختصون في هذا المجال يعرفون العلاقة الجديدة القائمة بين النظرية اللغوية العامة واستقراء تاريخ الألسنة الطبيعية كيف تنشأ وكيف تنقرض، كما يعرفون كيف يعين كل نمط من أنماط الأداء اللغوي على استكشاف أسرار النسق الخفي القائم بين الكفاءة الذهنية لدى الإنسان وكفاءته في توليد الطاقة الدلالية بواسطة الكلام.

فهل نحن العرب معنيون بمسألة موت اللغات؟ وهل اللغة العربية تخوض الصراع مع أي لغة إنسانية أخرى؟ فإن هي تخوضه أفترقي المواجهة إلى الحد الذي يصح لأن نتحدث فيه عن حزب لغوية؟ ثمّ هل اللغة العربية تواجه من التحديات ما يهددها في وجودها، أو ينذر بامحائها إلى حد الزوال؟ ألا يبدو كل ما نقوله ضربا من الاستدراج يؤول في خاتمة مطافه إلى صياغة خطاب يتماهى مع آليات التحفيز الإيديولوجي، والحال أن البحث الموضوعي يبترأ من كل ضخ في مزامير العداء الإنساني، أو عزف على أوتار النعرة الحضارية. ما من خلاف حول أمر متعين بالضرورة وهو أن الوعي المعرفي في هذه القضية غائب أو كالغائب في ساحتنا العربية بوجهيها الساسي والفكري، ونكاد نجزم بأن الحوار فيها لن

ينفع مع رجال السياسة إلا مع من كان منهم معضودا بزاد فكري مرموق، ولن ينفع مع رجل الفكر إلا إذا كان مسنودا في تجربته المعرفية العامة بثقافة سياسية متينة. وقد نتبين أن غياب الحقائق يفضي ألى تعطل القدرة على استشراف التاريخ، وعلى استنظار منحنياته القادمة وبما قد تأتي به الأحداث المتعاقبة.

لنبادر بذكر عيّنات من الجدل الدائر في المحافل العلمية حول مسألة انقراض اللغات، وذلك على سبيل تبيان النماذج دون أن نفيض في الاستقراء حتى ولو كان من الاستقراء الناقص الذي يمسي فيه الجزء دليلا على الكل، فمحط نظرنا في هذا السياق ليس العلم اللغوي بما هو معرفة لها أشراطها، وإنما هو الثقافة من حيث هي الجسر الواصل بين الفكر والسياسة. وعلى هذا الأساس نزعم لأن مصير اللغة كمصير تنشئة الطفل وتمكينه من اكتساب لغته القومية هي مسؤولية سياسية خالصة. وفي هذا يجد استطرادنا هذا كل مشروعيته رغم ما يبدو عليه من خروج عن المقاصد. فكل المسالك تفضى إلى مصير اللغة انطلاقا من وضعها مع الأطفال كيف ينشأون معها – وكيف تحيا على ألسنتهم.

في 1990 أصدر فلوريان كولماس باللغة الألمانية كتابه "اللغة والاقتصاد" وترجم الكتاب بعد سنتين إلى الإنجليزية، ثمّ صدر مترجما إلى العربية[9] وقد تضمن لمحة موجزة عن "موت اللغات" مشيرا إلى حصيلة المعارف إذ ذاتك في هذه القضية، ومدققا بعض المفاهيم الرائجة[10]، وجملة الإفادة التي تخص سياقنا هذا ما يعرضه من ناموس "صراع البقاء" في المجال اللغوي، وكيف يرتبط ذلك بحركات الهجرة الطوعية أو التهجير القسري، وينتهي إلى تأكيد الحقيقة الحتمية الجديدة، والتي تتمثل في أن لغات العالم في تناقص عددي مطرد. وفي أثناء ذلك يقدم المؤلف إشارات تتعلق بالمصطلحات

المستخدمة في معالجة موضوع موت اللغة فيوازن بين تصورين مبدئيين: اعتبار الظاهرة وليدة إرادة البشر المتكلمين باللغة من جهة، وكاعتبارها لصيقة بخصائص اللغة في ذاتها من جهة أخرى، وعلى هذا الأساس يكرس للحالة الأولى عبارة اغتيال اللغة وللثانية عبارة انتحار اللغة.

لكن حالتنا العربية هي حالة أخرى، غير هذه وغير تلك، حيث لا يكون المغتال طرفا خارجيا ولا يكون في منظومة اللغة ما يجعلها تهترئ فتتفكك وتنحل حتى نتحدث عن انتحارها، وإنّما حين يتعمد أهل اللغة إطفاء رحيق لغتهم كما لو أنهم يئدونها وأدا بطيئا فيكونون هم المنجزين للانتحار اللغوي من حيث ينحرون لغتهم.

وفي 2001 أصدرت دار العلوم الإنسانية في باريس كتابا انتدبت إليه ثلة واسعة من المتخصصين في العلوم اللغوية والعلوم التي تتوالج معها في الأبحاث المتصلة بظاهرة اللغة، واتخذت له عنوانا فسيحا: "اللغة: طبيعتها وتاريخها وتداولها" ثم أضافت عنوانا فرعيا لتدقيق ما أسلفته: "النظريات اللسانية_المجادلات _الأصول_ الرهانات"[11] فجاء كالموسوعة التي إن لم تتضخم حجما فإنها تختصر المسافات العلمية بإيغالها في الجوانب المعرفية الدقيقة، وبتركيزها على التفريق بين النتائج الموثوق بها والقضايا الخلافية. يهمنا من كل المشاهد التي نسجت ألياف هذا الإنجاز ما أصبح كالحقيقة العلمية القاطعة، وهو أن عدد اللغات البشرية في تناقص، وأن التواصل الثقافي بين البشر جميعا ما انفك يدفع بظاهرة انقراض اللغات نحو تخومها القصوى.

وفي فصل بعنوان "علينا أن ننقذ التنوّع اللغوي" يتمّ تأكيد الناموس الجدلي الجديد، والذي فحواه أن البشرية فيما سلف من تاريخها شهدت تكاثر الألسنة عن طريق التولد التناسلي الذي تظهر فيه لغات جديدة أن تموت لغات أخرى، وذلك على أساس أن الذي يتولد يفوق ما

ينقرض، أمّ الآن فإنها تشهد اندثار اللغات دون أي حظوظ في تولد لغات جديدة: "إن الناس ينشأون على لغتهم، ثمّ يكتسبون لغة أخرى تهيمن على حياتهم، فلا يجدون جدوى في تلقين لغتهم لجيل الذي يتلوهم، وهكذا تنقرض اللغة.[12]

في ذاك الكتاب – ذي السمة المعرفية والموسوعية معا– شارك العالمان اللسانيان كلود حجاج ولويس جون كالفاي، فأما الأول فهو الذي أطلق صيحته المدوية في الكتاب الذي أصدره عام 2002 بعنوان "ضعوا حدا لموت اللغات.[13] وأما الثاني فقد أصدر في نفس السنة كتابه: "سوق اللغات" مدققا إياه بالعنوان الفرعي التالي: التأثيرات اللغوية للعولمة. وإليه يرجع ترويج عبارة الحروب اللغوية منذ أصدر عام 1987 كتابا بعنوان: "الحروب بين اللغات والسياسات اللغوية". ولذلك تمّ انتدابه لافتتاح لكتاب الجماعي الذي أصدرته سلسلة بانوراميك عام 2001 بعنوان: "اللغات: حرب حتى الموت".[14]

فبم نخرج من كل هذا الزخم العلمي البالغ التخصص كي نظل في نهجنا الذي تحكمه حيثيات سياقنا الدائر على لغة الطفل العربي في العصر الراهن؟.

لنعلمْ أولا أن عدد اللغات في العالم اليوم لا يقلّ بأي صورة من الصور عن أربعة آلاف لغة، وذلك إذا كانت مقاييسنا صارمة في عزل ما قد يكون لهجة من لهجات اللغة الأم، كأن نقتصر في العد والحساب على اللغة العربية الفصحى ونعزل كل اللهجات العامية، فإذا ما وسّعنا دائرة الإحصاء حصلنا على ستة آلاف لغة في العالم، وبناء على ذلك يفضل الدارسون المهتمون باستشراف المستقبل أن يعتمدوا الرقم الوسط:

خمسة آلاف لغة بالمعنى التام للغة الذي تخرج من دائرته العاميات وكل التنويعات اللهجية.

ولنعلم ثانيا أن عدد اللغات هذا يفاجئنا حين نضعه أمام عدد الدول في العالم الذي هو 200 دولة تقريبا، وهذا يعطينا معدل 25 لغة في كل بلد، وهو رقم يفاجئ كثيرا من الناس، ولكن المشهد سينجلي في أوجّ تعقده حين نعرف بالإحصاء حجم التعدد اللغوي داخل القطر الواحد، ويكفي أن نشير إلى أن في الكاميرون 200 لغة، وفي الهند 380، وفي نجيريا 410، وفي أندونيسيا 670، وفي غينيا 850، ويمكن أن نذكر ـمن بين الدول العربيةـ حالة السودان، فآخر إحصاء فيها (العام 2005) يبين أن عدد السكان في بلاد السودان 38 مليون نسمة، 20 منهم يتكلمون العربية و8 ملايين يتكلّمون 100 لغة أخرى. مع التذكير بأن الإحصاء قائم على اللغات ذات الكيانات المستقلّة لا على اللهجات الملتفة حول اللغة الأم الواحدة.

ولنعلم ثالثا أن عددا هائلا من اللغات تموت بمعدّل 25 لغة كل عام، وقد بات ثابتا لدى العلماء المختصين أن 600 لغة في العالم قد أخذت طريقها التدريجي نحو الانقراض، وأن النسق الحالي لمجريات الأمور سيفضيـ خلال هذا القرن الواحد والعشرينـ إلى اندثار ما لا يقلّ عن 3000 لغة. وقد بين الباحث الروسي ألكسندر كيبريك أن 130 لغة في روسيا قد أخذت طريقها نحو الانقراض بما يكاد يكون نهائيا.

ولا يفوتنا أن ننبه ــ رابعا ــ إلى أن العلماء المختصين منزعجون أيما انزعاج من هذا المشهد اللغوي في الواقع الإنساني قاطبة، وبصرف النظر عن دوافع الحنين أو بواعث الحميّة فإن هؤلاء العلماء يتحسرون لظاهرة الانقراض من موقع العلم الخالص، فكل لغة تموت تحرمنا من اكتشاف

نسق محدد ومخصوص من منظمات العقل البشري، حيث تتوالج المقومات اللغوية والنفسية والإدراكية، ثمّ إن انحجاب بعض اللغات يعطل مشروع علم اللسانيات النظرية في استكمال منظومة الأنحاء الموصلة إلى اكتشاف النحو الكلي.

أما الحقيقة الكبرى التي عليها يدور اهتمامنا في هذا السياق تخصيصا فتتمثل في أن مجال الطفولة هو المجال الأمثل لقتل اللغة وذلك حين تزرعه الظروف بالعوائق التي تحول بين الناشئة واكتساب لغتهم القومية.

إنها نبذة من الحقائق التي نراها غائبة عن الوعي العربي العام، وبغيابها تتعطل قدرة الاستشراف لديهم، ومن حق الراصد للمشهد العام أن يتساءل: ما عسى أن تعني تلك الأرقام حول اللغات في نفوس أهل الشأن الجماعي في الوطن العربي؟ وهل إن كشفها كفيل بأن يستزرع لدى النخب الفكرية والسياسية وعيا جديدا بالحالة اللغوية التي عليها العرب، أو بالمآل الذي ستصير إليه لغتهم العربية؟.

كانت الحقيقة العلمية بمثابة صفارة الإنذار نبهت الوعي الإنساني المتيقظ، فقد انتبه الكنديون لتقرير نشرته مؤسسة الإحصاء الكندية مفاده أن 47 لغة من بين الخمسين المتداولة في كندا قد أخذت طريقها نحو الاندثار، وانتبه الألمان إلى أن لغتهم تتدحرج على سلم الأولويات بحيث تتأخر رتبها بين العشر لغات الأكثر شيوعا في العالم، ويبرزون مخاوفهم على أساس أن مستقبل اللغة الألمانية يبدو غير مستقر في عصر تسيطر فيه الإنجليزية على التكنولوجيا العالمية، كما يتهمون الاتحاد الأوروبي بالتحيز ضد لغتهم؛ لأن اللجان المنبثقة عن المفوضية الأوروبية كثيرا ما تكتفي باستخدام الإنجليزية والفرنسية. والمهم هو أن مؤسسات العمل

الدولي قد تجاوبت مع الحقائق العلمية المقررة، فمنظمة اليونسكو التابعة لهيئة الأمم المتحدة قد أعلنت عن برنامج سمته "اللغة الأم" واتخذت له يوما عالميا هو 21 فيفري- فبراير من كلّ عام، وكان ذلك في إطار إعلان سنة 2000 السنة الدولية لثقافة السلام، وقد حددت اليونسكو هدفها من كل ذلك وهو حماية 6000 لغة إنسانية من الإندثار، وبتلك المناسبة شرح المدير العام للمنظمة يومئذ كويشيرو ماتسورا كيف فشل القرن العشرون في الحد من تسلط القوة على الثقافة الإنسانية بما أصبح يهدد خصوصياتها المتنوعة حتى اللغوية منها. وهكذا بعثت اليونسكو لجنة استشارية لتعددية اللغوية، تكونت من 12 خبيرا، عقدت أول اجتماع لها في مطلع شهر أوت ـ أغسطس 2000.

هذا هو إذن السياق المخصوص الذي يتنزل فيه ـ على وجه التدقيق العلمي والثقافي ـ مؤتمرنا، ومن هنا ندرك بوعي تام أهميته للأبعاد المترامية التي ينحت لنا إشكالاتها.

إن أمر اللغة عند العرب عجيب، وأعجب منه أمر العرب مع لغتهم. وبوسعك أن تجزم بأنهم يستثيرون من الاستغراب والتعجب ما لا تستثيره أمة من الأمم، وكثيرا ما يحار المتأمل بفكر خالص كيف يصار بالخيارات الجوهرية في الحياة الجماعية إلى مثل هذه الأوضاع التي كأنما يتحول فيها الفاعل عدوا على نفسه. والأوجع ـ لمن هاجسه الرصد الجزئي الدقيق ـ أن أصحاب القرار يتبنون حول المسألة اللغوية خطابا يستوفي كل أشراط الوعي الحضاري، ثمّ يأتون سلوكا يجسم الفجوة المفزعة بين الذي يفعلونه والذي قالوه. ثمّ يزداد المثقف ألما وشقاء حين يعلم علم اليقين بأن الحقائق العلمية ليس لها من الوزن لدى ساسة العرب ما لها لدى ساسة العالم المتطور. ولو تسلى أحدنا ـ على سبيل المرارة

الهازئة- بعرض الحقائق التي أسلفناها على من بيدهم مصائر شعوبنا العربية لما ألفينا بذرة واحدة من الوعي تنبههم إلى الخطر المحدق باللغة العربية، أما لو حاولت إفهامهم وإفهام فئات عديدين من "النخب" الفكرية بأن العربية قد تنقرض على المدى المتوسط من أعمار اللغات فسيكيلون لك بصواع الاستهزاء جزافا فجزافا.

المشكلة الآسرة هي أنهم سيفهمون عنك إذا حدثتهم عن تغير نسق التاريخ، وسيزكون خطابك إن أطنبت في أن تطور الظواهر العامة في حياة البشر- اجتماعة كانت أو اقتصادية وسياسية- أصبح محكوما بزمن جديد، فلم تعد وحدة القياس فيه العقود وإنما هي السنوات، وأحيانا تكون بالشهور والأيام، فإذا جئت معهم إلى المماهاة بين الظواهر والأحداث، فشرحت لهم أن وحدة القياس في انحلال اللغات وانقراضها لم تعد هي القرن وإنما أصبحت الآن هي العقود، استخفوا بك وبما ترى؛ ومن العجب أنهم – في تلك اللحظة، وبإجماع رهيب، ودون سابق توظيب بينهم- سيقذفونك بالتهمة الجاهزة وهي أنك واقع في قبضة شيطان المؤامرة.

ولكن التعب إلى حد الضنى سيدركك لو حاولت أن تشرح- لأولي الأمر في السياسة، وبعض أولي الشأن في الفكر والثقافة- الفروق الدقيقة بين المشاهد اللغوية الكبرى على الصعيد العالمي، ذلك أن الناس بيننا يميلون إلى الاطمئنان بأن انقراض اللغات في العالم يصيب لغة المجموعات الإثنية المعزولة، أو المحاصرة بمجموعات أكبر حجما وأثقل وزنا، وليس الأمر واردا- حسبما يخالون- على اللغة العربية، وهم في ذلك لا يميزون بين الظاهرة العامة التي مدارها انقراض بعض اللغات تحت تأثير لغات

أخرى غيرها، والظاهرة النوعية الخاصة ومدارها انقراض اللغة بانفلاق يصيبها من الداخل عند حلول الفروع التي انبثقت منها محلها.

إنّنا أمة لا ننفك نعمل على ضياع هويتنا اللغوية. وليس من اليسير إقناع الناس ـ صغيرهم وكبيرهم ـ بان للتاريخ أطوارا وللقضايا اللغوية محطات. وهي اليوم غير ما كانت عليه بالأمس. وقد لا يخفي هؤلاء جميعا استغرابهم الأقصى إذا كاشفناهم بحقيقة جديدة تخلقت في رحم الأحداث الكونية غير المسبوقة، وهي أن اللغات الأجنبية لم تعد هي العدو الأول للغة العربية، وإنما الذي حل محله في هذا العداء الشرس النافذ، والذي في مستطاعه أن يجهز على العربية فيذهب بريحها، هو اللهجات العامية حين تكتسح المجال الحيوي للفصحى. إننا ما فتئنا نفسح الأبواب للعاميات كي تغزوَ الحقول التي تحيا بفضلها العربية.

غزت العاميات منابرنا الإعلامية السمعية والبصرية وسكتنا.

غزت العاميات حواراتنا الثقافية وسكتنا.

غزت العاميات مجالسنا الفكرية، ثمّ تسللت إلى فصول التدريس ومدارج الجامعات، وها نحن نصمت متبرمين أو منخذلين.

فكيف نتحدث عن الموارد البشرية وتنميتها، أو عن التخطيط المستقبلي الشامل، وكيف نتحدث عن التنشئة السليمة للطفل العربي والحال أنّنا نعيش انفصاما بين أدوات المنظومة التربوي وشروط النهضة الحضارية؟ كيف نرقى إلى آليات الاستثمار في حقل التواصل؟ وكيف نمسك بأساسيات اقتصاد المعرفة؟ ومجتمعنا العربي هو المجتمع الوحيد ـ بين سائر مجتمعات المعمورة ـ الذي يتخرج فيه التلميذ من التعليم الثاني وهو عاجز عن تحرير عشر صفحات تحريرا سلميا: لا بلغته القومية ولا بلغة أجنبية؟ بم سيجيب ساستنا حين نذكرهم ـ على وجه القطع واليقين ـ بأن اللغة العربية قد كان لها

من الوزن الاعتباري لدى كل فئات مجتمعاتنا أيّام الاستعمار أضعاف ما لها منه الآن بعد عقود من دولة الاستقلال؟.

من له أدنى قدر من الحصافة يعرف أنه من المتعذر على أي مجتمع لأن يؤسس منظومة معرفية دون أن يمكّن الناشئة من منظومة لغوية تكون شاملة، مشتركة، متجذرة، حمالة للأبعاد المتنوعة فكرا وروحا وإبداعا. فاللغة هي الحامل الضروري المحايث لكل إنجاز تنموي. والذي له ذاك القدر الأدنى من الروية والرجحان عليه أن يعرف أن اللغة ـ بما هي موضوع للتعليم وللبحث وللإنتاج ـ ركن أساسي في كل مشروع اقتصادي.

لقد آن الأوان ـــ ويكاد يفوت ـ أن نكف عن اعتبار اللغة مجرد وعاء للفكر، وهو ما دأب عليه الميراث الفكري الإنساني قاطبة، ليست اللغة إناء نصب فيه التصورات الذهنية، والانفعالات الشعورية، والأحاسيس الغريزية، والاستلهامات الروحية. إن الفصل بين الظرف والمظروف، بين الوعاء وما فيه، بين الصورة والمضمون، هو الآن حماقة كبرى عاشت عليها الثقافات الإنسانية، ولكن فك شفرتها هو من الدقة والخفاء بحيث لم تنجل إلى بفضل تطور المعارف الإنسانية المتعاضدة، وما كان للعلم اللغوي أن يحسم الأمر في هذه القضايا لولا تآزره المتين مع ما يسمى بعلوم الإدراك التي تتصدرها علوم النفس وعلوم الأعصاب.

إن اللغة هي المعمار الخفي الذي يشيد به الفكر ويستقيم والذي على قوامه تستقيم تنشئة الطفل الذي هو مخزون الأمة وقاطرتها نحو المستقبل.

ثمّ متى يسلم أصحاب الأمر في وطننا العربي بكل أطراف المعادلة: أن السيادة الاقتصادية رمز للسيادة السياسية، وأنّ السيدة السياسية مستحيلة بدون سيادة ثقافية لغوية، وأن امتلاك لغة الآخر سلاح ليس له اعتبار تقديري في السياسة والاقتصاد والثقافة إلا إذا استند إلى مرجعية لغوية

قومية تعين الأنا على أن يقف ندا للآخر؟ **ولكننا** – في كل ماهو باد على السطح الدولي– **أمة بلا مشروع لغوي**، نحن مجتمع يريد أن يبني منظومة تنموية وهو يغمض العين عن مأزقه اللغوي المكين. وكم يحدث أن يتعاون– بوعي أو بدون وعي– أصحاب القرار مع فئات محسوبين على النخبة كي يتقلص إشعاع اللغة العربية، ثم يتفتت كيانها تدريجيا؛ وإذا بهؤلاء وأولئك– دونما قصد أو توقع– حلفاء موضوعيون لإرادات دولية نافذة ما انفكت تضغط كي تلاقيَ العربي المصير الذي لقيته الاتينية، فتحل العاميات المنحدرة منها محليا. إنها دعوة خرجت من سياق المناورات السياسية المعهودة، ودخلت ضمن الإطار الاستراتيجي الأوسع. وعلى هذا النسق– ما لم ينتفض أصحاب القرار بوعي فجئي جديد– سنكون في المنظور المتوسط المدى أمة بلا هوية لغوية.

لقد بدأت التناقضات تتكشف بين الخيارات اللغوية القومية وتوجهات السياسة الثقافية الدولية، وكان منطلق الشقاق هو تأوّل المصطلح المروّج، ومعلوم أن المرجع في الخيارات الدولية هو المفهوم المحايث للمصطلح الإنجليزي mother language وللمصطلح الفرنسي la langue maternelle، ويقصد بالمصطلح في دلالته العلمية الأولى قبل أن تخيم عليه ظلال التوظيب السياسي أوّلُ أشكال الأداء اللغوي الذي يمارسه الطفل في بيئته ويستخدمها لتحقيق التواصل بينه وبين المحيطين به. وأطلق عليه هذا المصطلح نسبة إلى المصدر الأول الذي يتلقى منه الطفل اللغة، وإدراكا للعلاقة الخاصة والوثيقة التي تربط الوليد الإنساني بأمه كأول كائن يُفرض أن يكون قد اتصل به.

ولما جيء إلى المصطلح لترجمته إلى اللغة العربية تباينت السبل في تقدير أمر اللغة أعلى وجه الاكتساب الاختباري المباشر يُعتمد أم على وجه

الاكتساب القيميّ المنشود، لاسيما واللغة العربية تزاحمها في كل الحالات لغة أجنبيّة مماحكة، وهذا ما قد انعكس على ترجمة المصطلح التي تعددت صيغها: لغة الأم، لغة الأمومة، لغة الاكتساب الأمومي وكلها تجذب الدلالة نحو لغة الأداء العاميّ، ثم برز مصطلح "اللغة الأم" جنوحا بالمقاصد نحو اللغة العربية الفصحى.

لقد سبق للعرب أن وضعوا "اللحظة الشاملة للثقافة العربية"[15] وفيها أكدوا على ضرورة العناية بلغة الطفل العربي كي يقوى على مواجهة تحديات العصر جميعها، ولكن البون ما انفك يتسع بين قرارات العمل العربي المشترك وحقيقة تنفيذها. وعلى هذا الأساس تتجدد جهود بعض الأطراف لسد هذا الشغور الحضاري، ومن أجل هذا نص المجلس العربي للطفولة والتنمية على أن إعداد إستراتيجية قومية لتنمية لغة الطفل العربي يصدر إلى جملة من العوامل منها:

1- ما يشهد مع المجتمع العالمي المعاصر من تداعيات للعولمة والتي من أخطرها شأنًا تهميش الثقافات الوطنية واللغة القومية بفرض ثقافة القطب الاقتصادي الذي ينتج وحده ويفرض لغته وطريقته عبر وسائل الاتصال. مما يضع لغتنا العربية أمام تحديات كثيرة وخطيرة يلزم مواجهتها والتصدي لها قبل أن تستفحل آثارها.

2- موقع اللغة العربية في الثقافة العربية الإسلامية، ودورها في الحفاظ على مصادر التراث وعلى المقومات الروحية، فضلا عن إسهامها التاريخي في تشييد الحضارة الإنسانية.

3- موقع اللغة العربية في المجتمع العربي الإسلامي والعالمي المعاصر، إذ تواجه مهددات الفناء ما يستلزم التصدي له وذلك بدعم مقومات البقاء.

4- موقع مرحلة الطفولة في حياة الإنسان، إذ هي المرحلة التي تتكوّن فيها مقومات شخصيته وتتحدد فيها إلى حد كبير ملامح هويته، مما جعل العناية بسنوات الطفولة مطلبا ودافعا إنسانيا ليكاد يقع عليه الفرد لدى الأمم جميعها، فضلا عما تنص عليه حقوق الطفل المعاصر، وعلى رأسها حقه في استعمال لغة صحيحة جيدة تمكّنه من المشاركة الفاعلة في التنمية الشاملة لبلاده والمحافظة على ذاته.

5- الحاجة إلى رسم سياسة صحيحة وموضوعية وعلمية لسياسة لغوية عربية شاملة تأخذ في اعتبارها الثقافة العربية الإسلامية والمتغيرات العالمية المعاصرة وخصوصية المجتمع العربي وخصائص النمو في مرحلة الطفولة.

في هذا العام، 2007، وبمناسبة الاحتفال ـ في 21 فيفري ـ بيوم اللغة الأم، أصدرت اليونسكو بيانا أكدت فيه أن "الحقوق اللغوية" تندرج ضمن "حقوق الإنسان" التي منها "حقوق الطفل" وأن من حق كل طفل أن ينعم بلغة الاكتساب الأمومي وبلغة التداول الجماعي وبلغة التحصيل المعرفي، وأن كل ذلك يندرج ضمن ميثاق التنوّع البشري الخلاق الذي انتهت إليه اليونسكو في خاتمة مطاف العشرية الثقافية 1988 – 1997.

ورغم كل المجاذبات التي أفضى غليها ذاك البيان حتى كاد بعضهم يعتبر أنه ذهب بتسييس القضية دوليا إلى تخوم مريبة فإن ترجمته عربيا تقتضي أن توكد على أن من حق الطفل العربي أن تكون لغته القومية العماد المتين الذي عليه يتشيد الكيان الحضاري والمعمار المعرفي.

الهوامش

* بحث القي في المؤتمر السادس لمجمع اللغة العربية بدمشق بتاريخ 5-7- نوفمبر 2007.

1. دمشق: 14-17 نوفمبر 2005.
2. انعقد في القاهرة بالتعاون مع جامعة الدول العربية، في مقر الأمانة العامة بتاريخ 17-19 نوفمبر 2007.
3. عقدت اجتماعها الأول في القاهرة بتاريخ 5-7 جويلية 2007.
4. بالتعاون مع المجلس القومي للطفولة والأمومة في مصر، الدوحة 21-23 فيفري– فبراير 2007.
5. وهو الشعار الذي رفعه مؤتمر القاهرة (فيفري 2007).
6. نشير إلى أن هذه الترجمة شائعة في بعض أقطار المغرب العربي، ولكن بعض أقطار المشرق– ولا سيما تطلق مصطلح الثنائية على لفظ bilinguisme ومصطلح الازدواجية على لفظ diglossie.
7. فصلنا القول في ذلك في بحث قدمناه إلى المؤتمر الذي نظمته اليونسكو في الرباط (7 — 12 أفريل 1987) ثم ضمناه في كتابنا: قضايا في العلم اللغوي، تونس، 1994، ص 71 – 108.
8. سبق لنا أن أشرنا إلى هذه المسألة في مقدمة بحثنا إلى المؤتمر الرابع الذي عقده مجمعنا الموقر (نوفمبر 2005).
9. ترجمة د. أحمد عوض، "عالم المعرفة"، ع 263، المجلس الوطني للثقافة، الكويت.
10. ص 14 – 16.
11. *Le Language: Nature, Histoire et Usage*, editions sciences humaine.
12. ص 197.
13. Claude Hagège: *Halte à la Mort des Langues*, Paris, éd. Odile jacob.
14. *Langues: une guerre à mort*, Panoramiques, n° 48.
15. وذلك في نطاق المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم الطبعة الأولى، تونس، 1986، الطبعة الثانية 1990.

من المؤتلف إلى المختلف في راهن الرواية الجزائرية: سردية العشرية السوداء أنموذجا

أ.د عثمان بدري
جامعة الجزائر

لأسباب وعوامل متشعبة –لا يتسع المقام لها– استطاعت الأشكال السردية العربية الحديثة والمعاصرة، أن تتبوأ مواقع الاهتمام المتصدرة في المشهد (الزئبقي) المتذبذب للواقع الاجتماعي والإنساني العربي الحديث والمعاصر الذي يبدو للرائي عن بعد، أو المعاين عن قرب، قد فقد ثباته وائتلافه، واهتزت مراجعه وتشظَت مرجعياته الأيديولوجية المتواترة، خصوصا أثناء النصف الثاني من القرن العشرين، وبالأخص خلال العقود الأخيرة منه، وفي مستهل الألفية الثالثة.

وإذا كانت أطروحة «زمن الشعر»، قد انحسرت، وإن لم تدبر، فمن المؤكد أن الخطاب الروائي العربي الذي افتك الاعتراف به، من داخله قبل خارجه، استطاع أن يقنع بإعادة إنتاج نفسه، وأن يستقطب إليه كثيرا من خصائص ووظائف أشكال القول الأدبية الأخرى، كالشعر والسير الأدبية، الذاتية، الفردية أو الجمعية، أو حتى «الخارج / أدبية»، كالخطاب التاريخي والخطاب الديني والخطاب الفلسفي،...الخ، ليبرهن بذلك على

أنه الأجدر بما قد يبدو مناسبا أن ندعوه بـ «مجتمع الرواية»، الذي لم تحل صلته بكونه سليل «مجتمع الشعر»، دون ترحيل سلطة المتخيل الإبداعي من مجال «الخطاب الشعري» إلى مجال «الخطاب الروائي»[1].

وربما لهذا نلاحظ أن كثيرا من المقاربات النقدية «الحداثيه»، الجادة تتكامل في الإقناع بمشروع «التحديث»، والمراهنة على حتمية الانتظام في «الحداثة»، انطلاقا من الانتصار لما يقترحه الخطاب الروائي من أطر جديدة وآليات ورؤى فنية حيوية متوالدة من بعضها ومنتظمة جميعها في إرادة التغير والتغاير المرتبط بواقع وآفاق التحولات الاجتماعية والأيديولوجية والحضارية المعاصرة، التي يبدو أنها وجدت عناوينها ومكنوناتها في التجارب الجديدة للخطاب الروائي[2].

وفي هذا الإطار تتكامل إنجازات الخطاب الروائي العربي المعاصر، منذ الثمانينات إلى الآن، في اقتراح وجوب الخروج من مجال الوعي الروائي النسقي المؤتلف في آلياته السردية المتمايزة المستويات والعناصر، وفي تراجع المكون الأيديولوجي بين خطاب: «ثقافة السلطة» و"سلطة الثقافة"، وفي مراجع ومرجعيات سلالات الخطاب الروائي: (الواقعية الطبيعية ـ الواقعية النقدية ـ الواقعية الاشتراكية ـ الواقعية النفسية ـ الواقعية الذهنية ـ واقعية الوعي واللاوعي)،...الخ، والدخول ــ برفق حينا وباندفاع فوضوي، محسوب حينا آخر ـ في مجال الوعي الروائي السياقي القائم على الفورية والتجريب وعلى الارتياب في رموز القيم العليا المتصدرة في فضاء السلطة وما إليها، وعلى تنسيب وتحجيم المرجعيات الإيديولوجية، أيا كانت مشاربها ومصباتها.

ومع فارق الألوان المحلية، فإن راهن الخطاب الروائي العربي المعاصر قد انتزع هويته الجمالية والفكرية والاجتماعية بمهارة اشتغاله على حالة تشبع وعي المتلقي العربي بـ«وَقْعِ» مرارة الهزائم والتشظيات المركبة التي

...

تناسلت محليا وقوميا وكونيا في فضاء العالم العربي، كما لم تتناسل في أي فضاء آخر في المعمورة، خصوصا بعد المنعطف التاريخي الحاسم الذي تمثل في الهزيمة الاجتماعية والثقافية والحضارية، قبل السياسية والعسكرية سنة 1967، وما رافقها أو تلاها من هزائم أخرى لا تكتفي بالإحالة على تهافت وإفلاس راهنها الاجتماعي والسياسي والأيديولوجي الضرفي، وإنما تحيل ـ في الخطاب الروائي العربي المعاصر ـ على "تحيين" دلالة المثل العربي القائل: «الصيف ضيعت اللبن»، أي على المكاشفة بتبخر كل مشاريع وصيغ وآليات ورؤى «التغير» و«التغاير» في وتيرة حياة السواد الأعظم

من المجتمع، لتبقى مجرد ثرثرة فوقية معلقة، تتداولها أطياف من النخب الاجتماعية والفكرية والسياسية التي بقدر ما توهمت، وأوهمت بأنها الطليعة المرجعية، على مستوى الخطاب، فإنها لم تستطع أن تكون قوة اقتراح مرجعي في حياة المجتمع: أنظمة حاكمة برعت في استثمار بقايا الإرث الكولونيالية تحت مسمى «غنيمة الحرب» أو «مكاسب الاستعمار»، وفي توريث «طبائع الاستبداد»، وشعوبا مغلولة استمرأت «الاحتفالية» (الكرنفالية)، حتى وهي تضج وتنتفض وتمانع وتثور وتقدم أعز ما لديها من قرابين، ولكن غياب وتغييب إرادة الرشد فيها، وتحكيمها الجمعي لسلطة المجهول السديمي، المطلق في المعلوم الفيزيقي العيني، يجعل طاقاتها مبددة، متلاشية، أو ـ في أحسن الأحوال ـ يوجهها إلى إعادة إنتاج متناوبة لقاعدة «الناس على دين ملوكهم» أو «كما تكونوا يُولى عليكم».

وإذن فمدار القول في الخطاب الروائي العربي المعاصر، لم يخرج عن إعادة استكشاف واستكناه المفارقات المرئية أو المتوارية، الداخلية

المتجذرة أو الخارجية الطارئة، التي ينتظمها المنظور السابق الذي تمثلناه من معاينتنا الأفقية والرأسية لعشرات الأعمال الروائية التي أثمرتها العقود الأخيرة من القرن الماضي.

وفي هذا الإطار، لم تحل الظروف التاريخية الاستثنائية التي كابدتها الجزائر، لأزيد من مائة وثلاثين سنة دون انتظام المخيلة الروائية الجزائرية ـ باللغة العربية ـ في مشهد الخطاب الروائي العربي المعاصر، الذي تواتر وتصدر خلال العقدين الأخيرين من القرن الماضي وفي مستهل الألفية الثالثة، مقترحا آليات ورؤى سردية جديدة، ممعنة في الاختلاف والتجريب والتغير والتغاير، على نحو ما تكاملت في معاينة ذلك دراسات نقدية كثيرة، من بينها البحث التنظيري المتميز للناقد،د. محمد برادة بعنوان: «الرواية العربية بين المحلية والعالمية: الرواية الكونية أفقيا»[3]، وذلك في مثل قوله: «...ذلك أن أسئلة الوجود والانخراط في العصر وتحريم الذات من كبتها، أصبحت الهموم الأساسية للفرد العربي.(...) إن الخطاب الروائي اتجه إلى تبني الأحاسيس والرغائب والرفوض/ التحت أرضية الكامنة في نفوس الناس وصياغتها روائيا في نصوص تتحدى الرقابة وتطهرية سدنة المعابد»[4]، «ومن هذه الزاوية استطاعت الرواية العربية أن تمد جسورا مع الرواية في أبعادها الكونية، لأنها ارتادت مناطق الممنوع وتوغلت في إنتاج خطاب مركب يمتح من المعيش والمحلوم به، من الذاكرة والتاريخ، من الأسطوري والواقعي، من النفسي والجسدي، كأن الرواية في اندفاعاتها الجسور، تسترد الأصوات التي سرقتها قوى القمع والكبح لتوسع معجم الاحتجاج والرفض والمكاشفة»[5].

...

وفي هذا السياق فإن أول مؤشرات راهن الرواية الجزائرية التي أنتجتها مكاره وإكراهات داخلية وخارجية، ما نكاد نعلم عنها شيئا حتى تغيب عنا أشياء، هو توسيع سؤال المصير، القديم الجديد، من أين جئنا وما الذي عوقبنا به وإلى أين نسير؟

وبقدر ما كان هذا السؤال فضولا أو مجرد حذلقة، على مستوى السواد الأعظم من المجتمع الجزائري الذي لا تشغله ـ شأن كل المجتمعات والشعوب العربيةـ الأسئلة، وبقدر ما برع أولو الحل والعقد في ترحيله من محطة إلى أخرى ومن سياق إلى آخر، بقدر ما تحول إلى بوح ذاتي وجودي متجذر ومكاشفة درامية متعددة الأصوات والمواقع والرؤى في مجمل إنجازات راهن الرواية الجزائرية المعاصرة، خصوصا بعد أن توشح الخطاب الثقافي أوالاجتماعي أو السياسي أو الحضاري الحديث للمجتمع الجزائري، بمرجعية شمولية آمرة، وانفجار بركاني مدمر، أدخل واقع وآفاق المجتمع برمته: حاكمين ومحكومين، في زمن «التيه الميتافيزيقي»، الذي تكاملت كل منجزات المخيلة الروائية الجزائرية، منذ أواخر الثمانينات إلى اليوم، في بناء أطره ومؤطراته الجنائزية العمياء، وفي حيوية التماهي السردي مع «وَقْعِ» مآسيه وتشظياته المادية والمعنوية والوجودية[6].

وبصرف النظر عن الكتابات "المقالية" التي توشحت بالخطاب الروائي، في حين أنها لم تتجاوز مستوى «وجهة النظر» المسرودة أو «الشهادة» المروية المؤسسة على «المخالفة»، لا الاختلاف، فإن الأعمال السردية الجزائرية المعاصرة، التي أقنعت بانتظامها في إعادة بناء ما اشرنا إليه «بزمن التيه» تتمثل في: «ذاكرة الجسد»، «فوضى الحواس»، «عابر سرير» لأحلام مستغانمي،

و«فتاوى زمن الموت» لإبراهيم سعدي، و«زمن النمرود»، «ذاك الحنين»، «تلك المحبة» للحبيب السائح، و«نوار اللوز»، «سيدة المقام» للأعرج واسيني، و«الشمعة والدهاليز» للطاهر وطار و«دم الغزال» لمرزاق بقطاش، و«الورم» و«الغيث» لمحمد ساري، و«المراسيم والجنائز»، و«أشجار القيامة» لبشير مفتي و«الرماد الذي غسل الماء» لعز الدين جلاوجي، الخ... فكل هذه الأعمال تبدو منتظمة في ما دعاه الناقد صبري حافظ بـ: «الحساسية السردية الجديدة[7]»، التي تقوم على الوعي الفوري المتدفق للحكي عن الخارج انطلاقا من تمركزه في فضاء الذاكرة واعتمادا على توالد إمكانات التجريب السردي المفتوح، التي لم نعهدها إلا أجزاء ومقطعات متناثرة هنا وهناك في فضاء الخطاب الروائي العربي الحديث والذي يتخذ من "بؤر" الوعي واللاوعي الداخلي مركزا للقول السردي.

وفي هذا السياق تتفاوت الأعمال الروائية المشار إليها آنفا، في اقتراح جملة من الخصائص تتكامل في "قصدية" الإفلات من سلطة الخطاب الروائي النسقي الذي يبرمج المتخيل السردي في علاقته الجدلية بثوابت ومتغيرات الواقع الموضوعي الخارجي، الذي تأسس عليه[8].

وبموازاة ذلك تتفاوت روايات سردية «زمن التيه الميتافيزيقي»، في اقتراح إرادة الدخول في مجال الخطاب المنفتح، المفتوح، الذي أصبحت كيفيات القول السردي فيه ممعنة في الاستكشاف والاكتشاف والتجريب والبوح والمكاشفة[9]، وممعنة في «تسريد» «التاريخ»، ليس فحسب للاحتجاج به من موقع الشخصيات الروائية المتماهية معه، أو احتجاجا عليه وعليها من موقع السارد الأكبر، وإنما لأنه من بين أبرز وأهم مشارب تشكيل و"تعضيد" الخطاب الروائي نفسه، خصوصا في فضاء الواقع الاجتماعي والإنساني الجزائري المعاصر الذي تتجاذبه أسئلة ومساءلات

...

إشكالية «الهوية» على عدة مستويات، والممعنة ـ أيضا ـ في الانفتاح بالخطاب الروائي على مكون «السيرة الذاتية»[10] التي لا يتمثل احتفاء هذه الروايات بها لارتباطها المباشر بأشكال التصفية الجسدية أو المعنوية للنخبة الجزائرية المثقفة عموما ولمبدعي الأدب خصوصا، وللروائيين الجزائريين على الأخص، وإنما بوصفها ـ السيرة الذاتية ـ مرآة مقعرة لتشظيات الذاكرة الاجتماعية (الجمعية)، للمجتمع الجزائري، ومن ثمة للجزائر برمتها[11].

وفي ثنايا ذلك تتكامل إنجازات راهن الرواية الجزائرية في"تضفير" أو "تشبيك" المكون السردي "بعلامات" مفهومية أو وقائعية للخطاب الديني في صوره وامتداداته (الأسطورية) «اللاعقلية» التي تتكامل في إفراغ الإسلام من مضامينه الحضارية المتوثبة القائمة على التعدد والتنوع والاختلاف أولا، وتتكامل –تبعا لذلك– في تحكيم رموز ورؤى وقيم وآليات ثقافة المجهول المتواري الذي لا يحول إيماننا بروحيته، دون كونه "مجازا" أو "فوق المجاز"، في الواقع المعلوم ، العيني، المتعين الذي نعيشه، ونشهد عليه و"نتذاوت" معه دينا ودنيا ثانيا[12].

ويقتضي الإنصاف هنا أن نشير إلى وجود تفاوت ملحوظ في ما بين الأعمال الروائية التي تكون راهن الخطاب الروائي الجزائري المعاصر، وعلى سبيل المثال لا الحصر، فإن رواية «فتاوى زمن الموت»، لإبراهيم سعدي، و«متاهات ليل الفتنة»، للكاتب الصحفي حميدة العياشي و«مرايا متشظية» للناقد عبد الملك مرتاض، تفتقر إلى ملكة التخييل السردية التي يفترض أن تكون هي مرجعية الواقع الذاتي أو الموضوعي الخارجي الذي استمدت منه، وليس العكس، ومن ثمة لم تستطع هذه الأعمال أن تبارح

خطاب "وجهة النظر" الأيديولوجية المغلقة، المؤسسة على قصدية المساءلة الفكرية وليس على توالد الأسئلة الروائية.

لكن بصرف النظر عن ذلك وعما يلوح هنا وهناك من ولوع بالتجريب الشكلي وتضخم في وهم التجاوز والاختراق، فقد استطاعت مجمل الأعمال الروائية الجزائرية المعاصرة، أن تتكامل مع الرصيد الروائي العربي المواكب لها، في بناء (منظور) ثقافي ونفسي واجتماعي وسياسي وأيديولوجي وحضاري مركب، تتوالد داخله أو على ضفافه المترامية رؤى ـج: رؤيةـ التشظي وحالات الاغتراب وقيم وآليات ثقافة النفي من الحياة في قلب الحياة[13].

وربما هذا ما جعل الروائي رشيد بوجدرة يتواضع ويعترف بحيوية التجارب الروائية الجزائرية الجديدة، حيث يرى أنها: "عرفت تغييرا أساسيا ومركزيا في الأسلوب، فالمواضيع التي يتطرقون إليها أصبحت عكس المواضيع التي عالجناها، والرؤية غير الرؤية التي وجهتنا نحن، كذلك الكتابة، واللغة بشكل خاص، إنها تغيرت كثيرا، أصبحت لغة سريعة، وهذا لا يعني أنها لغة مستعجلة».[14]

وفي هذا السياق فإن من بين ما يستوقف القارئ في راهن الرواية الجزائرية، هو تكامل إنجازاتها السردية المتصدرة في توسيع، وتنويع وتجذير سردية «البوح والمكاشفة» التي بقدر ما تداخلت فيها "الوظيفة التمثيلية للغة" مع «الوظيفة التعبيرية» لها، فإنها أتاحت للخطاب الروائي أن يقترح على القارئ الافتراضي المشاركة في لعبة الإحالة السردية المتنوعة الأطر والسياقات والدلالات[15].

وتجدر الإشارة هنا إلى أن لسردية «البوح والمكاشفة» تجليات كمية ونوعية كثيرة تواترت في «ألف ليلة وليلة»، وفي مجمل أعمال شيخ الرواية

...

العربية (الراحل) نجيب محفوظ (1911-2006)، وجاءت «ضفائر» مطرزة في ثنايا النسيج السردي المتوالد، توالدا إطاريا عجيبا، عند حكاء تحولات «وعي الطفرة» البارع، عبد الرحمن منيف واعتمدتها "بُؤَرًا" للوعي، جوهرة الرواية الجزائرية: «الجازية والدراويش» لعبد الحميد بن هدوقة (1925-1996)، ولنظيرتها، المتساوقة معها، «الحوات والقصر» للطاهر وطار،...الخ.

والواقع أن احتفاء المخيلة الروائية الجزائرية المعاصرة بسردية البوح والمكاشفة ليس مرده الرغبة في "تَمَثُّلِ" و"تَمْثِيْلِ" المفارقات الداخلية الدفينة التي بموجبها تشكلت "الرؤية للعالم" الحديث والمعاصر، انطلاقا من تقاليد وأعراف وتقنيات الرواية الحديثة، كما عرفت لدى رموزها الكبار، مثل : (مارسيل بروست) و(جوستاق فلوبير) و(جيمس جويس) و(فرجينيا وولف)، و(جارسيا ماركيز)،...الخ، فحسب، وإنما هو ــإضافة إلى ذلكـ يتمثل في أن خيبة التوقع وتلاشي احتمالات استكشاف المعنى، في فضاء الواقع الذاتي والموضوعي الخارجي الذي فاجأ المجتمع الجزائري وأفجع الروائيين الجزائريين بما لم يكن واردا حتى في أضغاث الأحلام، أو في "فانتازيا" الخيال العلمي، هو الذي رجح اشتغال المخيلة السردية الجزائرية لإنتاج وتوليد أسئلة وتساؤلات ـوأحيانا مساءلاتـ موجعة، "فجائعية" تفضي بها الذاكرة الداخلية المتشظية التي بقدر ما تحيل على الجزائر التي تبدو مهددة بالمصادرة والاجتثاث وافتقاد الدليل إلى المعنى، من داخلها، فإنها تجد في سردية البوح والمكاشفة بفجائعها ومآسيها وتشظياتها ما عساه يعيد إليها توازنها ويسترجعها من زمن التيه في المجهول الميتافيزيقي الذي سرقها على حين غفلة.

وفي هذا السياق يمكن أن نجد في رواية «ذاكرة الجسد» لأحلام مستغانمي ورواية «سيدة المقام» للأعرج واسيني، ما يؤكد سردية البوح والمكاشفة، على النحو الذي جعلها تمتلك قابلية التعدد والتنوع في الإحالة على رؤية التشظي وحالات الاغتراب، وقيم النفي من الحياة، في قلب الحياة، كما سبق أن شخصنا[16].

ولعل أهم استخلاص نقدي مركز في توصيف رواية «ذاكرة الجسد» هو الفقرة التي أنهت بها د. فريال جبوري غزول معاينتها القيمة لهذه الرواية[17]،إذ تقول : "تثير ذاكرة الجسد أسئلة متعددة كما تفعل الروايات العظيمة، ولكونها تسرد الأحداث على مستويات مختلفة، فهناك من سيقرأها كحكاية حب، وآخر سيقرأ فيها حكاية الوطن، وثالث سينشد لما تطرحه بخصوص الكتابة ذاتها، وأما الناقد أو –القارىء المتخصص– فسيجد متعة في كيفية تشابك هذه المستويات في الرواية وفي اقتفاء الإرث الأدبي والأسري في هذا العمل واستدعاء التاريخ في ثناياه"[18].

والحق أن الجملة الأخيرة من هذه العصارة، هي بيت القصيد في هذه الرواية، وفي روايتي:"فوضى الحواس" و"عابر سرير"، اللتين نهجتا نهجها ولهجتا بلهجتها، بل، وفي كثير من الروايات الجزائرية المواكبة أو التالية لها.

ذلك أن رواية "ذاكرة الجسد" كل لا يتجزأ، يقوم على مخيلة دينامية "شعرية"، استنبتت في عمل "سردي/سيري" مفتوح "تتذاوت" فيه حكاية الحب والوطن والتاريخ، لتتذاوت"كلها مع حكاية أكبر، وهي حكاية الكتابة الروائية، ليس بوصفها "وصفة" جاهزة للكتابة

...

أو "الاستكتاب" وإنما بوصفها مشروعا وجوديا يمثل مأوى الهوية المتشظية للجزائر في الماضي والحاضر، داخل فضائها وخارجه، في آن معا.

وهذا معناه أن رواية "ذاكرة الجسد" مؤسسة على رمزية "القناع"، المتعدد المجالات والسياقات والدلالات، لكن كل العلامات الرمزية المقَنَّعَةُ، تتكامل في الإحالة على مصب دلالي مركزي أساس، يتمثل في خطاب مفارقة الاتصال والانفصال والتجذر والاجتثاث، التي تضيق دائرتها لتحيل على معنى الاغتراب الوجودي في السياق الأخص بأحلام مستغانمي داخل الجزائر وخارجها، وتتسع وتتشعب لتحيل على الشعور بحالة الاغتراب الأكبر الذي يشمل ذاكرة وجسد الجزائر في الماضي المشروخ وفي الحاضر المنشظي على كل المستويات.

لقد استطاعت أحلام مستغانمي في "ذاكرة الجسد" أن تنفرد ــوربما تتفردـ بإنجاز "نص إبداعي" ملتبس ومبعثر وعائم السلالة السردية، فهو غير مؤسس على منطق السيرة الذاتية بمعناها التقليدي المغلق، أو على منطق الرواية الجديدة أو على منطق الخطاب المقالي "القضوي"، المبطن أو على منطق اللحظة الشعرية المفلتة من الزمن أو على منطق الحقائق والمعلومات التاريخية المِمَرجَعة بالثورة الجزائرية ومشتقاتها، بقدر ما هو "تشبيك" و"تضفير" لكل هذه المنصات التي تكاملت وتعاضدت في اقتراح منطق الكتابة الفورية الحرة "الفوق /معيارية"، بوصفها قيمة "تعويضية"، تجعل المبدع يتوهم استرجاع الهوية الذاتية أو الجمعية المسروقة على هذا النحو أو ذاك، من جهة، وتجعلهـ في الآن نفسهـ يتعلل بأنه حالة وعي متماهية مع الكتابة المفلتة من ضرورات الأطر النوعية المغلقة للأدب، والمنتظمة في إرادة الاختيار التي تمثل جوهره الأبقى في

الزمن، أيا كان نوعه وتقاليده وأعرافه من جهة ثانية، وذلك لأن: "الكاتب إنسان يعيش على حافة الحقيقة، ولكنه لا يحترفها بالضرورة، ذلك اختصاص المؤرخين لاغير..إنه في الحقيقة يحترف الحلم..أي يحترف نوعا من الكذب المهذب، والروائي الناجح هو رجل يكذب بصدق مدهش، أو كاذب يقول أشباه حقيقة"[19]، "فوحدها الكتابة هي الأدب وهي التي ستبقى، وأما الذين كتبنا عنهم فهم حادثة سير.. أناس توقفنا أمامهم ذات يوم لسبب أو لآخر، ثم واصلنا الطريق معهم أو بدونهم"[20].

وفي إطار هذا الاتجاه "الحداثي" الذي مرجع الرؤية إلى العالم في الكتابة الإبداعية، بوصفها قيمة تعويضية ذات سلطة متعالية، هي "سلطة الكتابة" المناهضة، دوما، "لكتابة السلطة"، تأتي رواية "سيدة المقام" لواسيني الأعرج لتقترح علينا "تراجيديا" الواقع الجنائزي الذي اكتسح الجزائر وأدخلها في زمن التيه الميتافيزيقي كما سبق أن أشرنا.

ومن معاينة هذه الرواية، يبدو أن خطابها السردي منتظم في امتصاص لغتها السردية "لِوَقْعِ" الفواجع، الفورية، المتلاحقة أو المتزامنة التي تركزت في فضاء المثقفين والفنانين والإعلاميين والروائيين، خصوصا، بعد تهاوت المرجعيات الإيديولوجية التي كانوا يزعمون الانتماء إليها ويتوهمون احتضانها لهم، داخل السلطة أو خارجها.

وبصرف النظر عن كون هذه الرواية "سيرة ذاتية"، مُقَنَّعٌَة، اشتقت مما تعرض له شخصيا أو اعتباريا، الأعرج واسيني –ككل المثقفين في الجزائر– من تهديد أو إشعار بالتهديد أو حكاية عن التهديد، فإن إطار ومؤطرات الخطاب السردي في هذه الرواية هو "الرؤية الفجائعية"[21]، التي حددها أحد الدارسين في هذه الرواية، حين قال: "في رواية (سيدة المقام)، للمبدع الجزائري واسيني الأعرج، تتمثل الفاجعة خير تمثيل، لأن الرؤية

...

التي تصدر عنها الرواية رؤية فجائعية بكل المقاييس ، ولأن الموضوع المتحدث عنه مفجع (موت مريم)، ولأن المعنى العميق للموضوع أشد فجائعية (انكسار النفوس، واندحار البلاد واضطهاد الأدبي والثقافي) ولأن الشخصيات المحور ية ستعاني في ظل الصراع السياسي، وتطاحن المصالح الذاتية من أجل السيادة والسلطة، كونها شخصيات مثقفة (أناطوليا التي سترحل إلى بلادها بعد ربع قرن من العمل بالجزائر، مريم راقصة الباليه، والراوي: أستاذ جامعي دكتور في الفن الكلاسيكي، والذي سيلقي بنفسه من أعلى الجسر منتحرا، احتجاجا على حال البلاد وسوء مصير العباد، وانتهاك حرمة الحلم والإبداع وغربة المثقف والثقافة" [22].

وإذ لا يبدو لنا أن أهمية هذه الرواية تكمن في إنتاجها "للرؤية الفجائعية"، وذلك لأن هذه الرؤية مبثوثة في مجمل الرصيد الروائي الجزائري المعاصر، فإن ما يستوقف المتلقي هو سردية البوح والمكاشفة التي تنتظم مجمل النص الروائي ، فبمقتضى الهيمنة الكمية والنوعية لهذه السردية: "تعتبر رواية (سيدة المقام) رواية الذاكرة والاسترجاع. فالقصة لا تتجاوز لحظة زمانية بين مستشفى (مصطفى باشا)، وهو مستشفى عام بالجزائر العاصمة، وبين جسر "تليملي". إلاّ أن تقنيات كتابة الرواية فرضت على الكاتب الالتجاء إلى توسيعات في القصة من خلال توسيع الخطاب. أي ترتيب الأحداث التي تنهال على الذاكرة، أحداث من الماضي وأخرى معيشة في الحاضر، وإشارات إلى انغلاق الآفاق المستقبلية"[23].

ولضيق المقام، يمكن أن نستدل على تميز هذه الرواية بسردية البوح والمكاشفة انطلاقا من الذاكرة، أو بالأصح من سلطة الذاكرة في ما يأتي: "شيء ما تكسر في هذه المدينة بعد أن سقط من علو شاهق،

لست أدري من كان يعبر الآخر: أنا أم الشارع في ليل هذا الجمعة الحزين. الأصوات التي تملأ الذاكرة والقلب صارت لا تعد، ولم أعد أملك الطاقة لمعرفتها. كل شيء اختلط مثل العجينة. يجب أن تعرفوا أني منهك ومنتهك وحزين ومتوحد مثل الكآبة" [24]، "ينتابني أحيانا الإحساس بالبكاء على أبي الذي وجد معلقا على سدرة شوك في البلدة بعد أن ثقبته رصاصات عديدة في الرأس والصدر. قيل عنه أنه مات واقفا بجرأة: قيل أنه قاوم الرصاصات الأولى التي ثقبت بطنه، في الأخير مد يديه إلى رأسه بقوة ثم تهاوى على السدرة عاش ما كسب، مات ما خلى. لم يتحصل على شهادة الاستشهاد إلاّ عندما اندثرت عظامه، بعد عشرين سنة، بمناسبة إعادة الاعتبار للشهداء. أمي في ذلك الزمن البعيد قالت: مد دمه للبلاد، خيرنا لله وليس للعباد [25]"، "كنت بوهيميا يتعشق الموسيقى، والمطر والألبسة الصوفية الخشنة، والكتابة في لحظات العنفوان، بدون السقوط في وهم التحول إلى أديب عظيم. رجل بسيط يملك حساسية كبيرة تجاه الأشياء التي تنبض بالعنفوان والحياة [26]"، إلخ...

وعلى غرار هذا التدفق المنبعث من الذاكرة يتوالد النسيج السردي في "سيدة المقام"، توالدا دراميا مكثفا تتكامل فيه الشخصيات الروائية الأساسية أو الثانوية، الحيوية الحية أو المستقدمة مع دلالة المستويات والأبعاد المكانية والزمنية، لتشكيل منظور جنائزي كئيب تتراجع فيه الإحالة على حيوية الحياة ونظارتها وخصوبتها واشراقة آفاقها المستقبلية، لتتصدر الإحالة على وقائع وحالات وقيم وآليات فجائع وفظائع الموت والاجتثاث والغربة والاغتراب وافتقاد سؤال المعنى، أو حتى سؤال وهم المعنى.

وهذا –في الواقع– ما انتظمت في البوح به والمكاشفة بتشظياته المادية والمعنوية والأيديولوجية، كل الروايات الجزائرية المعاصرة الأخرى،

...

مثل:"المراسيم والجنائز" و"أشجار القيامة" لمفتي بشير و"الرماد الذي غسل الماء" لعز الدين جلاوجي، و"دم الغزال" لمرزاق بقطاش، و"الغيث" لمحمد ساري و"زمن النمرود" و"تلك المحبة" للحبيب السائح، وغيرها.

الهوامش والإحالات

1. أنظر بخصوص هذه الإشكالية:

- د–عبد الله إبراهيم، "السردية العربية الحديثة، تفكيك الخطاب الاستعماري وإعادة تفسير النشأة"، المركز الثقافي العربي،الدار البيضاء– المغرب 2003، ص5-49/9-211-163/77.
- ديفيد وورد، "الوجود والزمان والسرد"، فلسفة بول ريكور، ترجمة وتقديم : سعيد الغانمي، المركز الثقافي العربي،الدار البيضاء–المغرب 1999، ص39-115/55-131/127-158.
- د. جابر عصفور، "ابتداء زمن الرواية: ملاحظات منهجية"، ضمن كتاب: الرواية العربية، "ممكنات السرد"، دولة الكويت، 2006، ص 117-161.

2. أنظر:

- محمد برادة: "اعتبارات نظرية لتحديد مفهوم الحداثة"، فصول، "الحداثة في اللغة والأدب" ج1، ع3 مايو– يونيو، القاهرة 1984، ص11-23.
- محمد عابد الجابري، المرجع السابق، ص107-113.
- فردوس عبد الحميد البهنساوي: "عناصر الحداثة في الرواية المصرية"، فصول: "الحداثة في اللغة والأدب"، ج2، ع4، يوليو– سبتمبر، القاهرة 1984 ص131-148.
- نبيلة إبراهيم: "قص الحداثة"، فصول: "جماليات الإبداع والتغير الثقافي " ج2، ع6، ع:4، يوليو– سبتمبر، القاهرة 1986، ص: 95-107

3. محمد برادة، الرواية العربية "ممكنات السرد" سابق ص13-56.
4. المرجع السابق ص21.
5. نفسه ص22.
6. أنظر بهذا الخصوص –على سبيل المثال لا الحصر:

...

- الحبيب السائح، "زمن النمرود"، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر 1985، ص12-25/26-61/65-69/140-212.
- الحبيب السائح، "ذاك الحنين"، منشورات GMM وهران، الجزائر 1997، ص10-36/60-98.
- الحبيب السائح: "تلك المحبة"، المطبعة الحديثة للفنون المطبعية، الجزائر 2002 ص ص: 10-50 /90-114/280-368.
- عز الدين جلاوجي، "الرماد الذي غسل الماء"، الجزائر، 2005 ، ص3-7/9-100/182-231/249-259.
- مرزاق بقطاش، "دم الغزال"، دار القصبة، الجزائر 2002، ص10-40/45-113.
- بشير مفتي، "المراسيم والجنائز"، منشورات الاختلاف، الجزائر 2000، ص20-40/45-89.
- بشير مفتي، "أشجار القيامة"، منشورات الاختلاف، الجزائر 2005، ص ص 7-111/113-129/131-160/161-204.
- واسيني الأعرج، "سيدة المقام"، منشورات دار الجمل، ألمانيا 1995، ص ص 5-48/65-115/125- 178/225-256.
- محمد ساري، "الغيث"، منشورات البرزخ، الجزائر 2007، ص ص5-70/107-17/215-259.

7. صبري حافظ، "جماليات الحساسية والتغير الثقافي"، فصول: "جماليات الإبداع والتغير الثقافي"، سابق، ص 65-91.
8. صلاح فضل، "التجريب في الإبداع الروائي"، ضمن كتاب: "الرواية العربية... ممكنات السرد"، سابق ص 85-113.
9. رغم أن صيغة "ائتلاف الاختلاف" هي الأكثر تصدرا وتواترا في فضاء الجزائر، فقد كان لإشكالية "الهوية" تداعيات سلبية كثيرة غدت الطرح الإيديولوجي الإسلاموي المغلق،

الذي نشأ وترعرع في غياب الاحتكام إلى "سلطة الثقافة"، مقابل "ثقافة السلطة" التي تتماثل فيها كل الأنظمة العربية لما يزيد عن قرن ونصف.

10. معجب الزهراني: "القراءة الحوارية لعلاقات السيرة الذاتية بالرواية"، ضمن كتاب: الرواية العربية، "ممكنات السرد"، سابق، ص299-326.
11. ذلك ما يبدو– مثلا– في الروايات: "دم الغزال" لمرزاق بقطاش و"ذاكرة الجسد" "فوضى الحواس" "عابر سرير" لأحلام مستغانمي، و"در الولي الصالح يعود لمقامه الزكي"، و"الشمعة والدهاليز"، للطاهر وطار، و"سيدة المقام" للأعرج واسيني،الخ...
12. كعينة لذلك، أنظر:

– محمد ساري، في رواية "الغيث"، مصدر سابق، ص215-259.

13. عبد الله إبراهيم: "الرواية العربية وتعدد المرجعيات الثقافية – سلالات وثقافات، الرواية العربية–"ممكنات السرد"، سابق ص 235-296، وأيضا: صبري حافظ: "الرواية والواقع، متغيرات الواقع العربي واستجابات الرواية الجمالية"، المرجع السابق، 364-375.
14. رشيد بوجدرة، "مجلة الاختلاف"، ع:1، الجزائر 2002، ص28.
15. سعيد بن كراد: "أساليب السرد الروائي العربي (مقال في التركيب): "الرواية العربية...ممكنات السرد"، سابق،ص 329-362.
16. من المعاينة الأفقية والرأسية لمجمل الأعمال الروائية الجزائرية التي تواترت من 1990 إلى الآن، لاحظنا أنها لم تخرج من فلك هاتين الروايتين، سواء أكان ذلك على مستوى مقول القول أم كان على مستويات كيفيات القول.
17. فريال جبوري غزول : "ذاكرة الأدب في "ذاكرة الجسد"، مجلة ألف، البلاغة المقارنة: "حفريات الأدب: اقتفاء أثر القديم في الجديد"، ع: 24، الجامعة الأمريكية بالقاهرة 2004، ص166-177.
18. فريال جبوري غزول، السابق ص: 177.
19. أحلام مستغانمي، "ذاكرة الجسد"، سابق، ص128.

...

20. المصدر نفسه، ص125.

21. محمد معتصم، "الرؤية الفجائية، الأدب العربي في نهاية القرن وبداية الألفية الثالثة"، منشورات الاختلاف، الجزائر 2003، ص ص: 13-45/32-77.

22. المرجع السابق، ص: 120.

23. السابق، ص: 121.

24. واسيني الأعرج، "سيدة المقام"، (مصدر سابق) ص: 5.

25. نفسه ص : 216.

26. نفسه، ص:68.

بيضاء

اللغة العربية في ديوان الشاعر
محمد العيد آل خليفة

أ.د محمد ابن سمينة

جامعة الجزائر

مدخل

يمكن القول بأن معظم من عني من العلماء والمفكرين والأدباء بظاهرة اللغة في حياة المجتمعات والأمم، يجمع على أن اللغة إنما هي من أهم المقومات التي تكون شخصية أية أمة من الأمم، باعتبارها روح الأمة وعنوان عبقريتها، ومستودع تاريخها ووعاء حضارتها، وأداة مزاجها ومشاعرها[1].

وإن المتأمل – من هذا المنظور– في العلاقة بين الأمة العربية وبين لسانها يلمس أن العربية إنما هي المعبر الصادق عن قيمها، والمسجل الأمين لتراثها، والعامل القوي الذي طبع شخصيتها بسمات واضحة في الفكر وفي الوجدان ، في السلوك وفي الميدان.

وقد زاد في توطيد هذه الصلة بين الأمة العربية وبين لغتها، نزول القرآن الكريم بها، فانطلقت بذلك مع كتائب جيش الفتح الإسلامي تجوب آفاق المعمورة مشرقا ومغربا، وقد أصبحت لغة الدعوة والحوار، ولغة

الحضارة والعمران، تحمل للناس كافة شريعة الإسلام السمحة وعقيدته المثلى وقيمه السامية، فأقبل عليها كل من دخل في هذا الدين يتعلمها ويحذق لسانها، تدفعه إلى ذلك دوافع فهم تعاليم الدعوة الجديدة، فخرجت العربية بذلك من محليتها الضيقة إلى عالمية واسعة. وظل الأمر على هذا النحو حتى دار التاريخ دورته بعد أن تنازعت المذاهب والملل أهواء أبناء هذه الأمة وتفرقت بهم السبل، وخرج أمرهم من بين أيديهم، وحل بهم ما حل من النكبات والنكسات، وأصاب لغتهم ما أصابها من تراجع وجمود في جملة ما لحق بمكونات شخصيتهم وعناصر حضارتهم من ضعف وخمود. ولولا دستور الإسلام، (القرآن الكريم) الذي ظل يحمي العربية ويدفع عنها الأذى، ويمدها بعوامل النماء والحياة لآلت إلى ما آلت إليه بعض اللغات القديمة من انحسار وانطفاء، لما اصطلح عليها من محن الدهر وظلم الظالمين على إثر ابتلاء الأمة العربية الإسلامية في العصر الحديث بالاحتلال الأجنبي الذي استهدف النيل من دعائم كيانها وطمس منظومة قيمها ومحو معالم شخصيتها.

وقد كانت الجزائر في مقدمة أقطار هذه الأمة ابتلاء بهذا الاحتلال واكتواء بسعيره. وإن المتصفح لتاريخ الجزائر الحديث يمكنه أن يتبين مدى شراسة تلك الهجمة الصليبية التي شنها الغزاة الفرنسيون ضد اللغة العربية في إطار مخططهم الشامل الرامي إلى النيل من مقومات شخصية الأمة، كما يمكنه أن يلمس في الوقت ذاته مقاومة الشعب الجزائري الشديدة بقيادة أعلام النهضة الوطنية لتلك الغارة ونجاحه في وضع خطة معاكسة لتلك الهجمة تقوم على إفشال مخططاتها ضد مكونات شخصية الأمة والقيام بالمحافظة على هذه المكونات ، ويدخل في هذا الإطار

النهوض بنشر اللغة العربية وإحياء تراثها، والتمكين لها في النفوس وفي العقول وفي مختلف ميادين الحياة.

ويأخذ الشاعر محمد العيد ـــ صوت النهضة الوطنية وحسان الحركة الإصلاحيةـ مكانه في ساحة هذه المعركة إلى جانب شعبه، مربيا ومصلحا وشاعرا، وجنديا مجاهدا يرابط في الثغور الأمامية من جبهة الدفاع عن الشخصية، ويأتي في مقدمة ذلك: منافحته عن العربية بوصفها لغة الإسلام، وترجمان القرآن، ولسان الأمة، ووعاء حضارتها: اعتزازا بها، ودعوة إلى خدمتها، وحرصا على ترقيتها، وحثا على التمسك بها، ويمكن أن يرتكز النقاش لإجلاء ذلك فيما يأتي :

أولاـ من التمكين للعربية إلى المنافحة عنها

نبادر بالقول إن أول ما يلقى الباحث في هذا الميدان من أعمال الشاعر التي وصلت إلينا، قصيدته(يا معشر الطلاب) التي نظمها في صائفة عام 1928 في أعقاب ختمه ـتدريساـ لكتاب (القطر) في النحو لابن هشام على طلابه في بسكرة . ونلاحظ أن الشاعر ركز حديثه في هذا العمل على الإشادة بالعلم وبيان مكانته، وحث الطلاب على الجد والاجتهاد في طلبه. وخلص من ذلك إلى حضهم على العناية بلغتهم، مبينا لهم أن حياتهم مرهونة بحياتها، وذلك درس ما فتئ التاريخ يتلوه على مسامع الورى، مؤكدا أن ما من أمة تضعف صلتها بلسانها، إلا وينعكس ذلك سلبا على صلتها بشخصيتها وأصالتها، وعلى وجودها ومكانتها بين الأمم بوجه عام. يتوجه الشاعر بهذه المعاني إلى الطلاب قائلا لهم:

لاتهملوا هذا اللسان ففقدكم في فقده ودوامكم بدوامه
فكأنما هو عقد در فائق رصفا وعلم النحو سلك نظام [2]

ويقف الشاعر، على منصة الاحتفال بمدرسة الشبيبة الإسلامية بالجزائر العاصمة 1935 فيلقي قصيدته (تحية ووصية)، فيحث فيها قومه على تأسيس المدارس والإقبال على العلم،ويغتنم هذه الفرصة فيحث قومه على صيانة العربية وحمايتها، موضحا لهم ما يوجد بينها وبين كتابهم (القرآن الكريم) من وشائج حميمة وأواصر وطيدة :

بني وطني أعلوا المدارس تعلكم بتعليم جهال وإرشاد ضلال
وصونوا بها الفصحى التي بكتابكم (أشادت بيرهان) وساغت كسلسال[3]

وفي وقفة مماثلة للشاعر على هذه المنصة في مدرسة الشبيبة نفسها من عام 1939 ألقى قصيدته (ويخلد الإسلام) فرسم فيها بعض معالم الطريق أمام أعين أمته، وأخذ بيديها نحو ما يساعدها على إخراجها من محنتها وتمكينها من أسباب الخلاص، وكان على رأس ما لفت نظرها إليه، وحث أعلامها على نشره في أوساطها، تعليمها لغتها وتوطيد صلتها بها وحثها على المحافظة عليها. ولكي يزيد من شدة إقبال قومه على لغتهم، ويعظم من شأنها في نظرهم، عمد إلى الكشف عن بعض ما تمتاز به هذه اللغة من بيان بديع وجمال رائع، وقدرة فائقة على البحث والدرس، لا تقل عن قدرة غيرها من اللغات العالمية في هذا المجال. وناهيك بها من لغة تستمد بلاغتها من بلاغة العرب، وتقتبس بيانها من بيان كتاب الله وتأخذ خلودها من خلوده. يتوجه الشاعر بهذه المعاني مخاطبا إخوانه العلماء من أعلام النهضة :

علموا أمة الجزائر فالعلـ ـم دليل لخيرها وزمام

علموها دينا من الله سمحا	**ليس فيه إصر ولا إرغام**
ولسانا حروفه نبرات	**مطربات كأنها أ نغام**
أبديا لا يعتريه فناء	**عربيا ما شابه إحجام**
صالحا في اللغات للدرس كالعسـ	**ـجد تجلى جذوره وهو خام**
باهت البيد زخرف الروض بالفصحى	**وتاهت على القصور الخيام**[4]

وما كانت دعوة الشاعر هذه التي حث فيها قومه على التمسك باللغة العربية والإقبال على تعلمها بمقنعة له، وهو يشاهد ما تتعرض له هذه اللغة من إجراءات تعسفية وقوانين جائرة، ما ينفك المحتلون يصدرونها تباعا لتضييق الخناق عليها وزرع المعوقات في طريقها، واضطهاد القائمين على نشرها، الأمر الذي جعل الشاعر يحس بأن الواجب يقتضي منه أن يطور موقفه من اللغة، ويتجاوز به حدود الدعوة إلى صيانتها ، إلى مرحلة التصدي للكائدين لها، ويؤمن أن هذه المهمة، إنما هي جزء أساس من واجب كل مواطن مخلص لأمته، ملتزم بالدفاع عن مقومات شخصيتها. وسرعان ما دفعه هذا الإيمان إلى التوجه بندائه إلى أخيه المواطن في شخص صديقه (الشاعر) حاثا إياه على أن يغار على شعبه المهان، ويثأر لحرمات مقدساتها المدوسة، ويأتي في مقدمة ذلك لغته التي تغزى في عقر دارها بشتى وسائل القمع وأساليب الاضطهاد، مؤكدا أن المحتلين، إنما يفعلون ذلك بالعربية لوقوفهم على حقيقة الرابطة التي تربط ما بينها وبين القرآن الكريم، كتاب الإسلام ودين الأمة. فهي لسانه وهي المساعد على نشر مبادئه، والتمكين لشريعته، وهيهات، هيهات أن يكون لأولئك الغزاة ما أرادوا من الكيد لمقومات هذه الأمة. ولها من ربها القوي العزيز خير حافظ، وهو نعم المولى ونعم النصير، ومن أبنائها حماة أوفياء تملأ قلوبهم الغيرة عليها، وتفيض صدورهم استعدادا للدفاع

عنها وعن غيرها من مقومات شخصيتها. يقول الشاعر بعض ذلك في قصيدته (كن قويا) التي ألقاها في أحد اجتماعات جمعية العلماء المسلمين الجزائريين في شأن صدور قانون 08 مارس 1938 المشؤوم، موجها خطابه بتلك المعاني إلى نفسه، أو إلى صديقه الشاعر قائلا :

غر لشعب معذب مستضام مفتن
ولسان غزته في أرضه جم ألسن
يبتغي الخصم دفنه تحتها شر مدفن
وهو عال مردد في نداء المؤذن
القوانين حوله كالسلاح المسنن
والقرارات[5] ضده معلن إثر معلن
ذنبه أن سفره خالد منذ أزمن
موغل في انتشار ممعن في التمكن[6]

ويوسع الشاعر من دائرة حديثه عن اللغة العربية في قصيدته (الترحيب بالحجاج)، فيصورها في إطارها الحقيقي بصفتها مقوما من مقومات الشخصية الإسلامية، ولسانا لجميع المسلمين، لأنها لغة دينهم وترجمان قرآنهم، وأداة عقيدتهم. ولا يفوته وهو في هذا المجال أن يشير إلى ظاهرة انصراف بعض أبناء الأمة عنها، لوقوعهم تحت مؤثرات الغزو الفكري واللغوي، وانقيادهم لما يروج له بعض المستشرقين وبعض من تتلمذ على أيدي هؤلاء من أبناء هذه الأمة، من دعاوى مغرضة، اتخذت أشكالا مختلفة، وصورا شتى، وكانت جميعها تستهدف النيل من العربية عن طريق المناداة بالتساهل في قواعدها طورا، واستبدال الحرف اللاتيني بالحرف

العربي_كما حدث في تركيا_ طورا ثانيا، والإقبال على اللهجات العامية بدلا منها، طورا ثالثا.

وتفنيدا لهذه المزاعم، وتصديا لهذه المكائد، وتأكيدا على التمسك بأصول لغتنا ينص الشاعر على أن العربية ما سميت من بين اللغات بهذا الاسم (الفصحى) إلا لما تتميز به من بلاغة وبيان،وفصاحة وجمال، مما يعد من بين أهم سماتها وخصائصها. يعرب محمد العيد عن ذلك في معرض حديثه عن فاعلية أثر مؤتمر الحج في جمع شمل المسلمين، واتحاد كلمتهم ، وتوطيد الروابط بينهم في جميع ديارهم، مشرقا ومغربا.

يقول الشاعر في ذلك :

قضى بولاء المسلمين جميعهم ووحدتهم في الأرض شرقا ومغربا

ولو أذعنوا لااسترهبوا الغرب شوكة وكان لهم في خير مؤتمر نبأ

ولو آثروا الفصحى على لهجاتهم لردوا إلى أحضانها من تغربا

فإن لسان الضاد لم يعز أصله (ليعرب) بين اللسن إلا ليعربا[7]

ويوضح الشاعر بصورة أكثر جلاء ما سبق أن ألمع إليه فيما يتعلق بمحاولات الغزاة الرامية للنيل من العربية، على طريق ما يقومون به من إقصاءِ أهلها عنها عنوة تارة، وصرف نظرهم عنها وإلهائهم بغيرها من اللهجات المحلية، وباللغات الأجنبية تارة أخرى. ويعرب الشاعر بهذا الصدد عن إصرار الشعب الجزائري وتصميمه على التمسك بلسانه العربي الذي ليس له من لسان غيره يعبر عن شخصيته المميزة وحضارته الأصيلة. ولا ضير في ذلك ما دام هذا الشعب عربيا مشدودا بأكثر من رابطة

إلى كيان الأمة العربية، التي سيحصد الخيبة والخسران كل من رام الفصل بينها وبين أرومتها ومحتدها :

ونقصى عن الفصحى ونلهى بغيرها   وليس سوى الفصحى لسان لنا رسمي
وما نحن إلا من سلالة يعرب   فمن رام عنها فصلنا باء بالرغم[8]

ونحسب أنه ليس في شعر الشاعر الذي تحدث فيه عن العربية بيت يفوق الشطر الأول من ذلكم البيت الأول في إيجاز معناه وعمق دلالته عما كانت تحيكه سلطات الاحتلال الفرنسي من مكائد ضد اللغة العربية. وليس في شعر الشاعر أيضا ما يفوق ما جاء في الشطر الثاني من هذا البيت، من قوة التعبير ووضوح الدلالة في الوقت ذاته، عن صمود الشعب الجزائري أمام تلك المحاولات،والقيام بتحديها، دفاعا عن لغته وإصرارا على التمسك بها، ورفضا لكل بديل لها.

وينبغي التذكير بهذا الصدد بأن محاربة الاحتلال الفرنسي للغة العربية لم تكن من اختصاص السلطات الرسمية وحدها، وإنما كان ينهض بها كثير من الفرنسيين خاصتهم وعامتهم في الجزائر. وكان من أشدهم على العربية بوجه خاص دهاقنة التنصير، وسدنة الاستشراق ودعاة الفرنسة واللهجات العامية ، هؤلاء الذين كانوا يسلكون في حربهم ضد العربية مسلكا فكريا ونفسيا يقوم – إلى جانب اجتهادهم في التمكين للفرنسية ونشر العامية، وتلميع اللهجات المحلية– على تشويه العربية في عيون أهلها وتزهيد الناشئة فيها، ووصمها بشتى نعوت العجز والقصور، ومن مزاعمهم في ذلك أنهاّ تتعب الأولاد وتوشوشهم وتكلفهم ما لا يطيقون، وأن لابد من الاقتصار على الفرنسية، وأن من خالف ذلك، أو قاوم أو نازع، عوقب بالأنديجينة [9].

الشاعر ...

ومهما تكن خطورة موقف هؤلاء من لغتنا، فإن له ما يسوغه في منطق أصحابه، لأنه صادر بحافز الدفاع عن الذات. يقومون بذلك وهم يشعرون أنهم ينهضون بواجبهم نحو مصلحة أمتهم وحضارتهم. ولكن الذي لا يمكن أن يقبله منطق ولا أن ترتضيه أخلاق أن يقف قوم من أبناء هذه الأمة ذلكم الموقف السلبي من أمتهم المتنكر لها ولكل ما ينتسب إليها من أصول وصفات ويتصل بها من قيم ومقومات، فتراهم وتسمعهم وهم يرددون في زمن الحرية والاستقلال، وبدون خجل أو حياء، ما كان يردده الغزاة في زمن الضيق والاضطهاد والذل والهوان: من أن اللغة العربية لغة عاجزة قاصرة متخلفة ميتة، ومن ثم فهي لا تملك ما يمكنها من أن تساير العصر وتصور مخترعاته وتعبر عن حاجاته وتتطلع إلى طموحاته على طريق التقدم العلمي والمعرفي..

وإنه لمن المؤسف أن يمتلئ سمع المواطن بهذا السخف بعد سنين من الجهاد المرير، والتضحيات الجسام ومن أجل الأصالة الشخصية والهوية الحضارية والعزة الوطنية..

ولو كان ذلك في الزمن (البائد) لأمكن اعتباره من الأخطاء التاريخية التي سقط فيها أشباه هؤلاء من ضحايا المشروع الغربي والغزو الفكري.

أما وقد تقول هؤلاء على العربية هذه الأقاويل، وفي عز السيادة والوحدة، فإنهم يكونون بذلك كما قال الإمام ابن باديس في أمثالهم "أما الذين يحاربون العربية فإنهم يفرقون ويشوشون، فسيندمون، وتنشر العربية بقوة الحق والفطرة وهم كارهون"[10].

الشاعر ...

ثانيا : العربية من المحافظة على الذات إلى ارتياد آفاق المعرفة

وإذا كان الشاعر محمد العيد قد حرص على أن يكون طوال مراحل الكفاح الوطني في مكان الصدارة من المساهمة في الذود عن مقومات الشخصية الوطنية ، فإن الدارس يلحظ أنه ظل وفيا لهذا الاتجاه إلى ما بعد الاستقلال، وأن أول ما يلقانا من شعره الذي يصور موقفه من اللغة العربية في هذه المرحلة، ما جاء في مطولته (من وحي الثورة والاستقلال) التي نظمها في السنوات الأولى للاستقلال وأكد فيها بوجه خاص على تلك الصلة الوثيقة القائمة ما بين العربية وبين القرآن الكريم من جهة، وبينها وبين السنة النبوية الشريفة على صاحبها أفضل الصلاة وأزكى التسليم من جهة ثانية، وبينها وبين التراث الشعري لأمتنا من جهة ثالثة. ومما جاء في تلك المطولة مما يصور هذا المعنى ، قول الشاعر :

ما ملة الإسلام إلا عصمة   زكى الإله بها النفوس وطهرا
هي ديننا الرسمي فيه ضماننا   في حكمنا وأماننا أن نكفرا
فكتابنا الذكر المنزل رحمة   ولساننا الفصحى الغنية مصدرا
لغة امرئ القيس الأمير وعروة   والحارث بن حلزة والشنفرى
لغة الرسول محمد وكتابه وكفى   فـ(كل الصيد في جوف الفرى) [11]

وإن الذي ينعم النظر في موقف الشاعر من العربية في هذه المرحلة (أوائل الاستقلال) يدرك أنه انتقل فيه إلى طور جديد، اختفى منه ذلك الإلحاح على درء الخطر عنها، لأن من كان يكيد لها قد طوحت به الأيام خارج حدود الوطن، وبذلك أصبح أمر العربية وسائر مقومات الشخصية الوطنية بين أيدي أبنائها.

وإذن فإن العربية أصبحت تعيش في هذه الفترة أوضاعا جديدة انتقلت فيها من طور المحافظة عن الذات، والدفاع عن النفس إلى مرحلة الإصرار على استرجاع كامل سيادتها على المواطن وكانت مبعدة عنه طول فترة الاحتلال البغيض، والطموح من نحو آخر إلى أبعد من ذلك، بأن تأخذ مكانها في ميدان الدرس والتكوين وفي حقول البحث العلمي والفكري إلى جانب غيرها من اللغات الحية للاستزادة من ثمار العلم والمعرفة الإنسانية المختلفة بما يثري تجربتها ويزيد في غناها، ويسمو بمستوى إسهاماتها على طريق التطور والتجديد.

وكان الشاعر يحس بأن هذه المهام الجليلة لن يقوى على النهوض بها إلا جيل الشباب، ولذلك نراه يتوجه إلى هؤلاء فيرسم أمامهم الطريق إلى هذه الأهداف، ويحثهم على السعي لاكتساب المعالي، وطلب أسباب المجد، على أن يكون في مقدمة ما يعنون به ويضطلعون به من هذه المهام: الإقبال على تعلم لغتهم، والإخلاص لما تقوم به البلاد من جهود في ميدان التأصيل والتعريب:

يا معشر الطلاب هذا عهدكم   فاسعوا لكسب المجد سعي عظام

وتعلموا فصحى اللغات فإنها   علوية الأسرار والأنغام

كونوا مع التعريب واحموا جنبه   لا تنسخوه بنقطة الإعجام[12]

ويبدو أن هذه الوقفة العجلى التي وقفها الشاعر عند قضية التعريب من خلال توجيهه الخطاب إلى الطلاب واعتبارهم طرفا أساسا في نجاح هذه العملية، لم تستطع أن تصور ما يملأ صدر الشاعر من شعور نحو هذه القضية. ولذلك نراه يعود في موطن آخر من شعره إلى هذه المسألة التي

الشاعر ...

أصبحت في الجزائر يومئذ قضية الساعة، وما تزال كذلك- أو يجب أن تكون كذلك ـ إلى هذه الساعة.

وإذا كان محمد العيد في النص السابق قد عد (الطلاب) عنصرا أساسيا في إنجاح هذه العملية، فإنه في النص الذي يستقبلنا يرى أن الطرف الثاني في تحقيق هذا المرمى هم (المعلمون). ومن هذا المنطلق يتوجه الشاعر إلى هؤلاء ، حاثا إياهم على النهوض بهذه الرسالة التربوية والوطنية، واضعا أيديهم على جملة من العوامل الضرورية لبلوغ ما يرجوه وطنهم من جهادهم في هذه المهمة :

قل للمعلم أكثرت الحلول إلى   أن صرت في حيرة منها وبلبال
أراك في حملة التعريب قائدها   فكيف تفشل من تثبيط خذال؟
أد الرسالة ما واتاك حاضرها   وكن بمستقبل التعريب ذا فال
إن الفروع به تنمو بفطرتها   إلى الأصول فطعمها بآمال[13]

ثالثا ـ موقف محمد العيد من اللغة الأجنبية

ينبغي ألا يفهم من إلحاح الشاعر على هذه الدعوة إلى تعلم العربية ونشرها والاعتزاز بها، وحضه على بذل العناية المطلوبة إلى قضية التعريب، أنه من دعاة الانغلاق على الذات، ورفض التفتح على اللغات الأجنبية والزهد فيها، فلا يظن بالشاعر هذا الظن إلا من جهل حقيقة ما تقوم عليه شخصيته من تشبع بتعاليم الإسلام الداعية إلى تعلم اللغات، والتفتح على الحسن من مختلف الثقافات وانتهاجه هذا النهج بتأثره ــ إلى جانب ذلك- بالفكرة الإصلاحية التي ما فتئ أعلامها منذ ظهورها ينادون بالسير على هذا الطريق[14].

وقد دعا الشاعر نفسه بهذه الدعوة في إحدى خطبه بحفل مدرسة الشبيبة الإسلامية بالعاصمة التي حض فيها على النهوض بالعربية والتمسك بها، والتحذير في الوقت ذاته من العزوف عن التفتح على اللغات الأخرى. ولم يفته أن يؤكد في هذا المضمار على ما تعود به ظاهرة التفتح هذه من مزايا جمة على من يأخذ بها فردا كان أو مجتمعا. يوضح الشاعر ذلك فيقول :

"ولا ينبغي أن يفهم من هذا الكلام التحذير من اللغات الغربية التي لها مزاياها التي لا تنكر" [15].

وإذا كان الشاعر قد لجأ إلى التعبير عن هذه الفكرة بلغة النثر، وحرص على أن تبقى محصورة في نطاقه، فلأنه لم يشأ أن ينقلها إلى مجال الشعر طوال فترة الاحتلال. وقد يكون مرد ذلك إلى إحساسه بما كانت تعانيه العربية يومئذ من مضايقات واضطهاد ومتابعات. الأمر الذي جعله لا يقدر على التصريح بهذه الدعوة بلغة الشعر، خشية مما قد يكون لذلك من تأثير سلبي على سير حركة العربية. يؤكد ذلك أن الشاعر أبقى على فكرته هذه محصورة في مجال النثر، ولم يشأ أن يجهر بها في تلك الفترة التي تحف بالعربية فيها ألوان من المكائد وصنوف من المضايقات، كما لم يشأ أن ينقلها إلى مجال الشعر الأكثر رواجا والأوسع انتشارا إلا في أعقاب الاستقلال حينما أيقن من زوال خطر الاحتلال على لغة الأمة واطمأن على مصيرها، وحينئذ لم يتوان الشاعر في تسخير شعره للدعوة بحرارة، إلى تعلم جميع اللغات والعكوف على الإفادة من مختلف ثقافتها ومعارفها وفنونها. بيد أن الشاعر يمكن أن يكون قد خشي من أن تؤول دعوته هذه على غير ما يقصد منها، ونحن نعيش في عصر الصراع الفكري واللغوي، فسارع إلى تقييدها بأن يكون للعربية محل

الصدارة فيما يدعو إليه من تفتح على غيرها من اللغات. وانتهى في ذلك إلى وضع هذه القضية فيما يشبه (صيغة معادلة) تمثل العربية فيها الطرف الأول ويجب أن تكون لها الريادة والسيادة في كل حركة يقوم بها الوطن على أرض الواقع، حرصا منه عن إرادة الشعب الجزائري وعن قضاياه واختياراته وتطلعاته. وتمثل طرفها الثاني اللغات الأجنبية التي يستحسن أن يستعان بها في عملية الإطلاع على ما تتوفر عليه من علم ومعرفة والإفادة مما عند أهلها من تجارب وخبرات.. وغير ذلك من مختلف عطاءات العقل البشري في مختلف مجالات الحياة.

يعبر الشاعر عن هذه الأطروحة في قصيدته التي بعث بها إلى اتحاد الكتاب الجزائريين في أعقاب تكريمه بمنحه جائزة الدولة التقديرية الأولى في الآداب سنة 1966. يقول في ذلك متحدثا على لسان قومه:

نطلب العلم باللغات جميعا ... لا نبالي منها بسهل ووعر
قد فتحنا لها المجال فسيحا ... ولسان (الفصحى) أحق بصدر
كيف نقضي بموته وهو حي ... في شراييننا مع الدم يجري
غير أنا لا نكتفي بلسان ... عن لسان مهما تناهى كبحر
فمن اليعربي نقبس نورا ... ومن الأعجمي بالكشف ندري
ومن العدل أن يسيرا سواء ... مستجيبين للجوار بيسر[16]

ويمكن أن يكون مضمون البيت الأخير مبالغة من الشاعر بجعله اللغة الأجنبية تقتسم مناصفة مع العربية مجال الحركة في دارها. ونظن أن هذه الظاهرة إنما تدل بوجه من الوجوه عما طبعت عليه شخصية الشاعر من ميل إلى المرونة وحب الاعتدال والمسالمة، ونفور من الغلو والتعصب والخصام، غير أننا نرى من جهة أخرى أن هذا السلوك

من الشاعر، إنما يمكن اعتباره تكريسا لمرض من أخطر الأمراض الموروثة عن فترة الاحتلال الأجنبي، والذي ما تزال بلادنا تعاني من علله في عدة ميادين من حياتها الاجتماعية والثقافية والإدارية والعلمية وغيرها. ونعني به وباء الازدواجية اللغوية الذي استفحل أمره في بلادنا، وكاد أن يصبح تقليدا من التقاليد، المفروضة علينا والواجب احترامها والمحافظة عليها في جميع مظاهر حياتنا من أشدها تفاهة إلى أعظمها قداسة.

ويعود الشاعر ثانية بعد سنة من تاريخ عمله السابق ـ أي عام 1967ـ إلى الحديث عن ظاهرة المزاوجة بين الدعوة إلى العناية بالعربية وإنزالها منزلتها اللائقة بمقامها والتي تسمو بها إلى درجتها من حياتنا، وبين الدعوة إلى التفتح عن اللغات الأجنبية والإفادة منها، وذلك في قصيدته (هي الهمة القعساء) التي نظمها في تقريظ كتاب (القواعد العربية) لصاحبه الشيخ أحمد السر حاني أحد أعضاء جمعية المسلمين الجزائريين، رحمه الله.

ويبدو الشاعر وكأنه من خلال ما تناوله في هذا العمل من جوانب الموضوع السابق، قد أحس بشيء من إجحافه للعربية وغمطه إياها بعض حقها في قصيدته الفارطة حيث كاد أن يسوي بينها وبين اللغة الأجنبية، فيما أعطاه لكل منهما من نشاط في الحياة العامة. كما يبدو من نحو آخر، وكأنه أحس بأن هذه الوقفة ستكون آخر وقفة له حول هذا الموضوع. فكان له من هذا وذاك ما دفعه بأن يرجع إلى هذه القضية ثانية فيجلي موقفه منها ويكشف عن رأيه الأخير فيها، فتوجه بذلك إلى الشباب حاثا إياهم على أن يحلوا لغتهم العربية محل الصدارة والريادة من اهتمامهم ونشاطهم، ولكي يحملهم على ما أراد أن يحملهم عليه، ويزيد في تعميق الشعور في نفوسهم بحب لغتهم والإقبال عليها، أبى إلا أن يشيد ببعض ما تمتاز به هذه اللغة من سمات متعددة تؤهلها بأن تأخذ

مكانها الرفيع و مقامها المحمود بين سائر اللغات، وكاد أن يلخص بذلك معظم ما نص عليه في نماذجه السابقة مما تميزت به العربية من خصائص وأسرار.

أليست العربية هي لغة القرآن الكريم، ولسان هدي الرسول العظيم محمد صلى الله عليه وسلم؟ أليست هي وعاء حضارة الإسلام، ومدونة الثقافة العربية الإسلامية، ومستودع أمجاد العرب والمسلمين وسجل أيامهم وتاريخهم ؟ ألم تتوفر هذه اللغة على قدر كبير من الثراء والمرونة والقدرة على التطور، ومسايرة الجديد، بما يجعلها تحتل مكانها اللائق بها بين اللغات، ولا يجرؤ على جحود هذه الحقائق إلا، متعصب ماكر، ومعاند مكابر؟

ونلحظ أن الشاعر لم ينس وهو في هذه الغمرة من النشوة والاعتزاز باللغة العربية أن يجدد دعوته ثانية إلى قومه بالعناية باللغات الأجنبية التي تعد بمثابة القنوات الضرورية للتزود من عطاءات المعرفة الإنسانية التي تجعل تجربة الإنسان وطاقاته العلمية على قدر ما يكون له من إلمام بهذه اللغات وتحصيل من كنوز معارفها وخبرات أهلها، يعبر الشاعر عن هذه المعاني بقوله :

فيا نشأنا الشرقي هيا إلى العلا كركب له فصحى اللغات كرائد
لسان كتاب الله والمصطفى معا ومفخرة العرب الجدود الأماجد
وكنز علوم الشرق في عصر نهضة لنا سادت المعمور من غير جاحد
ولا ينكر الفصحى وحسن مرانها ووفر غناها غير خصم معاند
وحي على درس اللغات وحفظها ففي حفظها قنص العلوم الشوارد
قد استظهرت بعض اللغات ببعضها كمثل الزنود استظهرت بالسواعد

فمن نال منها اثنين فاثنين شخصه   وما كان واعي واحد غير واحد[17]

نحسب أن ما تضمنته هذا النص البسيط في مضمونه، اليسير في تعبيره، القريب في تصويره، من تأكيد على إحلال العربية محل الصدارة من حياتنا والإشادة بما تمتاز به من سمات، والتعقيب على ذلك بالدعوة إلى الاهتمام باللغات الأجنبية، نحسب أن ذلك إنما يعكس موقف الشاعر من هذا الموضوع أكثر من غيره، وهو بهذا الموقف المعتدل الواضح يكون أقرب إلى شخصيته مما ورد في عمله السابق الذي لا يستبعد أن يكون قد اضطرا إليه اضطرارا لمراعاة مقتضى الحال، ودفع إليه دفعا بحوافز المجاملة، لأن الأمين العام لاتحاد الكتاب الجزائريين يومئذ الأستاذ مالك حداد ـرحمه اللهـ كان من بين الأدباء الجزائريين الذين يكتبون بالفرنسية، بالإضافة إلى أن الذي أخذ الجائزة مناصفة مع الشاعر بهذه المناسبة، كان أيضا من بين أولئك الكتاب، وهو الأستاذ محمد ديب رحمه الله.

ونحسب أن وقوع الشاعر تحت هذه المؤثرات هو الذي دفع به في نصه الذي ما قبل هذا الذي بين أيدينا بأن يظهر بما ظهر عليه من مبالغة في إنصاف اللغة الأجنبية. ويمكن أن يكون هذا التصرف للشاعر من جهة أخرى، رغبة منه في مجاراة الرأي العام الذي جعل تلك الجائزة التقديرية مناصفة بين أديب يكتب بالعربية هو الشاعر نفسه، وبين أديب آخر يكتب بالفرنسية وهو محمد ديب.

ومهما يكن من أمر ذلك، فإن الشاعر ـرحمه اللهـ لو أتيح له أن يتشوف من وراء الغيب ما عليه حال العربية اليوم، لازداد يقينا من أن احتلال العقول أشد ضررا، وأكثر خطرا، على الأمم المغلوبة على أمرها من احتلال أراضيها وديارها، ولزاده ذلك إدراكا بأن خطر الاحتلال الأجنبي في أي بلد لا ينتهي بالقضاء على وجوده العسكري

في ذلك البلد، لأن ذلك الاحتلال يمكنه أن يتشكل في كل زمان وفي أي مكان في أزياء أخرى، ويتلون بحسب الملابسات بألوان مختلفة، فيلبس لكل ظرف لبوسه، ولكل ظاهرة اللون الذي يناسبها، كما هو حاله حاضرا في أكثر من مكان ، وهو يتزيى بزي الهيمنة السائدة: الهيمنة الاقتصادية والثقافية والإعلامية وغيرها، مما يزيد في خطورته على الهوية الحضارية لأية أمة، كما يتجلى ذلك في تلك الهجمة الشرسة التي تشنها دوائر العولمة ومصالح الغزو الفكري في أكثر من ميدان، وبأكثر من وسيلة ضد المقومات اللغوية والخصوصية الثقافية والمميزات الحضارية لبعض الأمم، مما أضفى على ذلك الصراع بين الظالمين والمظلومين طابعا مميزا. ويمكن التدليل على ذلك بما تمثله في بعض البلاد اليوم بظاهرة تلك الازدواجية المسموعة والمقروءة والمرئية التي تتنافس على أن تتباهى بها غير ما جهة، وأكثر من مؤسسة إعلامية وثقافية وإدارية وغيرها في بلادنا وفي مثيلاتها في كثير من بلدان العالم المتخلف.

ونخلص إلى القول في ختام هذه الفقرة إلى أن الشاعر كان قد أتى على ذكر اللغة العربية في غير ما سبق أن رأيناه من أعماله، ولاعتقادنا أن ما سقناه من نصوص قد يكفي في رسم صورة واضحة لموقفه من هذا الموضوع. ولذلك لم نشأ أن نكثر من سوق الشواهد على ذلك. غير أننا أحببنا – بدافع الرغبة في استقراء جوانب الموضوع والتسهيل لطالب المزيد من البحث والدرس في جوانبه أن نلفت الانتباه إلى أعمال الشاعر التي ألمع فيها بوجه من الوجوه إلى العربية. وهاهي ذي مرتبة ترتيبا تاريخيا : (خطك الله للعباد كتابا[18] – تحية الشبيبة[19] – من للجزائر؟ – ذكرى شاعرين – بلادي – الترحيب بالحجاج – يا مصر – تأبين الشاذلي

خزندار – قدوة الشباب – ثورة بنت الجزائر – نشيد عقبة – الذكرى العاشرة لفاتح نوفمبر – الثورة العظمى كسبنا نصرها) .

رابعا – طوابع وسمات

يود الباحث أن يسجل في هذه الفقرة بعض الملاحظ عما اتسم به شعر الشاعر في معالجته لموضوع العربية من خصائص وسمات:

1- كان الشاعر ينظر إلى العربية برؤية خاصة قد يختلف فيها مع بعض من تطرق إلى هذا الموضوع من الشعراء المحدثين. ويبدو ذلك خاصة في كون الشاعر لم يقتصر في حديثه عن العربية بصفتها إحدى مقومات الشخصية العربية الإسلامية فحسب، وإنما نظر إليها كمعظم المفكرين والأدباء الجزائريين [20] وكبعض شعراء العربية الرواد بنظرة أوسع وأشمل وأجل[21]. فهي عنده من قبل ذلك ومن بعده : لغة القرآن الكريم ولسان هدي الرسول العظيم محمد عليه الصلاة والسلام، ووعاء رسالة الإسلام، ومستودع حضارته وأمجاده وأداة فهم تعاليمه وشريعته، ولهذه الأسباب اتسم حديث الشاعر عن العربية بطابع مميز عني فيه – إلى جانب الإشادة بخصائصها والحث على نشرها، والدعوة إلى التمسك بها– بالتأكيد على صلتها الحميمة بالعقيدة الإسلامية، وهي صلة قديمة نص عليها القرآن الكريم والحديث الشريف. ويعبر محمد العيد بذلك عن إيمانه بالحقيقة القائلة : بأن العربية قبل ظهور إسلام إنما كانت شتاتا من اللهجات وحينما جاء الإسلام وحدها ومكنها من عوامل الحياة ومنحها عناصر الخلود. وهو الذي أمدها مع عصر الفتوحات بعوامل الانتشار وأسباب الشمول وغذاها في عصر الضعف بعوامل المقاومة والصمود حتى لم يقو على أن ينال منها أي شيء مما اصطلح عليها من أدواء ومحن..

الشاعر ...

ومما تجدر ملاحظته في هذا الصدد أن التركيز على هذه الصلة في الشعر العربي الحديث قد بدأ يخف لدى بعض الشعراء فأصبح بعضهم ينظر إلى العربية بمنظار قومي أكثر مما ينظر إليها على أنها لغة القرآن ولسان العقيدة الإسلامية مدفوعا إلى ذلك بضعف العامل الديني في نفسه، وبتأثير جملة من العوامل الوافدة [22]، في حين ظل الإلحاح على هذه الصلة من السمات المميزة ليس في شعر محمد العيد فحسب، وإنما في شعر معظم زملائه من الجزائريين الذين لم يقعوا تحت تأثير تلك العوامل السابقة، فظلت العقيدة الإسلامية قوية في قلوبهم، وظلت العاطفة الوطنية حية في صدورهم. ومن أقرب هؤلاء إلى الشاعر محمد العيد في هذا المنحى، الشاعر الشيخ أحمد سحنون، أحد أعضاء جمعية المسلمين الجزائريين، رحمه الله .

وإن الدارس لنتاج الشاعر في هذا الموضوع لا يعثر فيه على ما يشير إلى أنه قد غير موقفه هذا من العربية كما ظهر ذلك في نتاج بعض الشعراء الذي أصبح ينظر إلى العربية على أنها عنصر قومي مستقل عن العقيدة الإسلامية[23].

2- تميز الشكل الفني الذي صب الشاعر فيه هذه المعاني بمظهر خاص، لم يلجأ فيه إلى تخصيص عمل أو أكثر من أعماله يستعرض فيها ميزات هذه اللغة ويكشف عن قدراتها المختلفة على مجاراة العصر والتعبير عن متطلباته والحث على العناية بتطويرها، ويدفع عنها أخيرا ما رماها به بعض المغرضين من أسباب القصور والعجز، كما فعل ذلك بعض الشعراء، يأتي على رأسهم حافظ إبراهيم في قصيدته الشهيرة (اللغة العربية تنعى حظها بين أهلها) [24].

إن محمد العيد لم يسلك في حديثه عن العربية هذا المسلك، ولعل مرد ذلك إحساسه بأن ذلك المنهج لا يقوى على استيعاب تجربته الخاصة ولا يقدر على الوفاء بالغرض الذي يتوخاه. ولذلك نراه يفضل أن يصوغ معانيه في شكل وقفات متعددة قد تطول وقد تقصر بحسب الموقف النفسي الذي يملأ صدره. وينعكس ذلك في صورة أبيات مبثوثة في أطر فنية مختلفة في جملة من أعماله تشمل القصيدة والمقطوعة والأنشودة، وتستغرق مساحة زمنية تكاد تغطي كامل مراحل شعره.

ولعل الباحث لا يحتاج إلى جهد كبير ليدرك البواعث التي أدت إلى هذا التباين الملحوظ بين الشاعر وبين حافظ إبراهيم بوجه خاص في موقفهما من العربية وفي الشكل الفني الذي اختاره كل منهما للتعبير عن تجربته. وإننا نحسب أن ذلك إنما يرجع إلى طبيعة الظروف الموضوعية العامة التي مرت بها العربية في كل من الجزائر وغيرها من البلاد العربية، ولعله لم يعد يخاف على كثير من الدارسين أن ما تعرضت إليه العربية وغيرها من مقومات الشخصية الوطنية من حملات الاضطهاد والجور والإرهاب في أرض الجزائر لم تشهد مثله عنفا وشدة وتعصبا في أي قطر من أقطار العروبة والإسلام.

3- وبالرغم من أن الشعراء العرب قد أدركوا في مختلف أقطارهم ما تهدف إليه مخططات المحتلين من ضرب العقيدة واللغة العربية معا، مما ترتب عليه تشابه في مواقفهم من هذين المقومين، وتماثل في دفاعهم عنهما، إلا أن المرء يمكنه أن يلحظ –نتيجة للظروف الخاصة التي مر بها الإسلام والعربية في الجزائر– بعض ما يميز موقف الشعراء الجزائريين من الموضوع، عن موقف غيرهم في البلاد العربية. يبدو ذلك في إلحاحهم

على الموضوع، وفي كثرة تناولهم له وتداولهم عليه مما جعله يتوزع على مساحة كبيرة في شعرهم.

4- ويمكن القول بأن هذه الخصوصية في الملابسات التي اكتنفت وضعية العربية في الجزائر هي التي جعلت الشاعر محمد العيد يحس بأن قضية اللغة، إنما هي قضية مصيرية يجد نفسه وجها لوجه أمامها كلما جاء طرق موضوعا من الموضوعات المتصلة بحياة الأمة. ولعل هذا الأساس هو الذي يفسر كثرة وقوفه مع هذا الموضوع وإلحاحه عليه. فرض ذلك الصراع الذي دار حول هذه القضية بين المحتل الأجنبي الذي حاول بكل الوسائل أن يجهز على العربية في الجزائر وبين الشعب الذي بذل كل ما في وسعه من جهاد للمحافظة على العربية والذود عنها. لقد فرض هذا الصراع على الشاعر أن يغتنم مختلف الفرص ليحث على التمسك بالعربية الفصحى ونبذ سواها ويحث على الاعتزاز بها والغيرة عليها، فجاء شعره في هذا الموضوع للأسباب التي ذكرنا موزعا بين كثير من أعماله وممتدا على مساحة زمنية كبيرة .

5- كان الشاعر يتحدث عن العربية في إطار ثلاثة محاور هي: الإسلام والعروبة والوطن، وكان أوسع هذه المحاور وأشملها: المحور الأول. وكان أضيقها آخرها. ذلك أن الشاعر، وإن كان قد تحدث عن العربية أحيانا في نطاق حدود وطنه بإشارته إلى ما تعرضت إليه في الجزائر من تضييق وإرهاق وإرهاب، وما كابد أهلها في سبيل المحافظة عليها ونشرها من ظلم وعنت وأذى، لم يتحدث عنها كظاهرة خاصة بهذا الوطن أو ذلك، وإنما كان يتناولها في مجال واسع بصفتها لغة للدين الإسلامي ولسانا لجميع المسلمين.

6- إن الشاعر وإن استمر ينظر إلى العربية من زاوية واحدة في جميع مراحل شعره على أنها ترجمان للقرآن الكريم ووعاء لتعاليم الإسلام، مرت طريقة تناوله لها بمرحلتين اثنتين:

أ- كان في المرحلة الأولى، وهي التي سبقت الاستقلال، يشيد بخصائص العربية ويندد باضطهاد المحتلين لها ويدعو قومه إلى المحافظة عليها.

ب- استمر في المرحلة الثانية يدعو إلى ما كان يدعو إليه من قبل، بيد أنه أضاف إلى ذلك شيئا يمكن اعتباره جديدا، وهو حرصه على توجيه عناية قومه إلى تعلم اللغات الأجنبية والتفتح على معارفها، هذه الدعوة التي لم يستطع أن يجرؤ على المناداة بها من قبل .

7- أكثر الشاعر من استعماله لكلمة (الفصحى) وإطلاقه إياها على اللغة العربية تحديدا حتى ليوشك أن يقتصر على هذه الصفة دون سواها. ونذكر أن هذه الكلمة وردت فيما مر من نماذج في هذا الموضوع، حوالي تسع مرات من مجموع أربعة عشر نموذجا. وإنها لظاهرة لافتة للنظر بالفعل. ونحسب أن إلحاح الشاعر على هذه المسألة إنما يعكس إحساسه ووعيه بخطورة ما يقابل تلك الصيغة في الاستعمال اللغوي، إذ أن ما يقابل (اللفظ الفصيح)، كما هو معلوم، إنما هو (اللفظ العامي)، ويمكن أن نستنتج من ذلك أنه كان واعيا بما يدور في الساحة الوطنية بالقرب منه وبما كان يجري في الساحة القومية بعيدا عنه من مكائد ودسائس كانت تستهدف جميعها مرمى واحدا وإن تناءت بينها الديار، وهو النيل من مقومات الشخصية العربية الإسلامية عن طريق ما يروج له بعض دهاقنة الغزو الفكري، وبعض المخلصين لأفكارهم ممن تتلمذ لهم من أبناء جلدتنا، من دعوات تحض على التساهل في أصول العربية، وتحث على استعمال اللهجات العامية والمحلية وتشجع على استبدال

الحرف اللاتيني بالحرف العربي. وقد ظهرت هذه الأصوات أول ما ظهرت في الوطن العربي بمصر ولبنان، في أواخر القرن التاسع عشر، على أيدي بعض المستشرقين. وكان من أبرزهم وأشدهم تعصبا وعداوة للعربية وللإسلام يومئذ (وليام ويلكسس) الذي قام بنشاط ملحوظ في هذا المجال تشجيعا لما ينادي به، ومن ذلك قيامه بترجمة بعض الفصول من الإنجيل إلى العامية المصرية، وقد تلقف دعوته هذه في مصر بعض المستغربين، وكان من أبرز من تبناها من هؤلاء وحمل على عاتقه الترويج لها بإخلاص وحماس، الكاتب سلامة موسى[25].

وأثيرت هذه القضية في لبنان على أيام الانتداب الفرنسي لبلاد الشام ونشط لخدمتها نفر غير قليل من تلامذة الاستشراق في لبنان[26].

وأما في الشطر الثاني من الوطن العربي (المغرب) فقد شهدت هذه المحاولات في مختلف أقطاره نشاطا متزايدا وظهر ذلك في أشكال مختلفة استمرت طوال فترة الاحتلال الأجنبي، نذكر من بينها ما قام به الفرنسي (هنري بيراس) H.Péres [27].

وقد تصدى أعلام النهضة الوطنية والحركة الإصلاحية في الجزائر بوجه خاص إلى هذه المحاولات واستطاعوا بعون الله وتوفيقه أن يتغلبوا على ما يحيط بهم من عسر وشدة وينجحوا في تحجيم خطر ذلك. ثم جاءت ثورة نوفمبر المجيدة فقامت بإخماد ما بقي من سموم تلك المحاولات، ولكن أساتذة المخطط التغريبي لم يغادروا الساحة ولم يقوموا بإغلاق مؤسساتهم، وإنما ظلوا يتربصون الدوائر والفرص لإعادتهم الكره واستئناف نشاطهم المعهود في الوقت المناسب، لابسين لكل زمان لبوسه كما يشاهد ذلك في الساحة على أكثر من صعيد.

8- وقد كانت هذه المحاولات –وما تزال– لا تستهدف النيل من اللغة العربية فحسب، وإنما كانت ترمي في الوقت ذاته إلى المساس بالعقيدة الإسلامية لما هو قائم بينها وبين العربية من وشائج وصلات. ويمكن أن يتحقق من شاء، مما نذهب إليه عن طريق معرفته شيئا واحدا، وهو أن هذه العامية التي يدعو إليها أولئك المغرضون إنما هي عبارة عن أشتات من لهجات محلية شديدة الاختلاف فيما بينها من قطر إلى آخر. وتفتقر في مجموعها إلى القدرة على نقل التجربة الإنسانية واستيعاب ما يجود به العقل البشري من علوم واكتشافات، وهي من قبل ذلك ومن بعده، قاصرة على فهم تعاليم الشريعة الإسلامية، عاجزة عن صيانة التراث العربي الإسلامي. وهي بهذه المواصفات الموضوعية لا تجعل الإنسان يحس بالميل إلى استخدامها إلا في نطاق محدود مما يقوم به من أنشطة في مختلف مجالات الحياة.

وإن الميل إلى استخدام هذه اللهجات في الحاضر سيؤدي إلى قطع الصلة بين الأمة وبين مصادر شريعتها وكنوز تاريخها وأصول حضارتها، وإلى الحيلولة بذلك –من جهة أخرى– بينها وبين الإفادة من تراثها والعمل على إغنائه وتطويره، وتجريدها بالتالي من القدرة على المحافظة على كيانها وأسباب التصدي للتحديات الحضارية المتربصة بها.

9- ونحسب أن الشاعر من أجل المساهمة في إفشال هذه المحاولات كان يلح على استعمال كلمة (الفصحى) تعبيرا عن العربية ليوحي بذلك بضرورة التمسك بها واجتناب ما يناقضها من عامية ولهجات محلية– تلك التي يحرص بعضهم على التمكين لها – ماضيا وحاضرا في حياة الناس بأشكال مختلفة تجاوزت حدود الحث على الإقبال عليها إلى محاولة التأليف بها، إلا أن الذي ينبغي الإشارة إليه في هذا المضمار

أن جميع تلك المحاولات ، وإن وجدت هوى في بعض النفوس المريضة، لم تقو على أن تجد لها منزلة أو بعض المنزلة في قلوب أبناء الأمة، وبقيت محصورة في مكان ضيق محدود إلى أن انطفأت أمام صمود الأمة وإصرارها على التمسك بمقومات شخصيتها ومحافظتها على كيانها وأصالتها.

10- إن الدارس إذا ما حاول أن يتعرف على رأي للشاعر يكون أكثر وضوحا مما مر به حول موقفه من العامية، لن يظفر به في شعره. إنما يجد ذلك في نثره، في معرض رده عمن ينادي بأن تكون التمثيليات التي يضعها الشاعر لطلابه مكتوبة بالعامية. يقول الشاعر بهذا الصدد «وجوابنا عن ذلك أن الروايات باللغة العامية، وإن كانت تستحسن في بعض المواقف العامة للتأثير على الأوساط العامية لكنها لا تستحسن بحال، من مدرسة تعمل للعربية وتقدم مصلحة تلاميذها على كل مصلحة... فلنسر دائما في طريق الفصحى» [28].

وما دمنا قد عرفنا موقف الشاعر من العامية في نثره، فإننا نرى أنه من المفيد أن نرفق ذلك – تحقيقا للشمولية وتعميقا للبحث– بالتعرف على موقفه من الفصحى في نثره، ونلمح بعض ذلك في قوله:

«فلنسر دائما في طريق الفصحى، ولنسع جهدنا في نشرها بكل الوسائل، ولنبرهن عن حبنا لله بحب رسوله، وعن حب رسوله بحب العرب، وعن حب العرب بحب العربية، وعن حب العربية بالعناية بها والإقبال عليها، ولنعود ألسنتنا على النطق بها، ولنعرب عن وجود أمتنا حية بين الأمم بالمحافظة على لسانها القومي» [29].

وقد تمثل الشاعر هذا الموقف نظريا وتطبيقيا، فكان حريصا في نتاجه على صحة اللغة وسلامتها ونقائها وجمالها، فخلا إبداعه من الضعف اللغوي إلا فيما ندر، وابتعد ابتعادا كليا عن الاستعمال العامي، والمسف من الألفاظ. ويمكن القول بأنه كان، من هذه الناحية، مثلا بارزا من بين شعراء العربية في العصر الحديث الذين سقط بعضهم فيما يروج له بعض المتعصبين من المحتلين وبعض تلامذتهم في هذه في البلاد وفي غيرها من البلاد العربية، بالمناداة بتطوير اللغة العربية – في زعمهم – على طريق التساهل في قواعدها [30].

الهوامش

1- "دراسات في المجتمع العربي" ص: 188 – فئة من الأساتذة الجامعيين – جامعة دمشق 1967.

2-3-4- "الديوان"، ص:91-127- 179، مطبعة دار البعث قسنطينة 1967.

5- من أخطر هذه الإجراءات قانون 08 مارس1938، الذي يعتبر العربية لغة أجنبية في الجزائر.

6-7-8- "الديوان" : ص 323، 196، 205

9 - أبو يعلى الزواوي: "جماعة من المسلمين"، ص: 51. مطبعة الإرادة — الجزائر — 1947.

10 - ابن باديس، "حياته وآثاره" ج1 ص: 120 – دار اليقظة العربية سوريا – 1967.

11 – " العيديات المجهولة" ص113، صنعة الكاتب، مطبعة رغاية – الجزائر- 2003

12-13- "الديوان": ص: 240، 504.

14- "مجلة الشهاب" ج4 م11 ربيع الثاني 1354هـ.

15- "جريدة الأمة" لأبي اليقظان ع: 101 – 8 ديسمبر 1936.

16-17- "الديوان"، ص: 550 ،541 .

18- "العيديات المجهولة": مصدر سابق ص44 ، صنعة الكاتب .

19- "الديوان" : ص108.

20- الإمام الإبراهيمي: "عيون البصائر"، ص:191 ط2- الجزائر د–ت. وينظر د/ حنفي بن عيسى، مجلة الثقافة سبتمبر 1971.

21–22 –23- د/ عمر الدقاق: "الاتجاه القومي في الشعر العربي الحديث" ص: 208، 217 ،219، ط2، سوريا 1963

24- ديوانه ج1 ص: 194.

25- د/ عمر الدسوقي: "في الأدب الحديث" ج2 ص:42 – ط7 دار الكتاب العربي بيروت 1966 وينظر الرافعي: "تحت راية القرآن" : ص:51 – ط4- مطبعة الاستقامة — القاهرة 1956.8.

26- د/ عمر الدقاق: "الاتجاه القومي في الشعر العربي الحديث" ص: 203.

27- مصطفى الأشرف: "مجلة المعرفة السورية"، فيفري 1964.

28-29- من خطاب له بمدرسة الشبيبة – "جريدة الأمة" لأبي اليقظان ع: 101 (08 ديسمبر 1936).

30- نازك الملائكة : "قضايا الشعر المعاصر"ص: 290- ط3- مكتبة النهضة – بغداد 1967.

بيضاء

الأمازيغية والعربية تكامل لا تصادم

أ.د صالح بلعيد

المقدمة: إنّ أشدّ ما يقلقني كباحث؛ يبتغي الوصول إلى الحقيقة، وكفرد جزائري يسعى إلى السلم والاعتراف بالخصوصيات، ذلك التعتيم والتغييب وإظهار العيوب والهنات من جانب واحد، ودون ذكر مسبّباتها، وعدم الإشارة إلى مواطن القوّة في الهُوية الجزائرية المتينة التي جسّدها فعل الأجداد، وأرى هذا التعتيم مقصوداً في محاولة محاسبة الأجداد على هذا الاختيار، وكأنّهم لم يحسنوا الاختيار. فتبدو لي هذه المحاولات ترغب مراجعة الذات التي طُبعت وانطبعت على مدار أربعة عشر(14) قرناً من التلاحم والتصاهر، فتبتغي خوض البداية من المنطلق، بعدم الاتّكاء على الماضي. ولكن ما يجب التنبيه إليه أنّ وراء هذه الفئة مؤسّسات تستهدف إقلاقنا بمشاكل هامشية، وتخلق لنا النعرات باسم البحث عن المفقود المنتظر، وكلّ هذا يأتي في إطار إلهائنا عن الحلول لمشاكل التنمية، وكيفية محاربة التخلّف، ومحو الأمية، وظواهر معاصرة من مثل مسايرة المستجدات المعاصرة التي تفرضها علينا العولمة، وكيفية اللحاق بمجتمع المعرفة. والأدهى من هذا أنّ المؤسّسات التي وراء هذه النعرات أجنبية،

فإذا رغبت البحث في مدى تطبيق ما يرفعونه في أوطانهم، يستنكرون ذلك على أنّها ممّا تجاوزه الزمان، وطَوَته الأحداث منذ القرن الثامن عشر الميلادي، فالبحث عن صفاء الدم، أو اللغة الأصل، أو توقيف عجلة التاريخ بمحاسبة الماضي هو السراب بعينه. فهم يأخذون من مأثورنا (دعِ الفتنةَ نائمةً) ونحن نتآكل على ما يرموه لنا من شرور. وسوف أعالج هذا الموضوع وفق المحدّدات التالية:

1- الوضعية اللغوية في المغرب العربي خلال الفتوحات الإسلامية:

1-1- وضعية صراع

2-1- وضعية تعايش وتكامل

2- الازدواجية اللغوية والتداخل اللغوي.

3- المطالبة الثقافية والتعدّدية اللغوية في البلاد المغاربية.

1-3- وضعية قانون تعميم استعمال اللغة العربية تجاه الأمازيغية:

4 - الحلول اللغوية المعاصرة

5 - الخاتمة

1- الوضعية اللغوية في المغرب العربي خلال الفتوحات الإسلامية

تشير المصادر بأنّ شمال أفريقيا قبل الفتح الإسلامي كان (**بربرياً**) بحتاً، وأنّ اللغة الوظيفية المستعملة في بلاد تامزغا هي الأمازيغية بكثير من لهجاتها، وأما في الخطاب الرسمي فتنوّعت فيها اللغات الأجنبية من نوميدية إلى رومانية وإلى فينيقية، ولم يثبت التاريخ أنّ ملوك البربر قد استعملوا الأمازيغية في الخطاب الرسمي ولا في الإدارة أو في مصالحهم العسكرية، فكانت لغتهم النوميدية أو الرومانية أو الفينيقية، فقد وقع تهميش الأمازيغية منذ غزو الرومان والوندال لشمال إفريقيا، ولم تعطَ لها القيمة الوطنية إلا مع دخول العرب هذه البلاد ولكن الأمازيغ تعاملوا مع العربية دون إهمال لغتهم، وكانوا يستعملونها في معاملاتهم الوظيفية، وتُكتب بالحرف العربي، وأُهملت مع الفتوحات المتوالية، ومع المدّ الزاخر الذي كانت تحمله اللغة العربية بالحمولة الدينية في المقام الأول.

والمهمّ من وراء هذا أنّ الإسلام نال مساحات في إفريقيا الشمالية، وشاع بين المواطنين، وقبلوا الدين، وتردّدوا في اللغة، ولكن بعد تدفّق قبائل بني هلال وبني سليم على البلاد المغاربية، حدثت عملية تعريب واسعة في المناطق المغاربية، وحصل امتزاج العنصرين الأمازيغي والعربي بشكل لم يسبق له مثيل، وخلال تلك القرون الطويلة من التصاهر والتعايش، أصبح العرب والأمازيغ أمة واحدة، لا مكان فيه للعرق أو لسلالة من السلالات، ورفضوا كلّ أشكال المسخ الثقافي Déculturation الذي يبعدهم عن سلالة واحدة (**أمازيغ عرب**) كما يسجّل التاريخ بأنّ ممالك المرابطين والموحّدين كانوا شديدي الدفاع عن الإسلام والعربية، وهم الذين أخّروا سقوطَ الأندلس قروناً "عرفت الجزائر سلسلة من الأسَر التي انحدرت من أصول غير عربية مثل: المرابطين والموحّدين... وهي من أقوى

الدوَل التي يفتخر تاريخ المغرب العربي ويعتزّ بها، فلم يلجأ حكامها إلى التوغّل في الوضع اللغوي بفرض سياسة لغوية مخالفة لما كان معروفاً وسائداً في جلّ أقطار العالم الإسلامي[1]". كما يسجّل أيضاً بأنّ ملوك البربر أخذوا الإسلام عن قناعة، وطبّقوه على الواقع؛ فهذا يوسف بن تاشفين الأمازيغي كان أمير المؤمنين في المغرب، وليس أمير العرب أو أمير الأمازيغ، فقد حكم شمال إفريقيا تقريباً بالإسلام، ونعرف أنّه كان لا يتقن العربية، ومع ذلك عمل على تعلّمها وتعليمها ونشرها وأقرّها **لغة رسمية**، كما أنّ يوسف يعقوب المنصور صاحب دولة الموحّدين كان أمير المؤمنين، ولم يلقّب نفسه بأمير البربر أو أمير العرب، وانطلق العلاّمة الأمازيغي المهدي بن تومرت من الإسلام ليؤسّس إمبراطورية كبيرة. ومن ذلك الدمج حصلت قوّة كبرى في توطيد أركان الدول التي حكمت هذه البلاد، بل كانت لهم المآثر الكبرى في صنع المأثرة الفاطمية؛ إذ انتقلوا من القيروان إلى مصر، وأسّسوا الفسطاط (القاهرة حالياً) والجامع الأزهر سنة 969م. كما أسّسوا في بلدانهم مؤسّسات لا تقلّ قيمة علمية عن بغداد والأزهر وحاضرة الحجاز، من مثل: جامعة القرويين، وجامع الزيتونة، وحاضرة بجاية، وتلمسان، وفاس، وحوزات مختلفة في كلّ من المسيلة ووادي سوف...

ومهما يكن فإنّ التاريخ يثبت بأنّ الأمازيغ بعد الفتح الإسلامي تبنَوا الإسلام والعربية عن طواعية واقتناع، وأثروهما أيّما إثراء، رغم بعض الثورات والصدود التي أعلنوها ضد الظلم والاحتقار، والذود عن النفس؛ باعتبارهم نبلاء لا يقبلون الذلّ، وهذا منذ أن سامهم عقبة بن نافع الفهري الذلّ، ومعاملات عبد الله المرادي الدنيئة، إضافة إلى بعض الإهانات التي

ألحقها بعض المسلمين بالمواطنين، كما ثاروا ضد موسى بن نصير، لأنّه كان عنيفاً يحبّ الغنائم، ورفضوا سياسة يزيد بن عبد الملك الذي امتلأت خزائنه، وأهل المغرب والأندلس يموتون جوعاً، كما رفضوا ممارسات بعض الولاة الظالمين في المنطقة، ونعلم أنّ العرب استأثروا بالأندلس الذي فتحه البربر[2] حيث كانت مرجعية بعض الوُلاة غير دينية، بل الاستئثار بالثروات لا غير "قدم عبد الرحمن الداخل بعد أن وطّد أسس الإمارة الأموية بالأندلس على أساس العصبية القبلية بتقريب عشيرته وأبناء قبيلته كما فعل الخليفة عثمان وأمويون في المشرق[3]". كما أسّسوا في الأندلس ديوان قريش الذي يصنّفهم على أساس عراقة الدم، وإعفائهم من دفع الضرائب، ولما لها من حقّ التقدّم في الرسميات. ولكن الأمازيغ قبلوا بسياسة اللّيْن التي انتهجها إسماعيل بن عبد الله بن أبي المهاجر، وحكمة حسان بن النعمان، ولم ينظروا إلى تلك الأفعال المستثناة لبعض الأفراد، لأنّهم وجدوا في الإسلام متنفّساً ممّا عانوه مع الوندال والرومان.

لقد لعب الأمازيغ دوراً ريادياً في الأندلس؛ عندما عبّروا المضيق مع طارق بن زياد، وعاشوا ما يقارب ثمانية قرون مع العرب الفاتحين، ولم يقوموا بأفعال تؤدّي إلى تذمّر الأسبان، ولم يحظوا بالحظوة التي نالها العرب في الحكم؟ ومع ذلك فإنّه حصل الوئام والتناسق والتجاور، بفعل الإسلام الموحّد الذي يرفض التعصّب والاعتداء، ورغم إحساس العرب بالتفوّق، ورغبة الأمازيغ في الالتحاق بهم وتقليدهم، فإنّ ذلك لم يؤدِ إلى استعبادهم وتخلّيهم عن أمازيغيتهم، وكان الولاء للعرب لمصالح إستراتيجية وحسابات عربية أمازيغية على حدّ سواء، وكان من مصلحة العرب الاستكثار من الأنصار لضمان استمرارية دولتهم؛ حيث كان بعض الأمازيغ يخفون أنسابهم

البربرية التي تسبّب لهم الحرَج واكتساب أنساب عربية، وتخلّيهم عن أسمائهم، وأحياناً زواجهم بامرأة عربية.

لقد كان للأمازيغ دور في تعريب الأندلس، فتنوّعت المجموعة التي بذلتها الشعوب غير المسلمة من أجل ضبط اللغة العربية والإمساك بزمامها، ليس فقط لأنّها لغة القرآن، بل للحصول على مكانة في المجتمع ومساواة للعرب، وتحقّق التعريب في فترة وجيزة وسريعة، فمن اتّخاذ الأسماء العربية إلى تبنّي الأصول العربية والتهافت على الولاء، ثمّ تشرّب العربية من منابعها، والتعمّق في نحوها؛ فنجد اهتمام الأمازيغ بالعلوم اللغوية العربية مبكراً، وفي هذا الاختصاص هناك من أصبح نحوياً، ومن صار لغوياً، ومن لُقّب بالعارف بالإعراب، ومن أُطلق عليه لقبُ حافظ العربية. وتذكر المصادر الشيخ الأول أبا موسى عبد الرحمان بن موسى الهواري الأستجي الذي رحل إلى المشرق واشتهر بفصاحته وإتقانه للإعراب، التقى الأصمعي وأخذ عنه، وعبّاس بن ناصع المصمودي الثقفي الذي رحل إلى الحجاز، ثمّ مصر، وثابت بن حزم العوفي السرقسطي، وهو أول من أدخل كتاب العين إلى الأندلس، ويرى "Levi Provençal ... أنّ البربر قد استعربوا خلال القرن 2 هـ/ 8 م، وكانت بعض الأجيال دون شكّ كافية لتفقدهم لغتهم الوطنية (اللسان الغربي) تماماً، وقد عوّضوه دون مشاكل باللسان العربي، وفي نفس الوقت الرومانس، ويحتمل أن لا يبقى أحد ممّن يتكلّم اللهجة البربرية في الأندلس انطلاقاً من القرن التاسع الميلادي، لا نجد أيّ إشارة تفنّد هذه الفرضية التي دعّمها، بالعكس الغياب التام أو الشبه التام لأسماء أماكن بربرية باستثناء أسماء القبائل نفسها ضمن مجموعة أسماء الأماكن في الأندلس[4]". ولعلّ هذا النموذج يبيّن مدى اهتمام الأندلسيين باللغة العربية

وعلومها، وإذا قلنا الأندلسيين، فنعني أنّهم تتلمذوا على يدّ الأمازيغ، فماذا نقول إذاً عن أمازيغ المغرب الذين تعرّبوا بسرعة كبيرة، وفي أقلّ وقت ممكن، وحصلت حركة التعريب بشكل سريع في المغرب[5]، وتدعّمت بعديد من العلماء العرب الذين قدِموا للتدريس، إضافة إلى إرسال طلبة العلم الأمازيغ إلى الحجاز ونَجْد لتلقّي العربية من أصحابها الأعراب بالاحتكاك بهم والعيش معهم، حتى أصبحت العربية لغة التخاطب اليومي، ولغة الإدارة والثقافة.

1-1- وضعية صراع: لقد حدث صراع على الأرض وعلى الحُكْم في شمال إفريقيا فحاربت الداية (الكاهنة) الفاتحين، وصمدت سنوات رافضة الحُكم العربي، كما حصلت مناوشات كثيرة في بعض المناطق؛ يعود بعضها إلى رفض الحاكم العربي؛ وبعضها إلى السيطرة على الثروات، وتشير كتب التاريخ بأنّه حدث صراع حربي بين عقبة بن نافع وكسيلة الملك البربري، وارتدّ البربر في رواية ابن خلدون اثنتي عشرة مرة، واستقرّوا في عهد موسى بن نصير على الإسلام. ومن ذلك تعرّب الأمازيغ كما تمزّغ العرب في موجات متتالية بدءاً من الفتح الإسلامي
إلى هجرة بني هلال وبني سليم في القرن الحادي عشر، وأخيراً هجرة العرب الأندلسيين بعد سقوط غرناطة سنة 1492م إثر صدور مرسوم 1502 القاضي بطرد العرب من أسبانيا، كما تشير بعض الدراسات أنّ بعض القبائل العربية التي دخلت الجزائر ارتدّت عن الإسلام، وعمل الأمازيغ على أسلمتها عن طريق الأئمة والدعاة والتجار الذين عملوا على بناء المساجد والدعوة إلى التديّن بالإسلام. والمهمّ في كلّ هذا أنّه لم ينقل لنا التاريخ أنّه حصل في بداية دخول الفاتحين الصراع اللغوي، ولا بعد ذلك. قبل الأمازيغ اللغة العربية قبولهم الدين الإسلامي؛ فحصل أسلمة بلدان المغرب العربي في ظرف قصير، وهي المهمّة الأساس عندهم؛ وكان عدد الجنود الفاتحين

عشرة آلاف (10) عاد منهم تسعة آلاف، وبقي الألف، فهل هذه الألف هي التي عملت على إسلام المغرب العربي؟ وهل هي التي عملت على التعريب الجزئي؟ أسئلة لها إجابتها الحقيقية؛ حيث تنصّ الدراسات الجادة على أنّ أسلمة المغرب العربي تمّ سريعاً، ومن ثمّ عمل المغاربة على نشر الدين داخلياً وخارجياً، ولكن المسألة اللغوية تأخّرت مدداً، ولم يكن لها الحضور إلا مع دولة المرابطين والموحّدين، فتمّت بشكل نهائي، وكان ذلك الأمر حتمية من الحتميات التي فرضها الواقع وقَبِل بها الأجداد طوعاً "حتمية التعريب ولّدتها الظروف التاريخية والسيرورة الاجتماعية لمجتمع المغرب العربي بعامة والجزائر بخاصة، ولم تكن المسألة فردية ولا حتى إرادة جماعية[6]" وكان ممّن ساهم في نشر العربية وتقعيد قواعدها أجدادنا الأمازيغ، لا لشيء إلا لغرض المحافظة على الوحدة بين المسلمين، فكان شعارهم: **الأمازيغية إرثنا، والعربية غراء اجتماعي توحيدي: فبالأمازيغية نبقى، وبالعربية نرقى.**

إذن لم يطرح الصدام بين العربية والأمازيغية إلا مع دخول فرنسا التي أقصت الأمازيغية والعربية من الاستعمال والتوظيف بشكل نهائي، وبقرار من الحاكم الفرنسي، وهذا منذ سنة 1899، مع إغلاق الكتاتيب القرآنية، وتدمير المساجد، وتحويل الكثير منها إلى كنائس، بل وصل الأمر إلى منع الحجّ على اعتبار أنّ الحجاج يحتكّون بالعرب الذين يحملون اللغة العربية، أضف إلى ذلك ما تعرّضت له الصحف المعرّبة من غلق وملاحقة أصحابها، وهذا كلّه يدخل في إطار الضمّ النهائي، وتذويب الكيان الثقافي في الجزائر في كيان فرنسا، وإضعاف الشخصية العربية الإسلامية الجزائرية ومقوّماتها الدينية.

إنّ الأمازيغية لم تصارع العربية؛ حيث تحدّدت مجالات كلّ واحدة منها بشكل طبيعي، كما لم يمنع القرآن استعمال اللغات والألسنة الأخرى، **وبذا عاشت العربية بلهجاتها، والأمازيغية بلهجاتها وتأدياتها جنباً إلى جنب طوال القرون الماضية، ولم يحصل بينهما أيّ صراع، بقدر ما كان التكامل والتداخل تلاقحاً وتبادلاً في الأدوار والوظائف**. وفي الوقت المعاصر لا تعادي الأمازيغية ولا اللغة العربية اللغة الفرنسية كلغة علم، فالفرنسية لغة راقية يجب الاستفادة من علومها، ولا يمكن نكران بأنّ لها باعاً طويلاً في علوم الطبّ والسياسية والسياحة، ولكن لا تبقى لغة هيمنة عندنا، أو اللغة التي يجب المرور منها للوصول إلى كلّ شيء، وأما ما حصل من صراع في مسألة التعريب، فهو ردّ فعل للتغريب، صراع بين لغتين إحداهما أجنبية تصرّ على احتلال مكان السيادة في البلاد، ولغة وطنية ترى أنّ شرعيتها قد انتُهكت، ومكانتها سُلبت فتطالب بردّ حقّها، وهذا شيء تقرّه الحقوق اللغوية لكلّ اللغات، **ومن حقوق اللغة العربية عدم الاعتداء على شرفها، كما من حقّ الأمازيغية أن تنال مكانتها كلغة وطنية تبحث عن إعادة الاعتبار لتراثها، وعن تقييد يخرجها من الشفاهية.**

1-2- وضعية تعايش وتكامل: إنّ أسلافنا عملوا في إطار موحّد، رغم المنعطفات التاريخية الصعبة التي عانوها في بعض المِحَن، ولكنّهم ما مسّوا الفتن، فهي مُنْتِنَة، فلقد كانت نظرتهم إلى أنّ وحدة اللغة من وحدة الفكر، ويعني وحدة المصير، وعاملوا اللغة العربية بميزة خاصة، لارتباطها بالوحي، فالعربية توصلنا بماضينا وبتراثنا الديني، وتعلّم/تعليم العربية يعني التقرّب إلى الله. وإنّ عمر تزاوج اللغة العربية واللهجات الأمازيغية يزيد عن أربعة عشر قرناً (14) وذلك منذ أن حلّت اللغة العربية محلّ اللاتينية، فلقد

عمل الرستميون والحماديون في بجاية والزيانيون في تلمسان على تجسيد **العربية لغة رسمية، والاحتفاظ بالأمازيغيات لغات وظيفية في شؤونها الخاصة**. كما أنّ اللهجات ليست ملكاً للناطقين بها، بل هي ثروة لتراثنا المتعدّد المصادر، وهكذا يكون التراث اللهجي رصيداً مشتركاً للمجتمع الجزائري كلّه، ينبغي المحافظة عليه وترقيته بما يخدم وحدة الشعب الجزائري وإثراء الثقافة الوطنية، والبعد عن رواسب الدونية التي تلصق على هذا التراث. ويتجسّد هذا التعايش والتكامل في كثير من المحطات، ويبقى الاحتكام إلى محتويات الأدب الشعبي مثلاً، فنجد ثقافة واحدة؛ تؤدّى بلغات مختلفة، فهذه بقرة اليتامى، هي ذاتها في فكر الشعب الجزائري، والحديث عن شجاعة علي بن أبي طالب، وتغريبة بني هلال، نجدها
في مناطق القبائل كما هي في مناطق الجزائر عامة، كذلك قداسة الأولياء والصالحين هي واحدة، واحترام شيوخ المساجد والزوايا وأهازيج وأحاجي الجدات واحدة. وبذا نعرف أنّ المثاقفة اللغوية لها بعد عميق في التاريخ، وتفاعل إيجابي منذ الفتوحات الإسلامية، ويعدّ ابن تومرت نموذجاً لذلك، وانظر ذلك في كتاب (أعزّ ما يطلب) ومن هنا يجب الإقرار بمجتمع واحد ذي التوجّهات المتعدّدة، وهو التعايش في ظلّ التعدّد، وقبول الآخر كما هو، فأنت تقبل بي كما أنا، وأقبل بك كما أنت En tant que tel. وأعود لتأكيد مسألة الحوار الذي كان يجب أن يسود في مسألة السياسة اللغوية، أو في قضايا التهيئة اللغوية، وهذا الحوار تكون مرجعيته الثوابت الوطنية، ومواثيق الحركات الوطنية، والأبعاد الكبرى لتراثنا وحضارتنا المعاصرة.

نحن الأمازيغ الشعب الجزائري العربي المسلم المغاربي الإفريقي الذي ينشد الحرية منذ وجوده على الأرض، وقد شحّنته مختلف الأزمات بالثورات ضد الظلم، مرّ بحقب تاريخية متسلسلة، بدءاً من العهد النوميدي الفاخر، إلى العهد الروماني والوندالي البيزنطي الماكر، وإلى العهد الإسلامي الباهر وإلى العهد الفرنسي المدمّر، وإلى عهد ثورة نوفمبر والاستقلال الزاهر.

2- الازدواجية اللغوية والتداخل اللغوي

إنّ التداخل اللغوي ظاهرة طبيعية في كلّ اللغات وهي سنّة التأثير والتأثّر، أو سلوك لغوي عادي يُمارس على مستوى احتكاك اللغات تعبيراً عن التفاعل الاجتماعي Interaction. ولقد عالج العرب هذه الظاهرة بعد الفتوحات الإسلامية، وفي مرحلة التدوين، حيث أخضعوا العربية لمقاييس صارمة حفاظاً على نقائها. وفي تلك الفترة بدأ الحديث عن السليقة اللغوية وعن البيئة الزمانية والمكانية للصفاء اللغوي. ومع ذلك ظهر الحديث عن اللفظ **الدخيل**؛ أو اللفظ **غير العربي**، **والمولّد**، **والمعرّب**، **والاقتراض** Empruntt **والاقتباس** Citation، وهذا لعدّة عوامل، ومن أهمّها:

ـ ***العامل الديني:*** وهو أقوى العوامل كونه مرتبطاً بظاهرة دينية يجعل التأثير يقع في اتّجاه واحد وتطغى الوحدات اللغوية الحاملة لمضامين الدين بشكل ملفت للانتباه. وفي هذا المجال استطاعت اللغة العربية اقتحام لغات كثيرة عن طريق توظيف المصطلحات ذات الصلة بميدان الدين، ونجم عن ذلك أن أثّرت بشكل كبير على لغة البلاد التي وقع فتحها. فبعض البلدان حافظت على الدين الإسلامي ورفضت اللغة العربية، وبذلك بقي الدين، وعادت العربية، وبعض البلدان استطاعت فيه أن

تبقي الدين واللغة معاً، مثل ما هو الحال في بلدان شمال إفريقيا. ولما كان الحال كذلك لابدّ أن ينتج تداخل لغوي متميز.

ـ ***عامل الهجرة***: يحدث هذا في التجمّعات السكانية المختلطة، ممّا يجعل كلّ مهاجر حاملا للغة وللثقافة الأصلية، فيحصل الاندماج بينها لتشكّل ميتروبولاً لغوياً وهجيناً ثقافياً. وهذا العامل نعيشه يومياً وفي كثير من البلدان التي ينتقل إليها المهاجرون، وعن طريق تلك التجمّعات يشكّلون جاليات لغوية متخصّصة، بحيث يمزجون بين تكلّماتهم لتشكيل لغة جديدة، بعيدة عن اللغة التي اشتقت منها الكلمات. وهذا ما يسميه اللغويون **بالهجين اللغوي**.

التداخل اللغوي: مصطلح حديث ظهر مع الدراسات اللسانية الحديثة Interférence ويعنُون به مختلف أشكال الاحتكاكات اللغوية؛ أي كلّ أشكال المزج بين اللغات سواء على مستوى الألفاظ المفردة، أو على مستوى التراكيب والأساليب. وأخذ المصطلحات التالية:

1- التداخل: **تبادل التأثير أو التبادل المعرفي بين لغتين: لغة أ في لغة ب/ لغة ب في لغة أ. وهنا يكون الاتّجاه متبادلاً، وهو اتّجاه الفرد إلى استعمال لفظة لغة وإدخالها في لغة أخرى بشرط وجود اللغتين في عقل المتكلم بإنتاج أحدهما نطقاً أو كتابة. ويحدث عند الثنائي اللغة، بحيث يعمل على اختيار اللغة دون لغة تتحكّمه مواقف معيّنة أثناء حديثه Le choix du code.**

2- التدخّل: **يكون في اتّجاه واحد فقط، وعادة هنا يكون في تأثير لغة القوي على الضعيف، لغة المستعمِر في لغة المستعمَر، أي اتّجاه أحادي: لغة أ في لغة ب فقط. أ في ب وينجم عن هذين**

المصطلحين تأثير لغة في لغة أخرى، وتكون الغلبة لحساب أحدهما بناءً على مجموعة من العوامل، وهي:

- **العامل الديني: فاللغة التي تحمل الدين لها الغلبة في توظيف مصطلحاتها.**
- **العامل العلمي: فاللغة العلمية؛ والتي تحمل الإبداع لا شكّ أنّ لها تأثيراً في اللغة التي لا تحمل العلم فهي تنقل وتستقبل دون مناقشة.**
- **عامل القوة: وهنا تتبادر إلى ذهني مقولة ابن خلدون المغلوب مولع بلغة الغالب؛ حيث إنّ المستعمر مثلاً يفرض أنماطاً وسلوكات لغوية في ذهن المستعمِر الذي هو في موقف الأضعف، فكما يخضع للمستعمَر في التحكّم في بلده، كذلك ينساق له في لغته. وهذا من طبيعة وثقافة المستعمر الفرنسي بالخصوص.**
- **العامل الذاتي: وهذا موجود على مستوى الشعوب المستعمَرة في الغالب، فقد يحصل الصراع بين الطبقة المثقفة التي تنتصر أحياناً للغة لصالح لغة، فبحكم النخبة أو بحكم الذهنيات الموروثة فيحصل أن تميل إلى صالح اللغات الأجنبية. وفي هذا العامل يتدخّل عامل ولاء الأمازيغ للعرب، وهو ولاء إسلام وحلف وجوار؛ حيث نتج في أصله عن حاجة مشتركة بين الطرفين إلى الاعتزاز والاحتماء رغبة في نيل شرف الالتحاق بالعرب والنسب العربي.**

وإذا سلطنا هذه العوامل على واقع المغرب، نجد الازدواجية والتداخل اللغوي تمثّلا بشكل قوي؛ حيث كانت لغة البيت

الأمازيغية وهي لغة غير عالمة، والعربية لغة جديدة عالمة حاملة للدين الإسلامي، لا شكّ أنّه يحصل لها الولاء الطوعي، فتكون الغلبة لها، وتبقى الازدواجية ممثلة في لسانه وتختصّ كلّ لغة بوظيفة تهمّها.

عمل التعايش الاجتماعي للغتين على تمتين الروابط اللغوية إلى حدّ الاستئناس الاجتماعي المتصاهر فلم تحصل الهجرات إلى الغرب في الأزمات، بل إلى المشرق؛ حيث الحضارة الشرقية الجامعة. ونعرف أنّ عامل الدين كان السبب المباشر للتأثير الذي حدث بين العربية والأمازيغية، وتلاه مختلف أشكال التلاحم بين الشعبين من مثل التصاهر والهجرات والرحلات، وأشكال التواصل، ولقد كان ذلك سبباً في أن تتأثر الأمازيغية بشكل كبير، باعتبارها لغة تستقبل ولا تعطي، نتيجة العامل الديني. ويقرّ الباحث سالم شاكر بأنّ القبائلية بالخصوص، تأثّرت بشكل ملفت للنظر في مستوى الوحدات الإفرادية تصل إلى 49 % من الدخيل العربي، وهناك من يرى أنّ النّسبة تصل إلى 65 %. هذا بالنسبة للقبائلية التي تعيش في عزلة عن التأثير، ويتمثّل ذلك في محافظتها على أصول الأمازيغية مثل الترقية، فكيف الحال بالنسبة للهجات الأمازيغية الأخرى التي عُرّبت تقريباً. وهناك من يعزو أسباب الاحتكاك اللغوي السهل، والتأثير بين اللغتين، وبقاء العربية في شمال إفريقيا ـ عكس ما وجد في بلاد فارس والترك وكثير من المناطق التي دخلها الإسلام ـ إلى أنّ اللغتين من شجرة واحدة، وأنّ الأصول الأولى لسكان شمال إفريقيا من اليمن، أو من أصول مصرية وعربية صحيحة، فهم العرب الأقحاح. وتبقى هذه النظرية تحتاج إلى بحوث معمّقة. ولكن أظهرت الدراسات اللغوية أنّ هناك تقارباً في:

- أزمنة الأفعال: ماضي ومضارع وأمر.
- الوحدات اللغوية الإفرادية وعلى مستوى الأساليب.
- قرابة النفي بين الدارجة والأمازيغية في استعمالهما للشين.
- استعمال الهمزات في الأفعال.
- **النسب الحامي.**
- **القرابة الجغرافية.**
- **القرابة الاجتماعية**[7].
- **القرابة النطقية.**
- **المتن اللغوي في اللغتين ثلاثي.**
- **عدد الحروف.**
- **قلّة الحركات في اللغتين.**

ويجدر بي في هذا المقام توضيح العلاقة أو القرابة بين الجملة الاسمية في الأمازيغية (القبائلية) والجملة الاسمية في العربية، وهذا من باب التمثيل لا غير. لا نسرف كثيراً في مسألة الجملة الاسمية في اللغة العربية التي نالت القسط الوافي من التقعيد الممتاز نتيجة البحث الكثير في قضايا اللغة العربية؛ بدءاً من سيبويه الذي استعمل مصطلح **الجملة في صيغة الجمع**، وقصد به الجملة. ونجد في القبائلية من يتحدّث عن أجزاءِ الجملة لا عن الجملة، فمصطلح الجملة استعمله مولود معمري في كتابه: Tajrrumt ntmaziYt بهذه التسمية: Tawinest. فبالنسبة للجملة الاسمية نجد من يطلق عليها مصطلح الجملة الفعلية مثل André Basset La phrase non-verbale، وهناك من يطلق عليها الجملة الاسمية مثل: H Gazelles بمصطلح La phrase nominale.
وهي الصورة اللفظية للكلام المفيد في أيّة لغة، بمعنى إنّها المركب الذي يبين المتكلّم به أن صورة ذهنية كانت قد تألفت أجزاؤها في ذهنه،

وتتألّف من مسند ومسند إليه، وبينهما الربط الإسنادي الذهني، باعتبار أنّ الإسناد عملية ذهنية تعمل على ربط المسند بالمسند إليه. وهي التي تبتدئ بالاسم، أو التي صدرها اسم، يدلّ فيها المسند على الدوام. وبذا تكون الجملة في القبائلية تتمثّل في ذلك التركيب الذي يتوفّر على عملية الإسناد، وهذا ما نجده بالتمام في اللغة العربية.

وعلى العموم فبالتركيز على عامل التأثير بين العربية والقبائلية أشير هنا إلى استنطاقي لأعمال وأبحاث أكاديمية أُنجزت في هذا المجال، فمنها دراسات غربية، ومنها أبحاث ميدانية تمّت بإشرافي[8] تشير إلى القاسم المشترك بين اللغتين، وبعضها تشير إلى عامل التأثير والتأثر، وهذا بالعودة إلى مدوّنة تمّت بإشرافي، وقد خلصت إلى:

- **التأثير يحدث بشكل كبير في اتّجاه واحد عربية في قبائلية.**
- **هناك تأثير قوالب عربية دخلت في جسم القبائلية فأصبحت منها، مثل: غسالة النوادر/ ما ناكلْ لبصلْ ما نحصلْ/ اللي خافْ اسلمْ/ طريق العافية لاشتى تدور/ اضربوا على التبن يَنسَى الحبْ/ جا يسعى ودّر تسعة/ كُل خنفوس عند يماه غُزال/ ما نعرفك ما تعرفني/ اكحل الراس أكويه لا تداويه/ اللّي في القْدرة يجيبوا المزود/ اقصد البيت لكبير إذا ما كليتش تدفى...**
- **تتداخل مجموعة من العوامل في ميل الخطاب إلى توظيف لغة أكثر من الأخرى، من مثل: الأرضية المعرفية للمتحدّث. المقام، الحال، والمقام. من يوجّه إليهم الخطاب... وهنا تحضرني تلك الأفعال التي يقوم بها المتحدث أثناء الانتقال اللغوي الذي يحدثه عند تدخل عناصر أجنبية عن الموضوع، فمثلاً يكون المتحدّث يلقي كلامه بالقبائلية، فعند إحساسه بسوء التبليغ أو وجود عناصر**

لا تتقن تلك اللغة ينتقل فجأة إلى اللغة الثانية وهي العربية، وهذا مراعاة للمقام والظروف المحيطة به.

• المغلوب مولع بلغة الغالب: وهذا ما تفرضه اللغة المنتجة، ويمكن أن نمثّل لذلك من اللغة الإنجليزية الآن التي فرضت أساليب ومفردات على كثير من اللغات: Week-end- How are You- Business is the business- Hello.

• الغالب مولع بلغة المغلوب: وهذا قليل جداً، ويتمثّل في بعض الوحدات اللغوية الإفرادية من مثل: ذاين/ أسلوْلَوْ/ نانا/ أسليغ/ أويد/ أمان... وإن كان هذا الأخير يظهر على مستوى كلام الاستئناس أو الكلام العادي الذي لا يحمل الانقباض وفيه لا يتكلّف المتحدّث، وهنا يوظّف أنماط القبائلية توظيفاً لا شعورياً.

سياقات التأثير: لكلّ سياق له خطابه وتأثيره النسبي، كما أنّ لكلّ مقام لغته التي يوظّفها في التواصل، وهذا توضيح في السياقات التي عالجناها:

– مقام الحزن: تطغى عليه العربية: والله/ أقسم بالله/ الركعة/ الجامع/ التراويح.

– مقام الفلاحة: تطغى فيه القبائلية. وبالخصوص في مسألة الأسماء، فنجد أنّ معظم أسماء الحشائش أمازيغية صرفة، مثل: مريوث/ تالمة/ ثاغديوث/ ثيغيغيت...

– مقام الفرح أو الأعراس: يميل إلى الصفاء. ولكن هذا الصفاء نجده تقريباً في الريف، ومع التداخل والتصاهر والقنوات الفضائية، لم يبق مكان للصفاء اللغوي في القبائلية، بحيث نجد تداخل العربية والفرنسية في بعض مقامات الفرح، وهذا لموت الأمهات اللائي يُجدن فنّ أداء الأغاني

القديمة. وأما الآن فقد أدخلت السوفطات القبائلية في عصر آخر، وهو التمازج الكثير بين العربية والقبائلية.

– سياق الحديث العام: وهنا يحصل الخلط كثيراً بين العربية والفرنسية والقبائلية، وهذا حسب ميل سياق الخطاب. فإن كان يدور في السياسة فإنّه يميل إلى طغيان الفرنسية، وإن كان يميل إلى العادات أو المزح فيميل إلى القبائلية، وإن كان يتّجه إلى التجارة فتطغى عليه العربية.

– سياق السوق: يكثر فيه الدخيل العربي.

– السياق الرسمي والاجتماعات: تطغى فيه الفرنسية. وهو المقام الذي تغيب فيه العربية عن التوظيف، وهذا له مسبباته الخاصة.

– سياق البيت: تطغى فيه الفرنسية، وخاصة في ألفاظ الارتفاق (ألفاظ البيت) والقبائلية محدودة. بحيث لا تشكل ألفاظ القبائلية رصيداً علمياً في هذا المجال، ومن هنا يلجأ إلى توظيف الفرنسية أو العربية في أحايين ضيّقة.

العلاج: إنّ هذه الاحتكاكات اللغوية تشكل ظاهرة لغوية عجيبة، لا يمكن التحكّم فيها، كما تحمل مفارقات يصعب توجيهها، أو التخطيط لها؛ بحيث تنجم عنها أنماط جديدة، بحكم أنّ أشكال التعبير متنوّعة: خط/ سينما/ مسرح/ قصة/ رواية. مونولوج/ كلام عادي... وهذه الأشكال في التعبير العام شفاهية تتغيّر بسرعة، بتغيّر أحوال المجتمع وحسب تفاعلاته، وتأخذ نمط المجتمع الذي أحدثها. ومن هنا فإنّه يجب:

1- الاهتمام باللغة اليومية، ومحاولة الرقي بها.
2- تكافؤ لغة الإعلام والاتّصال باللغة العادية المبسطة.
3- التقريب بين المكتوب والمنطوق.
4- علاج قصر طرائق تبليغ العربية.
5- الاهتمام تربوياً وإعلامياً باللغات المحلية.

3- المطالبة الثقافية والتعددية اللغوية في البلاد المغاربية

أحبّذ أن أسمي هذا الفصل **بالمواطنة اللغوية Citoyenneté linguistique**، فمن يستجلي الواقع اللغوي في الجزائر يسمع الجزائريين يتواصلون بأربع لغات وبدرجات متفاوتة لكلّ واحدة، وتُظهر الدراسات اللسانية أنّ لهذه اللغات بنيات صوتية وصرفية وتركيبية ومعجمية، تجعل منها أنظمة تواصلية مختلفة بعضها عن بعض، كما يظهر الواقع أنّ أدبيات المجال الثقافي متنوّع، فمظهر التعدّدية تتجلّى في مختلف الميادين وعلى مستوى مناطق الوطن، حيث لكلّ جهة تراثها، وكلّ جهة تقوم اللغات واللهجات الجهوية والمحلية كأدوات للتواصل مع الساكنة المحلية، وهذه سمة ترسّخت منذ دخول الفاتحين شمال إفريقيا فكانت التعدّدية اللسانية ممارسة وسلوكاً، تجيء وتسير بصورة عفوية ودون عقبات، وأبرز مثال على ذلك عهد الموحدين؛ حيث التعدّدية كانت بارزة في إلقاء دروس الوعظ والخطب وفي حلقات الجوامع وما أكثر علمائنا الذين تجمّعت فيهم عبقرية الامتزاج اللغوي والانصهار العرقي، فهذا أبو الربيع سليمان الموحدي له ديوان شعري، وتذكر الترجمات أنّ بلاغته واقتداره في العربية تساوي اقتداره في الأمازيغية.

1-3- وضعية قانون تعميم استعمال اللغة العربية تجاه الأمازيغية: إنّ قانون تعميم استعمال اللغة العربية الصادر سنة 1991 لا ينفي وطننة الأمازيغية، ولا يتعارض مع قانون تعميم استعمال اللغة العربية مع تأسيس المحافظة السامية للأمازيغية عام 1995، ولا نجد في قانون تعميم استعمال اللغة العربية ما يصنّف الأمازيغية من أنّها لغة أجنبية. وإنّ الإثراء والتكامل بين العربية والأمازيغية سهل متى توفّرت النيّة وينبغي أن يكون بعيداً عن وصاية أية لغة أجنبية. هناك سبعة مراسيم لتنظيم اللغة العربية، وهذا شيء جيّد، وهناك مرسوم واحد ينصّ على ترسيم المحافظة السامية للأمازيغية. ونلاحظ خللاً في المواثيق التي لا تتحدّث عن اللغة الوطنية، وهذا بدءاً من بيان أول نوفمبر 1954، وما جاء في مواثيق الحكومة المؤقّتة، ودساتير 1963 و1989 و1996. إضافة إلى المواثيق الوطنية: 1964 و1976 وإلى القوانين الملزمة للتعريب من سنة 1969م إلى 1991م.

إنّ قانون تعميم استعمال اللغة العربية في فصوله الستّة، وفي مواده الاثنتين والأربعين، لم يشر إلى **اللغة الوطنية**، في الوقت الذي ورد مصطلح اللغة الأجنبية ثمان مرات، ووردت كلمة معرّبة مرة واحدة، ووردت كلمة ثنائية اللغة مرة واحدة. ومن هنا فإنّه يحتاج إلى إعادة النظر كي يظهر مقام اللغة الوطنية، ويحتاج وضعها إلى قانون صادر عن البرلمان، يحتاج إلى تفعيل من مؤسّسات الدولة، وإلى حماية مواده بتشريعات تطبيقية. وإنّه ينبغي تصحيح الوضع، والتحكّم في هذا الأمر، بمرجعية الانتماء الحضاري العربي وبالمقوّمات الكبرى للشعب الجزائري الذي هو جزء من الوطن العربي، وبالإشارة إلى البُعد الأمازيغي، كما ينبغي أن يصبح للأمازيغية نصيبها من الميزانية العامة؛ باعتبارها إرثاً وطنياً

مشتركاً، وتوضع لها المؤسّسات، وعند ذلك يمكن أن نحاسبها على الاستجابة لمتطلّبات العصر.

وأعتقد أنّ مواطنة اللغة الأمازيغية ليست منهوبة، بقدر ما نحسّ بالضم من قبل الفرنسية التي أخذت محلات اللغتين، رغم أنّ بعض الخطابات تتحامل على اللغة العربية، مقابل صمتها على **الفَرْنَسَة** La Francisation ويبدو لي أنّ المجتمع الجزائري ليس ضد اللغة الفرنسية التي هي لغة متقدّمة قياساً بالعربية، ولغة العلوم، ولكنّه ضد الهيمنة التي تزاحم بها العربية والأمازيغية، وتأخذ مساحات على حسابهما، وضد الحملات التي تشنّها على إثارة نعرات القبائل بأنّ حقوقهم اللغوية مهضومة، ولذلك تجد هذه الطروحات بعض الضعاف الذين يتبنونها، وخاصة من داخل الحركة الثقافية الأمازيغية وتسعى إلى تأجيج الصراعات اللغوية، والدفع بمشاريع التجزئة والفيدرالية إلى تحقيقها ولو بالقوّة أو بالعصيان المدني، ويجب الحذر كلّ الحذر من طرح الأمازيغية ضمن خطاب يناقض كلّ ما هو إسلامي أو عربي؛ لأنّ حقيقة الأمازيغ عبر التاريخ هم أول المدافعين عن الإسلام، وهم أول من نشر العربية في إفريقيا الشمالية ثمّ الغربية، ويقول عبد الرحمن شيبان: علينا العمل من أجل أن تكون اللغة العربية صاحبة السيادة في الجزائر، ونحرّرها من اللغة الفرنسية[9]، وعلينا أن ندرك ونبلّغ أولادنا قيمة اللغة العربية؛ هذه اللغة التي يعدّها اليهود مرجعاً أساساً لبناء لغتهم الميّتة*، وهي اللغة الثانية في الكيان الصهيوني. فعلى وزارة التربية أن تهتمّ بالعربية أيّما اهتمام، وتوليها العناية الخاصة، وتعمل على إدخال الأمازيغية بنصوصها الأصلية؛ ليسبح الطفل في منظومة منسجمة فيها اللغة الأمازيغية والعربية، وممّا يؤسف له أنّ نظم التعليم في بلادنا قصّرت مهامها على نقل المعلومات،

أي على التعليم أو التدريب على عدد من المهارات، وتناست دورها التربوي، الذي إذا لم تواكبه تربية أخلاقية وروحية لا يحصل التكامل بين جميع الأطراف، فمهمّ جداً أن تعمل كلّ الأطراف على التكامل، إلى جانب تنمية الثقافة الوطنية الداعية للتطوير، وملاحقة العصر والإشباع بالثقافة الإسلامية المرتكزة على العقيدة[10] كما نسجّل بعض الهنات التي لحقت منظومتنا التربوية في أنّها لم تحصّل وتحصّن أولادنا بتاريخنا المجيد، ولم تعطِ العامل الاجتماعي بُعْدَه الروحي، وأهملت بناء شخصية الطفل التي هي أمّ العلوم، ولا يعني هذا عدم التركيز على الثقافة المنفتحة، بل أن يكون هناك تحصين داخلي أولاً، ثمّ نترك للمتعلّم حرية النّقد والاختيار عن طريق معرفة كلّ الملابسات المتعايشة في مجتمعنا، وهذا ما يجعل عملية التعايش الثقافي تتعزّز بالروابط الإنسانية؛ باعتبارنا أمازيغ مغاربة عرباً إفريقيين متوسطيين إنسانيين. وبهذا التنوّع التكاملي والفعل الحراكي يمكن أن نعمل على تحديث التغيير في المنظومة التربوية، وسنتحوّل من صناعة الكلمات إلى صناعة الأشياء، وسنصبح أحراراً عندما نتعلّم كيف نفكّر، وسنصبح أحراراً عندما نعرف كيف نوظّف التربية، وسنصبح أحراراً عندما نوظّف العقل ونشحذ القابليات والملكات من خلال تعليم المواد الفاعلة على الثراء الفكري، والمؤدّية إلى التحليل والمنطق والفكر الرياضي؛ لأنّ وراء الثورة اللغوية العلمية يكمن التغيير.

ومن هنا أعتقد أنّ المسألة اللغوية عندنا تكون معالجتها الناجحة في إطار تطبيق مفهوم التعدّدية المندمجة؛ أي الاندماج المؤسّساتي الحامي لممارسة الحقوق اللغوية والثقافية للمجتمع، لا تطرح فيها الخيار اللغوي الأجنبي، ولا تكون لغة من اللغات محلّ تفاضل، بل التوظيف هو الذي يضع التصنيف بصورة عفوية. ومن ذلك شهدنا المعادلة البسيطة

والتكامل بين العربية والأمازيغية في التعدّدية والوحدة، أي في التفاعل الإيجابي بينهما، لكلّ منهما حقلها الخاص، وهذا قبل الاستعمار الفرنسي الذي أحلّ محلّ اللغتين لغته، وبقي ذلك الأمر في بعض أبعاده إلى الآن. ولكنّ الطرافة في المسألة اللغوية هناك تهميش لغوي ظاهر للغتين هما: **العربية والأمازيغية**، فالمواطنة الوطنية تقتضي الاهتمام باللغتين معاً ولا يجب أن تنافسهما لغة أجنبية، وهنا الخيط المفقود في اللغتين. فالعربية هُمّشت في الاستعمال وفي عدم تجسيد فعلي لتعميمها، والأمازيغية مهمّشة على كثير من الصعد، ونرى أنّ المحافظة السامية التي تأسّست سنة 1995 لم يتجدّد مجلسها العلمي، فبقيت جسداً بلا روح، وإدارة دون نتائج نوعية، ومؤخراً فقط قرّرت الدولة تأسيس أكاديمية اللغة الأمازيغية، والمجلس الأعلى، ورأينا ذلك خطوة نحو مأسسة **مواطنة** هذه اللغة، فهي خطوة جبّارة لإخراجها من دائرة التوظيف السياسي، بل خطوة جيّدة في حلّ المشاكل اللغوية أو الثقافية العالقة، فبقدر تأسيس المؤسّسات بقدر ما تترقّى اللغة أو الثقافة على وجه العموم. ونحن نعد من المتأخّرين في هذا المجال، فنعرف أنّ فرنسا وضعت أرمادة كبيرة من أجل الحفاظ وحماية اللغة الفرنسية، ولها مؤسّسات كثيرة تعمل فقط على نشرها خارج فرنسا، وأما الكتلة المادية فهي تنفق بسخاء، وفي وقت ما تأتي ميزانية وزارة الفرانكفونية في الرتبة الثانية بعد وزارة الدفاع. ويبدو لي بأنّ إقامة هاتين المؤسّستين سوف تعملان على التخفيف من التعصّب اللهجي (اللغوي) وربّما إخراج الأمازيغية من عنق الزجاجة، أو من دائرة المتاجرة بها، أو باسم استعادة الهوية اللغوية لبعض المناطق التي يقع أحياناً الغليان والهيجان الشعبي. وعلى العموم فهو شيء إيجابي، ونبارك لدولتنا هذا الفعل النبيل والعلمي. ويقيني بأنّ أقامة هاتين

المؤسّستين سوف تُحققان القضايا العلمية من مثل الأبحاث الفيلولوجية، ووضع المعاجم، وإجراء التحرّيات اللغوية، ووضع الأطالس اللغوية، وسوف يأتي الوقت الذي يحصل التنسيق مع الهيئات الأخرى (العلمية والسياسية) على مستوى الإدارة والمحيط والإعلام، إضافة إلى بعض التداخلات أحياناً في قضايا طرائق تعميم الأمازيغية في الكتاب المدرسي، أو على مستوى المحيط.

ولا يكفي هذا، بل على المؤسّستين السعي لخلق تجانس لغوي بين اللهجات الأمازيغية المتنافرة في الجزائر وفي المغرب العربي، فهي من الصعوبات التي سوف تصادفها المؤسّستان، ولا يجب أن نتصوّر سهولة المسألة، مثلما وجدت في العربية باعتبارها تحتكم إلى لغة القرآن الجامعة. فالأمازيغية الأم غير قائمة، وهي افتراضية، والآن لابدّ من البحث عن طريق الدراسات الإيتيمولوجية التي تعيد الألفاظ والأساليب إلى البداية الأولى، وهذه ليست سهلة، لكن يمكن التغلّب عليها بوضع آليات التعرّف على قِدَم أو وحداثة الكلمات أو الأساليب. والمشكلة الثانية التي سوف تبرز ما هي اللهجة الأمازيغية الأقرب إلى اللغة الأم. في الجزائر لدينا ستّ آداءات لهجية للأمازيغية. والمشكلة الثالثة إنّ الأمازيغية ليست لغة الجزائريين فقط، بل هي لغة أربعة عشر بلداً، فالوطن الافتراضي للأمازيغ من سيوا إلى جزر الكناري، ولكن لا تستعمل إلا في جزء يسير جداً من المغرب والجزائر، ونسبة المتلاغين في كلّ بلد متفاوت، وكلّ بلد كيف ينظر إلى المسألة من وجهة خاصة. ونجد في المملكة المغربية ثلاثة آداءات مختلفة، كما نجده قد نصّب الأكاديمية الأمازيغية منذ مدة، وله منهجيته التي تختلف عن منهجية الجزائر. ويضاف إلى هذا التراث الذي تحتكم إليه كلّ لهجة، وتأتي مشكلة أصعب وهي الحرف الذي تكتب به. ففي المغرب بظهير ملكي أصبحت

الأمازيغية تكتب بحروفها (التيفيناغ) وفي الجزائر الفئة التي تنادي بكتابتها بحروفها قليلة مهمّشة. والفئة التي تنادي كتابتها بالحرف العربي ليست فاعلة. والفئة الفاعلة هي تلك التي تنادي بكتابتها باللاتينية، وهي المتنفذة في الوقت الحالي، ولهم قرارهم في دواليب الدولة، وهؤلاء يرفعون شعار الحرف اللاتيني باعتباره حرفاً عالمياً سيُدخِل الأمازيغية إلى رحاب العالمية، وهو في الحقيقة كلّه رمي للحرف الأصلي والعربي لا غير، وهؤلاء لا يراعون الحدود الدنيا لاحترام هذا الشعب، ولا يحترمون خيار الأجداد. وأياً كان الأمر فإنّ الحلّ هو أنّ الحرف الذي تكتب به هو (التيفيناغ) الذي يحلّ كلّ الإشكال اللغوي، ويبعدها من الاحتواء. لأنّ كتابتها سواء بالعربية أم باللاتينية سوف يعقّد المسألة.

ولكن المسألة التي يلعب على وترها بعض الفرانكفوليين والبربريين، على أنّ العربية هي التي أخذت **مواطنة الأمازيغية**، ومن هنا يريدون رمي العربية في البحر، أو العودة بها إلى شبه الجزيرة العربية على أنّها لغة دخيلة في المجتمع الجزائري، ويتنكرّون للأرومة الواحدة للغتين؛ ويوهِمون الجهلة بأنّ الوحدة اللغوية لم تحصل إلا بفعل التجانس الذي حدث بعض دخول الفاتحين شمال أفريقيا. والحقيقة التي يراها اللسانيون أنّ الأمازيغية أخت العربية؛ ويبدؤون من معجم اللغتين، خذْ مثلاً قاموس الأمازيغية ستجد فيه 60 % من ألفاظها عربية، وإذا أجرينا دراسات مقارنة نجد تشابهاً في البنية الصرفية والدلالية، كما نجد قواسم مشتركة كثيرة في العدد والتقديم والتأخير والتنكير والتعريف والتذكير والتأنيث، والفعل والفاعل... ولذا لا يجب خلق الفروق الوهمية بين اللغتين، بقدر من يجب البحث في العلاقات اللغوية الكائنة بينهما، وهي علاقات كثيرة وطبيعية، بحكم

الأصول الواحدة. وإنّ المعجم العربي الذي وجد له امتدادات في الأمازيغية ليس ناتجاً عن الآثار العربية المرافقة للفتوحات الإسلامية، بل إلى تلك التأثيرات والتواشجات العائلية القديمة، وهذه البنيات اللغوية أقدم، وظهرت قبل الفتوحات "... فإنّ عدداً كبيراً من جذور الكلمات مشتركة بين اللغتين، كذلك الحال بالنسبة إلى الطوارقية، والحال أنّها اللغة الأقلّ تأثّراً بالغزو اللغوي العربي، ولا يتعلّق الأمر هنا بالاقتراض المتحقّق في عصر متأخر، إذ إنّ الكثير من هذه الجذور تمّ استعمالها في نفائس تعود إلى أكثر من ثمانية قرون قبل الغزو العربي[11]". ويجب أن نعلم جيّداً بأنّ للعربية مجالاتها، وللأمازيغية مجالها فالعربية مجالها لغة **علمية عالية**، والأمازيغية لها **وظائفها اليومية** الخاصة كوسيلة اتّصال على مستوى قضاء المصالح، وعلى مستوى الإعلام. وفي الحقيقة وقع تقسيم مجال اللغتين منذ دخول العربية الأوطان المغاربية، وما اشتكت الأمازيغية من العربية، وما قصّرت العربية في حقّ الأمازيغية، لكنّ الشكوى والظلم لَحِقَ اللغتين من **الفرنسية** التي عملت على إقصائهما من الاستعمال بقرارات رسمية وبالزجّ بكل من لا يقبل منطق الفَرْنَسَة. وفي هذه النقطة أستفيض قليلاً لأرفع اللبس عن المسألة.

إنّ **المطلب الهوياتي** قد يكون قاتلاً رغم عدالته، ففي هذا الوضع تبدو العربية والأمازيغية مظلومتين بنسب متفاوتة مقارنة بالفرنسية، فالفرنسية هي التي تحتلّ المواقع الحسّاسة التي يفترض أن تنالها الأمازيغية في الإعلام والمدرسة والمحيط والإدارة، والعربية لغة الدهماء، ولغة التدريس في المواد الإنسانية فقط، واللغة الرسمية في الوثائق فقط، ولكنّ المشكلة أنّ أغلب الخطاب الأمازيغي يسدّد ضرباته للعربية لا للفرنسية التي تهيمن على كلّ شيء، فغياب الحديث أو الدفاع عن العربية؛ كأنّ العربية ليست من

أرومة الأمازيغية، بل كأنّها المقصية للأمازيغية. والحقيقة أحياناً يندهش الإنسان من خطاب الأمازيغ؛ حين يتحدّثون عن الهُوية المغاربية باستبعاد العنصر العربي، وأمام هذا ما يبقى من البلاد المغاربية إلا الانسحاب من الجامعة العربية، بإنكار الانتماء الثنائي.

نحن الأمازيغ إخوان العرب حيثما قطنوا، بحكم انتمائنا إلى الأمة الإسلامية، وبحكم الأواصر التي تربطنا، وبحكم التاريخ المشترك المطبوع بالتآزر، كما نعتزّ بأمازيغيتنا، فلماذا تشويه الوقائع من قبيل اختلاق الأصول للأمازيغية، والسعي إلى تطهير الأمازيغية من كلّ الملامح التي تذكرنا بالأصول المشتركة. فإذا كانت الأمازيغية قضية عادلة، فلماذا يلطّخ شرفُ العربية، ولماذا نلمس تصاعد خطاب عنصري يستهدف فكّ الرباط الجامع بين العرب والأمازيغ، وخلق مشاكل عرقية، ولماذا نسمع الخطاب الهوياتي شتماً للعروبة، وتملّقاً للفرنسيين، وتمجيداً للفرنسية. وفرنسا التي سبق لها أن استعمرت هذه البلاد أبادت أهلها، وما سمحت للأمازيغية بالاستعمال. وأظنّ من جديد أنّ القضية العادلة لا يمكن أن تستخدم لأغراض منفّرة، وأنّ الكلام الانفعالي لا يكون له الأثر المادي ولا يقابل إلا بالرفض، وأنّ الاعتداد بالأرومة تطرّف ودليل على الضعف والاحتقار.

إنّ الغلط الذي أراه هو إحلال (الفرنسية) محلّ العربية كلغة التعليم الأساسية، والتقاعس عن تعليم العلوم باللغة العربية، وإنّ إقبالنا على تعليم أولادنا اللغات الأجنبية ظانين أنّ ذلك سيقضي على ضعف مستواهم، بل لن يتمكّنوا من تطوير تفكيرهم إلا من خلال دراستهم للمواضيع إلا باللغات المحلية، كما أنّ الحلّ لا يكمن كلّه في الترجمة، وخاصة تلك الترجمات العشوائية أو التي تُحاكي النمط الأجنبي أو النقل الحرفي، وبذا لا نتصوّر تنمية حقيقة في مجتمعنا دون استعمال طبيعي

للغات القومية في مختلف القطاعات حتى تغدو جزءاً من حياتنا اليومية، وتصبح خميرة في حياة العامل البسيط والإداري والمسؤول "فمن المحال أن تنقل الأمة كلّها إلى العلم، لكن من الممكن أن تنقل العلم كلّه إلى الأمة بإتاحته لهم باللغة القومية" واستعمال العربية في كلّ المجالات لا يعني شلّ اللغات الأجنبية، بل الضرورة المعاصرة تتطلّب امتلاك لغات معاصرة، فهي مطلب حضاري لكلّ مثقف. ولكن ما موقف التلميذ عندما يتعلّم المواد الأدبية بالعربية، والمواد العلمية بالفرنسية، ألا يستنتج قصوراً في لغته، ألا يضعها تلقائياً في سلّة المهملات، ألا يرى أنّ مستقبله مرهون بالتحكّم في الفرنسية أكثر من لغته، وما الفائدة من القبض على الوهم في التصوّرات الأولية التي أبداها المتنكّرون للعربية "فلا صعوبة كتابة اللغة اليابانية أو الصينية أو الفيتنامية، ولا صغر حجم بعض الدول الأوربية، ولا فقر بعض دول آسيا ولا شحّ التراثيات في اللغة التركية، ولا موت اللغة العبرية على مدى عشرين قرناً، حالت دون أن تكون اللغة القومية هي لغة تدريس العلوم[12]".

إنّه لن ينجح الأخذ بالفرنسية أو مشروع الوصاية اللغوية على العربية، أو اللغات المحلية فنحن أمة لها تراث غني، ويعني ألا نتجاهل موروثنا العريق، دون المغالاة في اجترار ذلك الموروث بالوقوف عنده، وكأنّ ساعة الزمن توقّفت، بل علينا أن نطوّره ونتجاوزه في ضوء النظريات اللغوية الحديثة ونعيش ما يعيشه العالم من واقع يمتاز بالديناميكية وسرعة التغيّر، والتسلّح بالمفاهيم التي تؤدّي إلى قوة الإعلام، والثورة المعلوماتية والثقافية؛ لأنّنا نعيش في عالم تحكمه المعرفة والتطوّر المعرفي، وهي رأس المال القائم على الأفكار والخبرات والممارسات الأفضل، فالعربية مدعوة لمعاصرة هذه التغيّرات، والسير على

هَذْي الحداثة، كما أنّ اللغات المحلية مدعوة أن تنال حقّها في الممارسة اليومية.

إنّه من الضروري بمكان بعث **الوحدة اللغوية للجزائر في الرسميات،** مع إعادة الاعتبار لكلّ اللغات الوطنية، وتشجيع تحصيل اللغات الأجنبية، في ظلّ مجتمع المعرفة الذي يعتمد العلم مبدأً ناظماً لجماع الحياة البشرية، ولا يمنع هذا من الإقرار بأنّ اللغة العربية تواجه اليوم أبواب مجتمع المعرفة وتواجه تحدّيات قاسية وأزمة حقيقية تنظيراً وتعليماً واستخداماً، ومعالجتها آلياً بواسطة الحاسوب، ولن يحصل اللحاق بالرّكب إذا لم يقع النهوض بها من خلال نشاط بحثي ومعلوماتي جاد، من استحضار إمضاءات التراث العربي، وإدماجه في لحمة النموذج المعرفي المعاصر، وإثراء التنوّع الثقافي داخل اللغة ودعمه والاحتفاء به، والانفتاح على الثقافات الإنسانية من خلال حفز التعريب والترجمة إلى اللغات الأخرى، والاغتراف الذكي من الحضارات غير العربية. وإنّ الإسراع في نشر التكنولوجيا باللغة العربية عامل قوي من عوامل التقارب العالمي، وهدف أساس لتحقيق التنمية المستدامة، ويجب الاعتراف بأنّ اللغة القومية هي المنظار الذي من خلاله يدرك الإنسان عالمه، والعامل الحاسم الذي يشكّل من خلاله هوية الإنسان، ويضفي على المجتمع طابعه الخاص.

إنّ المحنّكين قالوا: من لا لغة له لا وطن له، فنحن بعد خمسين سنة من الاستقلال ما نزال نشهد تذبذباً وتراجعاً في المسألة اللغوية، ولم نسنّ سياسة لغوية واضحة، ولم يحن الوقت لاتّخاذ القرار النهائي في المسألة اللغوية، ولحدّ الآن لم يتجسّد رسمياً ترسيم العربية بمستلزماتها، ولم تظهر سياسة لغوية تحدّد العلاقة الجوهرية بين العربية واللغات الوطنية الأخرى، فكيف نتحدّث عن المواطنة ونحن لم نرسم المعالم الأساس للسياسة اللغوية، ولذلك نسينا

مأسسة الأمازيغية، وكأنّها ليست من الروافد المهيكلة للثقافة والهوية الجزائرية. وأما إذا تجاوزنا هذه المسألة إلى قضية الإعلام فنرى الكارثة في أنّ إعلامنا تسيطر عليه اللغة الفرنسية، بشكل قوي، فنرى الصحف المكتوبة بالفرنسية تندفع للشارع والتي يفترض أن تعمل على خدمة الأجنبي في الجزائر لا غير، نراها تخدم المواطن بلغة غير لغته وهو الذي يدفع الضريبة من أجل لغته القومية، ولكن يجد أنّ الفرنسية تستنزف ماله، فأين الحماية التي أعطاه قانون الإعلام، وأين الحماية التي نظّر لها قانون الإشهار، فشتّان بين المبدأ والممارسة.

4- الحلول اللغوية المعاصرة

إنّ التفكير يجب أن ينصب في إعادة ترتيب الأوليات، والبحث عن نسق فكري عام؛ يأخذ بعين الاعتبار ما هو مشترك، ويتجاوز العُقَد التي تشلّ المشروع الشمولي للثقافة الجزائرية. وإنّه لا يتحقّق إلا عبر مدرسة تقوم بتموين ثقافي متنوّع، وتمارس النقد الذاتي المستمر بغية الإصلاح في ظلّ مواطنة وديمقراطية حقيقية. وإنّ إصلاح التعليم سيكون ناقصاً ما لم يسبقه إصلاح لساني، يأخذ في الحسبان الأبعاد الثلاثة: البُعد الأمازيغي، والبعد الإسلامي، والبعد العربي. ويبدو لي بأنّه من الضرورة بمكان الاحتكام إلى:

4-1- الاحتكام إلى فعل الأجداد: لا نتوه كثيراً أثناء البحث في الهُوية الجزائرية فهي مستنتجة من الهُوية المغاربية التي لها امتداد تاريخي كبير تعود جذوره إلى أكثر من ثلاثة آلاف سنة، وهي الفترة الأمازيغية الموسومة بعهد ممالك البربر. وهذه الفترة كان لها ازدهار وانتكاس، ولكن الفترة التي أخرجت هذا المجتمع من الظلم والتعسّف هي فترة دخول الإسلام

هذه الأراضي، وتعود إلى الفتح الإسلامي أين ظهرت أقطاب الهُوية الوطنية في: **الأرض والحضارة واللغة والدين**. فتراتبياً تكون الأرض في المقام الأول الذي وجدت فيه الحضارة في معناها الثقافي المتراكم عبر الأجيال، إلى جانبها الدين الإسلامي؛ وهو عنصر هام قوّى الترابط الأمازيغي العربي، وتأتي اللغة العربية باعتبارها العنصر الجامع في التفكير والنظرة للمستقبل والتعايش السلمي، وباقي الأقطاب معرّضة للتطعيم والتداخل والتنامي، فلا استقرار مثلاً في مسألة الأعراق، ولا لمسألة الحضارة التي يساهم فيها كلّ جيل، وكذلك المؤسّسات التي تنتجها المجتمعات رغم أنّها تمثّل الصدى الحضاري لمجتمع ما، ويقول سيلرييه Celerier بوساطة اللغة والمؤسّسات الاجتماعية يمثل العالم البربري وحدة حقيقية روحية ولكن من الناحية المادية تتقطع هذه الوحدة، ويحلّ محلّها الصراع القبلي واختلاف المصالح المادية[13]. فنرى أنّ جاذبية الإسلام أدّت إلى انتشار العربية حبّاً فيها وفي إسلامها، وتساكنت مع الأمازيغية دون أن تقوم بتدميرها، وكان شعار السلف في ذلك: **بالعربية نمارس وجودنا الثقافي والعلمي، وبلغاتنا القومية نمارس وجودنا الفني والفكري والتخصّصي**.

2-4- التهيئة اللغوية: باعتماد أحادية اللغة في الرسميات، ولا يعني هذا إلغاء الخصوصيات التي تقرّها الأعراف اللسانية، مراعاة مسألة الازدواجية اللغوية التي هي واقع في بلادنا، وهو حقّ من الحقوق في التنوّع الثقافي داخل القطر الواحد، وقاعدة من قواعد القانون الدولي الذي تزكيه القوانين الأممية ومواثيقها، ويقرّها العرف العام، عندما تتعايش أو تتحدّد ميادين كلّ لغة من اللغات.

3-4- الأخذ في الحسبان حدود اللهجات الوطنية: وهنا يأتي دور الحديث عن الأمازيغية على أنّ الخميرة الأساس في الهوية الوطنية، حيث يقع الاهتمام بها من حيث مأسستها، وتطويعها وترقيتها عن طريق التدريس والإعلام، وتنال حصتّها من كلّ الوسائل والمستلزمات التي تخصّص لمثيلاتها. ولا بدّ أن يعود القول الفصل إلى القرار السياسي الذي يعمل المختصّون على تجسيده وفق المحددات التالية:

3-4-1- الوعي بالهُوية الوطنية: إنّه من الأهمية بمكان أن نعرف موقعنا في خريطة العالم، فمن نكون وما هي قيمة الهُوية في وقتنا المعاصر الذي تنحصر فيه مقوّمات المجتمع من لغة ودين نظراً للغزو الثقافي الكاسح من الإعلام، ومن هنا يجب الوعي بالهوية الوطنية التي يجب تسييجها تسييجاً قوياً كما تفعل الشعوب التي تهتمّ بلغتها، باعتبارها شخصيتها الداخلية ووجها الخارجي ويكفينا في هذا المقام أن نستذكر فرنسا التي وضعت الخطوط الحمراء في قضايا اللغة.

3-4-2- انتماؤنا الحضاري إلى الأمة والثقافة الشرقية: انتماء الأمازيغ إلى الشرق، فلغتهم حامية وليست لاتينية، فكان يجب إحداث قطيعة لغوية مع لغة المستعمر، أضف إلى ذلك أنّه كلّما وقعت الكتابة باللاتينية، فإنّنا أضفنا شيئاً إلى اللاتينية، ولم نضف إلى رصيدنا إلا التبعية. ولما نقول اللاتينية؛ نعني بذلك أنّنا سوف نعمل على تطوير اللغة الفرنسية، ومعنى ذلك هيمنة الفرانكفونية فهو زائد لفرنسا، ناقص في أصالتنا، وفي منظومة الحرف العربي.

3-4-3- خط التيفيناغ خير مجسّد لأصوات الأمازيغية: بعدما حصل الاعتراف بمواطنة الأمازيغية، تبقى ناقصة من حيث المبدأ، ما لم يقع الفصل لصالحها في مسألة الحرف الذي تكتب به وتبقى القضية تطرح في كلّ محفل سياسي أو علمي ما لم تعد الأمور إلى نصابها، فاختيار نوع الحرف يدخل

فيها العامل السياسي، وعامل الهُوية الوطنية. وأؤكدّ بأنّ اختيار الحرف ليس أمراً شكلياً فهو تحديد لإستراتيجية الموضع ضمن التراتبية اللسانية، فكتابتها بحروفها هو استعادتها لهُويتها وضمان لمجال واسع لمكتسبات نفوذها، وسوف يلعب حرفُها التيفيناغ/ العربي دوراً حاسماً في حقل العلاقات الرمزية المتواجدة في الجزائر.

5- الخاتمة

إذا كان قبول اللغة العربية من قبل الأجداد والأهالي طوعاً، فنحن هنا لسنا في موقع لنضع الأجداد محلّ تساؤل أو التراجع عن هذا الفِعل النبيل، فلقد قبلوها وعملوا على نشرها، وجدّدوا في كثير من قواعدها، وكان لهم الفضل أن أسبغوا عليها أنماطاً لم تكن تُعرف قبل وصولها إلى الشمال الإفريقي، وبذلك أصبحت ذاتَنا وهويتَنا، وأضحتْ امتدادَنا في الزمان والمكان، ولم تكن وافداً غريباً اقتحمَ علينا ديارنا، فسلبَ عقولنا وقلوبنا رغم أنوفنا، هي بعض منّا نعيشه منذ الطفولة وتدرّجت ألفاظها على ألسنتنا، واستقرّت في أذهاننا، وفي الوقت الحاضر أصبحت مقوّماً من مقوّمات وجودنا الإنساني؛ بها نُعرف، ونشكو، ونفرح، ونفكر، ونعبّر، ولا أرى فرقاً بينها وبين الأمازيغية التي هي لغة أمي التي أتكلّم بها في بيتي وفي قضاءِ مصالحي الشخصية، وهي جزء مني ومن وجودي فمقام اللغتين هنا ليس في المزاد أو المفاضلة، وليستا للبيع، بل مقام التفريق في الاستعمال، فلكلّ واحدة مجالها. كما أنّ الإسلام هو الوعاء الحقيقي والطبيعي لكلّ نشاط ثقافي أو سياسي يُرجى له النجاح في علاج مشكلات الأمّة، وأنّ أيّ شذوذ عن الإطار الإسلامي؛ إنّما هو تحليق خارج سِرب الأمّة، ومن هنا فإنّه لا يمكن أن نقفز فوق تاريخ الحضارة العربية الإسلامية ذات المصدر الإلهي،

فهي التي أقامت لنا كيانَنا الحرّ، والإسلام لم يحارب الهُويات أو اللغات، بل طرد الوثنية، وفتح للمسلمين باب البحث عن اختيار حرّ. كما أنّ الإسلام علّمنا التمسّك بالإنيّة التي تعطي مستوى النديّة، وأنّ التوازن الذي يعيشه الإنسان الجزائري؛ توازن الإسلام وقيمه، والانفتاح الرحب على الحضارات واللغات.

لا أطرح على القارئ خطابَ وعظ، وإنّما أردت تأكيد قضايا خطيرة نسمعها ونعيشها، ونظراً لخطورة ما يمكن أن ينتج من مساوئ تهزّ العلاقات بين الأفراد داخل المنظومة الاجتماعية الجزائرية الواحدة، وكان علينا العمل على تقديم النصيحة والتوعية، وبالخصوص لشبابنا الطافح الطامح، وأرى ضرورة التزام فقه الدعوة، إلى جانب وقفة جادة تعيد الأمور إلى نصابها، وتضع الحدود الفاصلة بين ما يجوز البحث فيه، وما لا يجوز، وما يمكن أن نعمل على مراجعته، وما لا تجوز فيه المراجعة وهذا عملنا جميعاً؛ بدءاً من شيخ الكتّاب، وإلى معلّم المدرسة، وإلى التاجر، وإلى المسؤول، وإلى إمام المسجد، **ويزع الله بالسلطان ما لا يزع بالقرآن**[14]. وآمل أن نتعاون، ونبقي على تبادل الفضل بيننا؛ حتى يعود الوئام كما جسّده أسلافنا تجسيداً حقيقياً في المجتمع الجزائري، وهذا ليس صعباً علينا، فإنّه لا يُستعصي علينا منال؛ إذا صَدَقَتِ النياتُ، وثبتَتِ العزائمُ، وتغيّرتِ الأحوالُ.

الهوامش

1. عبد العلي الودغيري "الهوية المغربية والمشكل اللغوي" مطبوعات الأكاديمية الملكية. المغرب: 1998، عدد خاص بندوة 1997 حول (مستقبل الهوية المغربية أمام التحدّيات المعاصرة) ص 150.
2. دوزي، "تاريخ إسبانيا الإسلامية"، الترجمة العربية، ج1، ص 156.
3. أحمد عصيد، "الأمازيغية في خطاب الإسلام السياسي"، ط2. الدار البيضاء: 2000 مطبعة النجاح الجديدة منشورات مجلة تاوسنا، ص 31.
4. *Histoire de l'Espagne musulmane*. Paris : 1950 , Maisonneuve, t3, p 169
5. شكيب أرسلان، "الحلل السندسية"، بيروت: دت، مكتبة الحياة، ج3، ص 533.
6. عمّار يزلي "التعريب والجزائر، مقاربة سوسيو-تاريخية (العربية، الفرنسية الأمازيغية)" مجلة كتابات معاصرة. بيروت: 2000، المجلد الحادي عشر، العدد 42، ص 126.
7. يقول ابن خلدون: "البربر هم أبناء كنعان بن حام بن نوح عليه السلام أخ سام بتقسيم النّوع الإنساني أجدادهم مازيغ" ينظر كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر. بيروت: 1968 منشورات دار الكتاب اللبناني للطباعة والنشر، المجلد السادس، ص 184.
8. مذكرة الماجستير الموسومة: **الاحتكاك اللغوي في منطقة ذراع بن خدة**. إعداد كريمة سالمي. ورسالة الماجستير والمعنوَنة: **التداخل اللغوي في منطقة عين الحمام**. للباحثة: حياة خليفاتي. ومذكرة الماجستير للطالبة أوشيش كريمة والموسومة: **التداخل اللغوي في اللغة العربية: تدخّل العامية في الفصحى لدى تلاميذ الطور الأول**. وهناك بحث أكاديمي أنجز بإشرافي سنة 1997 وعنوانه: **التداخل اللغوي بين العربية والقبائلية – القناة الثانية نموذجاً**- ونشر على حلقات في صفحات جريدة المساء.
9. جريدة الخبر اليومي، العدد 4989، بتاريخ: 16 أفريل 2007

* إنّ اللغة العبرية انقرضت مع الحاكم بُختنصر الذي أخذ كلّ اليهود إلى العراق، وفرض عليهم لغات أخرى، وما بقي استعمالها إلا في الكنائس. ولما جاء إليعاز بن يهود إلى فلسطين سنة 1903م حرّم على نفسه وعلى عائلته التكلّم بلغات أخرى إلا العبرية، ووقعت له مشاكل مع الحاخامات الذين عابوا عليه استعمال اللغة المقّدسة في المعاملات اليومية، ومع ذلك أصرّ على تدريسها والبحث بها وفيها، وكانت مراجعه: التلمود+ التوراة+ **قاموس المحيط+ لسان العرب**. وتوفى عام 1925 وترك قاموس اللغة العبرية في تسعة أجزاء، وبهذا الفعل أحيا العبرية التي أصبحت الآن في دولة إسرائيل اللغة الرسمية، ودخلت العبرية الجامعة العبرية بقوّة، وفي مختلف العلوم.

10. ما هي الوسائل التي يجب أن تعتمد لتقويم التعليم في البلاد الإسلامية بما يجعلها تخرج من أزمة الهُوية. ولقد حدّد الأستاذ عبد الهادي بوطالب هذه الوسائل في ما يلي:

"1- ضرورة الجمع في التعليم بين النظري والعملي، فليس التعليم حشو الفكر بالمعلومات والنّظريات"،

2- إدماج برامج التعليم في الحركة التنموية،

3- شحن البرامج بالمحتويات الإيجابية،

4- استمرارية التعليم،

5- تحديد الأسس التي ينبغي أن يبنى عليها التعليم الإسلامي، والتي هي الأساس الفلسفي والاجتماعي والنفسي والمعرفي".

11. G H Bousquet, *les berbères*, P H F, 1967K p 19_ 22/

كلمة **الغزو** ترجمة حرفية من النصّ الأصلي.

12. أحمد شفيق "التنمية في مجتمع المعرفة باللغة القومية والمصطلحات" ألقيت في ملتقى مجمع اللغة العربية بدمشق حول (قضايا المصطلح العلمي) في: 9-2/ 2004.

13. ع/ عز الدين المناصرة، "الهويات والتعدّدية اللغوية"، ط1. الأردن: 2004، دار المجدلاوي للنشر والتوزيع، ص 222.

14. ابن بسام الشنتريني، "الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة"، تحقيق: إحسان عباس. تونس/ليبيا: 1975، الدار العربية للكتاب، القسم الأول، المجلّد الأول، ص 477.

بيضاء

من نشاطات
المجلس الأعلى للغة العربية

إعداد: أ. حسن بهلول

قام المجلس الأعلى للغة العربية ضمن برنامجه الذي سطره للموسم الثقافي الحالي عبر منابره الثلاثة :

- **حوار الأفكار**
- **فرسان البيان**
- **شخصية ومسار**

بعدة نشاطات توزعت بين ندوات فكرية وأمسيات شعرية وموائد مستديرة بالإضافة إلى عملية الإصدار وتنظيم مسابقة في مجال مسرح الطفل.

وسنقتصر فيما يلي على أهم هذه النشاطات التي سنشير إليها باختصار في هذا الركن، والمحصورة في الفترة مابين الدخول الاجتماعي 2007 – أفريل 2008.

* الموائد المستديرة

- تطور لغة القصة القصيرة في الجزائر

نظم المجلس الأعلى للغة العربية مائدة مستديرة حول تطور لغة القصة القصيرة في الجزائر مساء يوم 12 سبتمبر 2007 بنادي عيسى مسعودي التابع لمؤسسة الإذاعة الوطنية، شاركت فيها الأديبات:

- جميلة زنير
- عقيلة رابحي
- نسيمة بولوفة

تنشيط الدكتور عثمان بدري .

وستصدر أعمال هذه المائدة قريبا في دفتر ضمن سلسلة الجيب.

- لغة المسرح

نظم المجلس بالتعاون مع إدارة المعهد العالي لإطارات الشباب بتقصراين مساء يوم الاثنين 25 / 2 / 2008 مائدة مستديرة بعنوان : لغة المسرح شارك فيها الأساتذة:

- أ. بلقاسم نويشي، أستاذ بمعهد تقصراين
- أ. قدور زعفون، أستاذ بمعهد تقصراين
- أ. لعروسي ميسوم، أستاذ بمعهد تقصراين
- د. نور الدين عمرون، أستاذ بمعهد برج الكيفان
- إبراهيم جديدي صحفي وكاتب بالإذاعة الوطنية.

وقام بتنشيط هذه المائدة باقتدار الدكتور عثمان بدري عضو المجلس الأعلى للغة العربية سابقا وأستاذ بجامعة الجزائر. وقد حضرها عدد من طلبة المعهد المذكور ومحبو المجلس، سلط المشاركون عبرها الضوء

على لغة المسرح التي يجب أن تكون حسبهم باللغة العربية الوسطى حتى تكون رسالة المسرح مفهومة أكثر، ولطالما عانت جل الأقطار العربية من عدم فهم المسرحيات بالدارجة رغم أهمية نصوصها، مما يجعل الاتجاه إلى اللغة الوسطى في التآليف المسرحية أمرا ضروريا، سيما وأن المسرح يعد أبو الفنون.

هذا ونشير إلى أن العروض التي قدمها الأساتذة المشاركون انصبت كلها على هموم المسرح بصفة عامة ولغته التي يجب أن تسود أعماله بصفة خاصة، ومنوهة في نفس الوقت بهذه المبادرة التي ستعود فائدتها على نشر وتطوير العربية في الجزائر.

- الشعر الغنائي في نشر اللغة العربية

نظم المجلس الأعلى للغة العربية بثانوية حسيبة بن بوعلي مساء يوم الاثنين 11 فيفري 2008 أمسية شعرية بعنوان: الشعر الغنائي في نشر اللغة العربية وإذكاء الروح الوطنية أحياها كل من الشعراء والشاعرة: سليمان جوادي مدير الثقافة لولاية الطارف، ورشيدة خوازم، فؤاد ومان عن مؤسسة التلفزيون، نصر الدين باكرية عن الإذاعة الوطنية، حسين عبروس وتنشيط الشاعر مراد بوشحيط.

وهدف هذه الأمسية إعطاء أهمية للشعر الغنائي باللغة العربية الوسطى باعتباره أداة فعالة لنشر اللغة العربية الوسطى وعامل إذكاء للروح الوطنية لدى شريحة الشباب يصفة خاصة، وقد لقيت هذه الأمسية استحسان الحضور الذي كان مكثفا.

هذا والجدير بالذكر أن المناقشة التي جرت خلال هذه الأمسية لاحظت بأن معظم القنوات والفضائيات العربية تكرس الأغنية السوقية

التي تفسد الأذواق وتروج للغة العربية الهجينة على حساب اللغة العربية الوسطى، اللغة الموحدة لكل الأقطار العربية.

- ***حول تقديم دليل المحادثة الطبية*** *(عربي – فرنسي)*

لقد تم إعداد كتاب دليل المحادثة الطبية عربي فرنسي من قبل مجموعة من الأساتذة في الطب واللسانيات بقيادة معالي الأستاذ سعيد شيبان بعد جهود مضنية دامت أكثر من سنة من البحث والنقاش والمراجعة.

ولأجل تسليط الضوء على محتوى هذا الكتاب القيم عقد المجلس حوله مائدة مستديرة بفندق الأوراسي أمسية الاثنين 31مارس 2008 شارك فيها الدكاترة، قماري، عتيق اسطنبولي فضيلة بوعمران، وتنشيط الدكتور سعيد شيبان.

ولرب سائل أن يسأل لماذا أعد المجلس هذا الدليل وما الغرض منه؟

طبعا الإجابة سهلة وبسيطة حيث أن المجلس لاحظ أن لغة التخاطب التي تتم بين الطبيب والمريض غالبا ما تجري بلغة فرنسية معقدة، وباصطلاحات طبية يعجز المريض العادي عن فهمها، وبالتالي يغيب التفاهم بين الطرفين الذي يعد حجر الزاوية في فاعلية ونجاعة العلاج، ولهذا فكر المجلس في إيجاد علاج لهذه المعضلة عن طريق تشكيل مجموعة عمل متخصصة من الأطباء واللسانيين الذين توصلوا إلى تأليف دليل المحادثة الطبية، سهل الفهم للاستعانة به عند العلاج.

ومن دون شك فإن هذا الدليل سيقطع الطريق أمام من يرمي اللغة العربية بالعجز، والقصور عن مواكبة التطورات العلمية والتكنولوجية.

وعودة إلى هذا الدليل فإننا نجد أنه يحتوي على 260صفحة من الحجم المتوسط، منها 132 صفحة تقع في باب المساءلة، ومعجم ـ فرنسي ـ انجليزي ـ عربي مرتب ترتيبا ألف بائيا يقع في 62 صفحة، وملحقات

للغة العربية

تضم رسومات مختلفة للجسم ونماذج للشهادات الطبية والمراكز الاستشفائية الوطنية تقع في 56 صفحة.

وعموما فإن هذا الدليل سيكون مرجعا أساسيا للطبيب والمريض معا لكي تتم عملية التخاطب بينهما بلغة عربية مفهومة تيسيرا لعملية العلاج.

*** الندوات**

نظم المجلس الأعلى للغة العربية بالاشتراك مع وزارة الثقافة وضمن تظاهرة الجزائر عاصمة الثقافة العربية 2007 ثلاث ندوات فكرية وعلمية نوردها فيما يلي:

الندوة الدولية الموسومة "الفصحى وعامياتها العربية": لغة التخاطب بين التقريب والتهذيب شارك فيها عدد هام من الأساتذة الجامعيين من الدول العربية الشقيقة الذين أجمعوا على ضرورة التمكين للغة العربية لتتبوأ مكانتها اللائقة بها في مختلف مجالات الحياة والسعي إلى تهذيب العاميات واللهجات المنتشرة في العالم العربي وصولا إلى تقريبها من اللغة العربية الفصحى.

هذا ... والجدير بالذكر أن هذه الندوة قد جرت فعالياتها بفندق الأوراسي يومي 4-5 /2007/6 ، وانصبت أشغالها حول تقريب العاميات من فصحاها لتوحيدها على نطاق واسع، وللرفع من مستواها وجعلها لحمة بين أهلها أيا كانوا...

وفيما يلي خلاصة أشغال هذه الندوة وأسماء المكرمين على هامشها وكذا التوصيات التي انبثقت عنها واللائحة الموجهة لفخامة رئيس الجمهورية للتنويه برعايته السامية لهذه الندوة.

خلاصة الندوة

في يومي الثامن عشر والتاسع عشر من عام 1428 هـ، الموافق الرابع والخامس يونيو 2007، وتحت الرعاية السامية لفخامة رئيس الجمهورية السيد عبد العزيز بوتفليقة، وضمن فعاليات الجزائر عاصمة للثقافة العربية نظم المجلس الأعلى للغة العربية ووزارة الثقافة ندوة دولية موضوعها: الفصحى وعامياتها: "لغة التخاطب بين التقريب والتهذيب"

بعد الاستماع إلى النشيد الوطني، قدم رئيس المجلس موضوع الندوة وأهدافها حيث رحب بالضيوف من أشقاء وأصدقاء، مشيرا إلى مكانة اللغة العربية في الهوية الوطنية، وهوية الأمة العربية والإسلامية، باعتبارها لغة القرآن الكريم واللغة الرسمية لكل البلدان العربية مشرقا ومغربا.

ثم ألقت وزيرة الثقافة كلمة الافتتاح منوهة بجهود المجلس وبالأعمال التي يقوم بها، شاكرة الحضور على المساهمة والاهتمام بموضوع الندوة الهام الذي يدخل في صميم انشغالات الدول العربية، ومعلنة عن الافتتاح الرسمي لأشغال الندوة.

بعد ذلك، تناول الكلمة كل من ممثل السيد: الأمين العام لجامعة الدول العربية والممثل الشخصي للسيد المدير العام للمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ، حيث تقدما بالشكر والعرفان للمجلس ووزارة الثقافة ومن خلالهما إلى الشعب الجزائري شعبا وحكومة وعلى رأسها فخامة رئيس الجمهورية السيد عبد العزيز بوتفليقة، على حفاوة الاستقبال وكرم الضيافة وعلى حسن اختيار الموضوع في الوقت الراهن إذ أصبحت العاميات والتهجين اللغوي من السمات المميزة للشارع العربي، ولاسيما في وسائل الإعلام.

للغة العربية

تكريم نخبة من المفكرين

وقبل انطلاق الجلسة العلمية الأولى، خص رئيس المجلس الأعلى للغة العربية ووزيرة الثقافة نخبة من المثقفين الجزائريين الذين خدموا الوطن والعربية وثقافتها بتكريم رمزي للسيدة والسادة:

- فضيلة الشيخ عبد الرحمن الجيلالي
- فضيلة الشيخ عبد الرحمن شيبان
- الأستاذ عبد الحميد مهري
- الأستاذ الدكتور عبد الله شريط
- الأستاذة زهور ونيسي

تقرير لجنة الصياغة

إن أعضاء لجنة الصياغة وبعد دراسة مستفيضة للمداخلات والمحاضرات والتعقيبات التي ميزت الجلسات العلمية الخمس، وما دار في الورشتين:

1 - الوسائل السمعية البصرية في ضوء الفصحى والعامية،

2 - والإنتاج الأدبي والفني، أهو عامل وحدة أم فرقة ؟، من نقاش مثمر وحوار بناء، فإنهم يتقدمون بما يلي:

يتشرف المشاركون في الندوة الدولية: الفصحى وعامياتها، بأن يوجهوا شكرهم وتقديرهم الخالصين إلى *فخامة رئيس الجمهورية السيد: عبد العزيز بوتفليقة*، الذي أسبغ رعايته السامية على الندوة، وهو أول مسؤول دولة دق ناقوس خطر التهجين الذي أعترى اللغة في أكثر من موقف ومناسبة.

وقد أسعد المشاركين حضور *معالي رئيس الحكومة السيد: عبد العزيز بلخادم* جانبا من أشغال الندوة تعبيرا منه عن اهتمامه بموضوعها وتقديرا للمشاركين فيها.

ويتقدم المشاركون في الندوة بخالص الشكر والامتنان إلى *السيدة: وزيرة الثقافة وإلى السيد: رئيس المجلس الأعلى للغة العربية* على سهرهما على إنجاح

هذه الندوة العلمية، كما يحيون كلا من معالي الأمين العام لجامعة الدول العربية، *ومعالي المدير العام للمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم* على إيفاد ممثلين عنهما للمشاركة الفعلية في أشغال الندوة ويوصي المشاركون بضرورة تقديم المجلس للتوصيات والاقتراحات المنبثقة عن الندوة إلى الجهات المختصة والتي يمكن إيجازها فيما يلي:

1. تكوين الإعلاميين في الجوانب اللغوية، وفنيات التحرير.
2. اعتماد مصححين في اللغة العربية في وسائل الإعلام المسموعة والمرئية،
3. تضمين قانون الإشهار الاستخدام السليم للغة العربية مع مختلف المتعاملين والدعوة للالتزام بذلك،
4. تفضيل البرامج والأشرطة المنجزة بالعربية الفصحى وتشجيع التأليف بها كتابة وإخراجا.
5. وضع سياسة ومخطط تعتمد العربية وسيلة من وسائل التنمية البشرية.
6. وضع برامج ثقافية تعنى بالاستخدام اللغوي السليم في مختلف الفنون ولاسيما المسرح والسينما والتلفزيون، وبخاصة في الترجمة والاقتباس.
7. تنقية العربية من التهجين والتشويه اللغويين في الوسائط السمعية البصرية بتهذيب العاميات وتقريبها من الفصحى في البرامج والحصص الموجهة للفئات الشعبية.
8. تعزيز مكتسبات الطفل اللغوية عن طريق البرامج الثقافية والترفيهية، بما يساعده على استعمالها بيسر من حيث الاستيعاب والتعبير،
9. إنشاء مسابقة وطنية لنصوص درامية لتحقيق التقريب بين العامي والفصيح يتكفل المجلس الأعلى للغة العربية بتنظيمها.

من جهة أخرى صادق المشاركون في الندوة على لائحة موجهة للمؤسسات والهيئات التي ساهمت في إنجاح الندوة وفي مقدمتهم فخامة رئيس الجمهورية السيد عبد العزيز بوتفليقة.

للغة العربية

اللائحة التي صادق عليها المشاركون

بسم الله الرحمن الرحيم

نحن المشاركين في الندوة الدولية حول الفصحى وعامياتها: لغة التخاطب بين التقريب والتهذيب، المنظمة تحت الرعاية السامية لفخامة رئيس الجمهورية السيد عبد العزيز بوتفليقة، وضمن فعاليات الجزائر عاصمة للثقافة العربية 2007 من طرف المجلس الأعلى للغة العربية ووزارة الثقافة في يومي 4 و5 يونيو 2007 بفندق الأوراسي — الجزائر.

بعد الاستماع إلى كلمات الجلسة الافتتاحية المعبرة عن انشغال الهيئات والمؤسسات العربية بمستويات الخطاب في الفصحى وعامياتها في الوطن العربي بالحرص على ضرورة تضافر الجهود للرقي باستعمال العربية الفصحى في مختلف الميادين وجعلها وسيلة لنقل المعرفة في المجتمع، والعمل على تهذيب العاميات وتقريبها من الفصحى.

افتتحت الندوة معالي وزيرة الثقافة السيدة خليدة تومي بكلمة رحّبت فيها بممثلي الهيئات العربية المشاركة : جامعة الدول العربية والمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم وبالأساتذة المشاركين وبضيوف الشرف الذين حضروا الندوة، وقد نوّهت بأعمال المجلس الأعلى للعربية، فضلا عن التركيز على أهمية الندوة ومغزاها في هذا الظرف الذي تعرفه العربية، وكان قبلها رئيس المجلس قد حدد أهداف الندوة ومحاورها والآمال المعلقة على ما ينبثق عنها من اقتراحات بناءة، بالإضافة إلى هذا وتلك تدخل ممثل جامعة الدول العربية وممثل المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم بالتركيز على التنسيق فيما بين الهيئات والمؤسسات

المتخصصة للنهوض باللغة العربية وترقية استعمالها باعتبارها وسيلة للتعليم والاتصال والتواصل.

وقد شرّف الندوة دولة رئيس الحكومة السيد عبد العزيز بلخادم الذي حضر جانباً من أعمالها.

وعلى هامش أشغالها تمّ تكريم عدد من الشخصيات العلمية والثقافية البارزة، التي خدمت اللغة العربية وعلومها وثقافتها.

بعد الاستماع إلى محاضرات الأساتذة التي تميزت بطرح قضايا تتعلق بواقع العربية ومستويات الخطاب، وبمناقشات ثرية ومقاربات للراهن والمأمول، حيث ركزوا على ضرورة بقاء وتطور لغة موحدة وموحدة بهدف تأسيس مجتمع المعرفة، لغة جامعة للأقطار العربية، بغية الانسجام والتكامل، كما بينوا أن النقص الملاحظ لا يكمن في اللغة العربية في حد ذاتها، التي حفظها كتاب الله العزيز، وإنما التقصير نابع من أهلها، لذلك ينبغي العناية بالعربية المشتركة في التعليم والإعلام وفي كل وسائل التواصل مما يقربها من المستعملين ويقربهم منها.

يبارك المشاركون في الندوة التوصيات والاقتراحات التي توصلت إليها أشغال الندوة، ويوصون بالحرص على تجسيدها في الميدان بما يهذب العامية ويقربها من الفصحى في مختلف ميادين العمل، والتأكيد على تكاتف الجهود لتفعيل هذه الاقتراحات مع مختلف الهيئات والمؤسسات القطرية المتخصصة بما يضمن استثمار الجهد والوقت والمال، لتحقيق النتائج المتوخاة، ويتوجهون بالشكر والامتنان إلى معالي السيد عمرو موسى الأمين العام لجامعة الدول العربية، ومعالي السيد المنجي بوسنينة المدير العام للمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم على اهتمامهما بموضوع الندوة وبنشاطات المجلس، وإيفادهما لمثلين عن الهيئتين العربيتين.

للغة العربية

يثمن المشاركون في الندوة الرعاية السامية لفخامة رئيس الجمهورية السيد عبد العزيز بوتفليقة التي أحاط بها هذه الندوة، ويدعمون فخامته في مسعاه الرامي إلى المصالحة مع ذاتنا الحضارية بمكوناتها الثلاثة: الإسلام والعربية والأمازيغية، وإخراجها من دائرة الصراعات والمزايدات الظرفية، والتصالح مع رهانات عصرنا.

الندوة الدولية حول :
الطريق إلى مجتمع المعرفة وأهمية نشرها باللغة العربية
المنعقدة بالجزائر يومي: 13 و 14 نوفمبر 2007
اللائحة التي صادق عليها المشاركون

بسم الله الرحمن الرحيم

نحن المشاركين في الندوة الدولية: الطريق إلى مجتمع المعرفة وأهمية نشرها باللغة العربية، المنظمة تحت الرعاية السامية لفخامة رئيس الجمهورية السيد عبد العزيز بوتفليقة، وضمن فعاليات الجزائر عاصمة للثقافة العربية 2007 من طرف المجلس الأعلى للغة العربية ووزارة الثقافة في يومي 13 و 14 نوفمبر 2007 بفندق الأوراسي ـ الجزائر.

بعد الاستماع إلى الكلمة الافتتاحية لرئيس المجلس الدكتور محمد العربي ولد خليفة التي ركز فيها على أهمية الندوة وأهدافها ومحاورها ومغزاها في هذه الظروف التي تمر بها المنطقة وما ستسفر عنه الأبحاث والمناقشات من أفكار واقتراحات استشرافية والتأكيد على ضرورة بحث السبل والوسائل الكفيلة بالوصول إلى مجتمع المعرفة ونشرها باللغة العربية، والدعوة إلى ضرورة تضافر جهود العلماء والباحثين للرقي باستعمال العربية في مختلف ميادين العلوم والتكنولوجيات الحديثة مما يجعلها أداة إبداع وابتكار وقناة نقل للمعرفة العلمية وموضوعا لها لكي نضمن التواصل مع أحدث المنجزات العلمية والمعرفية لأجل مجتمعاتنا وتوطينها تمهيدا لإنتاجها في أوطاننا.

بعد الاستماع إلى محاضرات ومداخلات السادة الباحثين والأساتذة التي تميزت بالطرح العلمي الجاد لواقع التربية والتكوين والبحث العلمي والحث

للغة العربية

على رفع مردوديتها لتكون أكثر فعالية وحضورا في مجالات الإبداع والاختراع وقاطرة قوية لخدمة التنمية المستدامة.

يلاحظ المشاركون في الندوة أهمية التوصيف والتشخيص والاقتراحات التي توصلت إليها أشغال الندوة، ويوصون بالحرص على تبليغها إلى مختلف المؤسسات والهيئات الوطنية والإقليمية.

يوصي المشاركون في الندوة بضرورة تحيين مضامين التربية والتكوين باللغة العربية واعتمادها في تدريس العلوم والتكنولوجيا وتوظيفها في مختلف الوسائط الإعلامية وتشجيع ودعم الترجمة منها وإليها.

ويعتبرون أن نقل التكنولوجيا وتوطينها في وطننا العربي يتطلب توفر الآليات الكفيلة بالاستيعاب والتمثل ثم التوطين، ويستوجب هذا تفعيل الجهد العلمي العربي المشترك وإشراك الكفاءات العلمية المتواجدة في بلاد المهجر، وذلك ضمن مؤسسات جامعة الدول العربية ومراكز البحث المتخصصة لمواجهة احتكار المعرفة .

أكد المشاركون في الندوة على أن المخرج من دائرة التخلف يمر أساسا بالوعي بأن قوة الدولة من قوة مكونات مجتمعها، ولا مكانة للدولة والمجتمع إلا إذا حظيت نخب المجتمع المفكرة والمبدعة بالرعاية والاهتمام في مناخ من الحرية ببعديها التفكيري والتعبيري في ظل حكم راشد قائم على العدالة الاجتماعية ودولة القانون ومعيار الاستحقاق.

يثمن المشاركون في الندوة الرعاية السامية لفخامة رئيس الجمهورية السيد عبد العزيز بوتفليقة وتشجيعه المتواصل لمسعى المجلس الأعلى للغة العربية الرامي إلى بعث النقاش، والحوار حول القضايا التي تهم اللغة العربية لسانا ومضامين، وربطها بالتنمية.

وفي الأخير يتوجه الأساتذة والباحثون والمهتمون بخالص الشكر والامتنان إلى **السيدة وزيرة الثقافة على دعمها الاستثنائي لهذه الندوة وإلى المجلس الأعلى للغة العربية ورئيسه على التنظيم الجيد لهذا اللقاء العلمي** الهام ويقترحون أن تعقبه لقاءات علمية أخرى تضيء لنا الطريق نحو تأسيس مجتمع المعرفة وتوطينها باللغة العربية.

مقترحات الندوة

نظم المجلس العلى للغة العربية بالتنسيق مع وزارة الثقافة وفي إطار الجزائر عاصمة للثقافة العربية 2007، ندوة موضوعها: الطريق إلى مجتمع المعرفة وأهمية نشرها باللغة العربية في يومي 13 و14 نوفمبر 2007 بالجزائر، حضرها مفكرون وباحثون عرب من دول شقيقة قدمت فيها أربع عشرة محاضرة في خمس جلسات علمية توزعت على المحاور الثلاثة التالية:

ـ سمات مجتمع المعرفة وكيف يكون؟

ـ توطين المعرفة باللغة العربية

ـ كيف تنتج المعرفة وكيف توزع؟

تبعتها مناقشات اثرت ما جاء في أوراق الندوة، وخصصت أمسية اليوم الثاني لورشة عامة تنوعت فيها الرؤى وشكلت حوصلة معمقة لما دار في الجلسات العلمية، التي يمكن إيجازها في الآراء التحليلية والاستشرافية التالية:

1. التركيز على الجانب المعرفي المرتبط أساسا بالتنمية والإنسان وعدم الاقتصار على الجانب التقني باعتبار أن مجتمع المعرفة يقوم على وسائل غير مادية.
2. التأكيد على أن لا نبقى مستهلكين للوافد والموروث ظانين أن مجتمع المعرفة هو مجتمع المعلومات.

للغة العربية

3. العناية باللغة العربية باعتبارها وسيلة إبداع وابتكار ونشر للمعرفة، والطرق الأمثل لتوطينها.
4. بذل الجهد في تطوير بنية مجتمع المعرفة مثل التربية والتعليم والتكوين والبحث العلمي.
5. التأكيد على أن الوصول إلى مجتمع المعرفة ونشرها يتطلب الوصول إلى أكبر عدد من المواطنين، وهذا يتطلب بدوره تطوير اللغة العربية وتطويعها لتكون أداة للمعرفة وموضوعا لها، والعمل على استعمالها في تدريس العلوم والتكنولوجيا والاهتمام باللغات الأخرى باعتبارها روافد معرفية وليست بديلا عن العربية.
6. التأكيد على الاستثمار في القواعد المادية للمعرفة،الذي يمر باستراتيجية تعليمية وتكوينية خلاقة ، مبدعة تقر بمبدإ التكوين المستمر والتعليم المتواصل.
7. دعم البحوث التي تعنى بفعالية اللغة العربية اتصالا وتوصيلا وتشجيع ودعم الترجمة منها وإليها.
8. تعزيز التعاون بين الجامعات ومراكز البحث العلمي والمجامع اللغوية في العالم العربي في إطار مؤسسات جامعة الدول العربية أو بطريقة ثنائية أو متعددة الأطراف.
9. تشجيع روح النقد والإبداع والتجريب والثقافة العلمية في كل مراحل النظام التعليمي وتحيين مضامينه.
10. تشجيع الاستخدام الواسع للمعلوماتية، وتفعيل دور المؤسسات العلمية المتخصصة ومنظمات المجتمع المدني والاستثمار العقلاني لرأس المال العربي في ميادين البحث العلمي النظري والتطبيقي.

الندوة الدولية الموسومة

البرمجيات التطبيقية باللغة العربية
"خطوة نحو الإدارة الالكترونية"
المنعقدة يومي 9–2007/12/10

1- تحت الرعاية السامية لفخامة رئيس الجمهورية وفي إطار الجزائر عاصمة الثقافة العربية 2007 عقد المجلس بالتعاون مع وزارة الثقافة هذه الندوة بحضور عدة أساتذة في الاختصاص برمجت فيها خمس جلسات علمية.

وقد عرفت هذه الندوة نجاحا باهرا بفضل المداخلات التي ميزت أشغالها برئاسة كل من الأستاذين ابراهيم بوزوية ومحمد بطاز.

والجدير بالذكر أن السيد رئيس الحكومة عبد العزيز بلخادم قد حضر الجلسة الاختتامية وألقى كلمة قيمة بهذه المناسبة أبرز فيها أهمية الأخذ بأسباب العلم والتكنولوجيات المتقدمة في خدمة اللغة العربية. وفيما يلي:

خلاصة الندوة

فقد ركز المحاضرون والمهندسون والباحثون في هذه الندوة على مدى مسايرة اللغة العربية لتكنولوجيات الإعلام والاتصال، والوقوف على الصعوبات التي تعترض تطورها في هذا المجال واقتراح الحلول لذلك بغية تذليلها.

ونظرا لما حققته تكنولوجيا المعلوميات من تطور علي الصعيد العالمي، فإنه أصبح من الضروري وضع مخطط لخوض غمار المعلوماتية وإدماجها في ثقافتنا العامة وفي استعمالاتنا اليومية لتفتيق القدرات وتنويع الإسهامات، لمواكبة التطورات السريعة المحققة في هذا الميدان والتي أصبحت السمة الأساس لهذا العصر.

للغة العربية

ومما لا شك فيه أن الحاجة تدعونا إلى بذل أقصى الجهود وتعبئة الكفاءات ورصد الإمكانات لتدارك ما فاتنا في هذا المجال الحيوي وباللغة العربية التي لا يمكن اتهامها بالعجز والقصور، لأن العجز والقصور يعودان إلى أهلها وإلى مستعمليها.

وفي هذا السياق تأتي الندوة لتعبيد الطريق نحو إدارة إلكترونية تسهم في تقليص الفجوة الرقمية الفاصلة بين مجتمعنا والمجتمعات المتطورة، بالإضافة إلى ذلك ستقضي لا محالة على الكثير من النقائص الملاحظة على الإدارة التقليدية من حيث ترشيد التسيير وربح الوقت واقتصاد في التكاليف واستثمار للمعلومة.

وبإلقاء نظرة خاطفة وسريعة على المداخلات التي ألقيت في الندوة، نسجل ورود 15 مداخلة تناولت مواضيع ذات علاقة بالإدارة الإلكترونية وكيفيات إدخالها والاستفادة من مزاياها في مختلف المجالات، وبخاصة في المائدة المستديرة التي تطرقت إلى العوائق والحلول التي تعترض العملية ببلادنا.

وخلصت الندوة إلى تقديم توصيات علمية وتطبيقية في حالة تطبيقها ستمهد – لا محالة الطريق _ لانطلاقة واعدة لاستعمال تكنولوجيا المعلوميات ببلادنا باللغة العربية ، بهدف تقريب الإدارة من المواطن والتحكم في النفقات عن طريق الترشيد و تيسير اللغة واستعمالاتها في المجالات الحيوية لتكون لغة علم وحضارة ، لغة ناقلة للمعرفة تمهيدا لتوطينها والإبداع العلمي والتقني بها، من تلك التوصيات يمكن تسجيل ما يلي:

1. إنشاء هيئة وطنية للأبحاث المختصة في المعالجة الآلية للغة العربية يتم من خلالها التنسيق بين مختلف الجامعات ومراكز البحث للنهوض بترقية استعمال اللغة العربية واستغلال بحوثها المنجزة في تفعيل الإدارة الإلكترونية.
2- إنشاء شبكة ربط في المستوى الوطني للباحثين والعاملين والمختصين في البرمجيات التطبيقية باللغة العربية بهدف توحيد الجهود واستثمار الأعمال والابتكارات المنجزة.
3- دعم الجهود المبذولة من قبل الدولة في مجال إدخال المعلوماتية إلى مكونات المجتمع من خلال مشروع أسرتك، الذي تشرف عليه وزارة البريد وتكنولوجيات الإعلام والاتصال.
4- تشجيع استعمال المصادر المفتوحة في تطوير البرمجيات باللغة العربية والعمل على تنظيم ندوات سنوية للوقوف على مدى التطور الحاصل في هذا المجال.
5- تشجيع المبادرات المحلية في تفعيل مشروع الإدارة الإلكترونية بالجزائر.
6- وضع مخطط وطني للتكوين وتحسين المستوى في ميدان تطوير البرمجيات التطبيقية باللغة العربية للتكفل الأمثل في تجسيد مشروع الإدارة الإلكترونية ببلادنا.
7- إيجاد صيغ قانونية للشراكة فيما بين الجامعات ومراكز البحث والمؤسسات المتخصصة من القطاعين العام والخاص لإنجاح هذه المشاريع.
8- المساهمة في نشر ثقافة المعلوماتية لدى المواطن لتسريع عملية ترسيم الإدارة الإلكترونية.

للعلم فقد شرف الندوة دولت معالي رئيس الحكومة السيد: عبد العزيز بلخادم الذي أشرف على اختتام فعالياتها حيث القى كلمة متميزة بهذه المناسبة.

للغة العربية

الإصدارت

* سلسلة منشورات الجيب

1- ندوة الشعراء الشباب

إحياء اليوم الوطني للطالب. ثانوية حسيبة بن بوعلي الجزائر 2006

المشاركون

سميرة قبلي

هيثم سعد زيان

عبد العالي مزغيش

وشعراء آخرون

تنشيط الشاعر: ابراهيم صديقي مدير الأخبار بالتلفزيون

صدر في ماي 2007 تحت رقم :**21**

2- جهود أمازيغية في خدمة اللغة العربية وتراثها

الأساتذة

محمد الصغير بلعلام

محمد بوحجام

محمد أرزقي فراد

عبد الكريم بكري

تنشيط الأستاذ: عبد المجيد شيخي مدير عام الأرشيف الوطني.

صدر في "سبتمبر 2007 تحت رقم: **22**

3- مكانة العربية في الوطنية الجزائرية

"اللسان والثقافة"

الأساتذة

مرزاق بقطاش

الطاهر بن عيشة

سهيل الخالدي

تنشيط الأستاذ : محمد سعيدي

صدر في سبتمبر 2007 تحت رقم : **23**

4- أمسية شعرية للشاعرين

عفاف فنوح و مراد بوشحيط

قصر المعارض الجزائر في 09 نوفمبر 2006

تنشيط الأستاذ: فرحات جلاب

صدر في سبتمبر 2007 تحت رقم : **24**

5- مكانة المرأة في المجتمع التارقي ومقاومته للاحتلال الكولونيالي

ندوة على هامش المعرض الدولي الحادي عشر للكتاب 2006

قصر المعارض

صدر في أكتوبر 2007 تحت رقم: **25**

6- أهمية وضع سياسة وطنية للغات

فندق الأوراسي في 04 مارس 2007

محاضرة لمعالي الأستاذ عبد الحميد مهري

للغة العربية

تنشيط الأستاذ: عثماني الهاشمي

صدر في سبتمبر 2007 تحت رقم: **26**

7- ثقافة الطفل في الأسرة

مائدة مستديرة بثانوية زينب أم المساكين الجزائر .

صدر في فيفري 2008 تحت رقم: **27**

*** كتاب المجتمع المدني وترقية استعمال اللغة العربية**

أصدر المجلس مِؤخرا كتابا بعنوان: المجتمع المدني وترقية استعمال اللغة العربية ضم فعاليات اليوم الدراسي مع بعض الحركات الجمعوية المعنية مثل جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، جمعية "إقرأ"، "الاتحادات الطلابية"، الكشافة الإسلامية الجزائرية، اتحاد التجار والحرفيين والذي جرى في فبراير 2006.

والكتاب من الحجم المتوسط يقع 110 صفحة.

وهدف المجلس من هذا اللقاء تفعيل الحركة الجمعوية والعمل الجواري، في مسعى لتوسيع استعمال اللغة العربية في المحيط والمجتمع، حيث تنتشر ظاهرة التلوث اللغوي والتهجين.

*** تكريم الدكتور عبد الله شريط**

بمناسبة يوم العلم نظم المجلس حفل تكريم للأستاذ عبد الله شريط ضمن منبره الجديد "شخصية ومسار" يوم 14 أفريل 2008 بفندق الأوراسي نشطه الأستاذ الصادق بخوش مكلف بمهمة لدى رئاسة الجمهورية، حضره عدد هام من رجالات السياسة والفكر والأدب منهم على سبيل

المثال لا الحصر السادة محمد الشريف عباس وزير المجاهدين، عبد الحميد مهري، لمين بشيشي، بثينة شريط، محمد العربي دماغ العتروس، الدكتور الشيخ أبو عمران رئيس المجلس الأعلى الإسلامي، الدكتور أمين الزاوي مدير عام المكتبة الوطنية، الشاعر عز الدين ميهوبي مدير عام المؤسسة الوطنية للإذاعة، محمد سعيدي، الدكتور أحمد منور والشاعر الكاتب عمر أزراج.

وقد ألقى الدكتور محمد العربي ولد خليفة كلمة بهذه المناسبة الثقافية نوه فيها بجهود المحتفى به الدكتور عبد الله شريط عميد علماء الاجتماع والفلسفة بالجزائر.

كما لم يفوت بعض الحضور هذه الفرصة للإدلاء بشهاداتهم التي أجمعت كلها على تثمين جهود عبد الله شريط العلمية التي ستكون لا محالة قدوة للأجيال المقبلة .

مختصر السيرة الذاتية للدكتور شريط

ولد ببلدية مسكانة ولاية أم البواقي سنة 1921، زاول تعليمه الابتدائي بمسكانة، والمتوسط بمدرسة (تهذيب البنين) بتبسة التابعة لجمعية العلماء على يدي الشيخ العربي التبسي (1932 – 1934)

ذهب إلى تونس عام 1938 وبقي فيها سنة واحدة ثم رجع إلى الجزائر حيث التحق بقسنطينة .

عند انتهاء الحرب العالمية الثانية فصد تونس للدراسة بجامع الزيتونة التي نال فيها شهادة التطويع عام 1946.

التحق بجامعة دمشق عام 1947 حيث نال شهادة الليسانس في الفلسفة عام 1951 .

1952 : التحق بتونس مدرسا بجامع الزيتونة ومشاركا في البعثة السياسية لجبهة التحرير الوطني غداة انطلاق الثورة التحريرية 1954 .

1962 : عاد إلى الجزائر للعمل أستاذا بجامعة الجزائر ومشاركا فعالا في الحياة الفكرية والثقافية.

الشهادات:

ـ دكتوراه الدولة في موضوع (الفكر الأخلاقي عند ابن خلدون 1972).

إنجاز وتصميم منشورات ثالة – الأبيار، الجزائر.
هاتف: 021 .92.36.58 / 92.02.43
فاكس :11 42 92 021
e.mail : thalaed @ hotmail.com